إلى أين وكيف

الكمال... حقيقته

وأساليبه

محمد عالم‌زاده النوری

تعریب: ضیاءالدین الخزرجی، احمد الناظم

مدخل البحث

تتفتح فى فطرة الشاب الذى يصل مرحلة البلوغ بموازاة نموه العقلى والجسدى، غريزة البحث عن الشعارات والقيم والمبادئ لأجل الوصول إلى الحقيقة. فيبدأ حركة جديدة من البحث والتنقيب عن السعادة والكمال. وتواجه المطالبات والاحتياجات الباطنية المتوهجة والمستعرة بالعواطف والأحاسيس فى أعماقه مانعين حقيقيين يعيقانه عن الحركة.

وهما:

١. الجهل وقلّة الوعى والمعرفة فى: ما ينبغى عليه أن يصنع للوصول إلى الكمال؟

٢. وجود القوى المتنافرة والمشاكسة، التى تسوقه نحو إطاعة الهوى، واتباع الشهوات.

ونحن نسعى فى هذا المختصر جاهدين إلى دراسة وبيان أهم أسباب القلق والتوتّر فى نفوس الشباب من خلال حركتهم نحو الكمال، والإجابة عن أهمّ أسئلتهم واستفساراتهم، ومعرفة الشبهات والغموض الذى علق فى أذهانهم من خلالها، لتكون الإجابة دليلا ناصعاً، وبرهاناً قاطعاً لهم فى تحديد اتجاههم ومسارهم الصحيح، والكشف عن المنطق الواضح ومعرفة فلسفة الحياة، وينمّى فى أعماقهم نشاطاً وشعوراً بضرورة الاستمرار لإكمال المسير.

إن من أهم أهداف هذا البحث هنا: هو عرض خطاب واضح وصريح فى معرفة النفس. فإن استطاع أن يجعل الشاب يخطو عدة خطوات فى معرفة نفسه، فانه حقق نجاحاً باهراً فى هذا المسير.

وتشبه قصة من جهل نفسه، وقدراته وقابلياته ؛ وطرق الوصول الى الكمال، فرخة النسر، التى تغطّى بأجنحة الدجاجة، ورأت نفسها بين أفراخها، وتربت فى دفء أحضانها، شأنها فى ذلك كشأنها أى إنها لم تعرف قدر نفسها، كأن ينبغى عليها أن تعيش دجاجة لا كنسراً!! باحثة عن حبات صغيرة تلتقطها من على الأرض، لاعبةً مع فراخها، وأحياناً تحلّق وتطير قليلاً بعد جهد جهيد ومشقّة بالغة.

وبينما هى فى هذه الحال، وإذا بها يلوح لها فى السماء الشاهقة طائرا آخر من فصيلته، ذا قدرة فائقة، وسرعة عالية محلّقاً مثلها، لها ألوان جميلة زاهية تسرّ الناظرين، فلم يرض هذا النسر الصغير فى قرارة نفسه أن يكون هو نفسه مثل ذلك الطائر الآخر المستعلى، ومن فصيلته.

ولو عرف هذا النسر الصغير: أىّ قابلية يمتلكها للنمو وأى استعداد كمن فى أعماق وجوده، وأىّ أجنحة قويّة يمتلكها ليحلق بها، وأىّ مخالب جارحة وقوية يستخدمها فى اصطياد فريسته، وأىّ أعين ثاقبة يرى بها، وأىّ منقار حادّ يقطّع به أوصال عدوّه، لما رضى حينئذ بسذاجة العيش، ولاكتفى بحياة الزهد والقناعة، ولما ارتضى لنفسه حياة الذلّ والهوان، والاستكانة والامتهان.

ومن الواضح أن مجرد التفات هذا النسر الى نفسه، وتعرفه على قابلياته وقدراته، هى غير كافية للوصول الى الكمال؛ فالحركة نحو الكمال، والوصول الى قمم الجبال الشاهقة، بحاجة إلى جهد وعناء، وانصراف عن اللذائذ والشهوات، ومحاربة القوى المشاكسة والمزاحمة.

ولكن لا شک فى أن معرفة الذات، توجد دواعى ثابتة وراسخة فى القلب، فتزيل عناء السفر، وتستبدل مرارة التحدّى والمواجهة إلى حلاوة ولذّة، وتولّد عنده شعوراً بالرضا والقبول.

ويعلم المؤلف جيدا أن كبر حجم الكتاب، وكثرة الأوراق، هو عائق وحاجز كبير يصدّ عن قراءته، إلاّ أن الالتفات لأهمية البحث ومدى تأثيره فى تحديد مصير الإنسان، يعدّ كافياً فى إيجاد دواعى الرغبة والشوق الى قراءته.

ويعلم المخاطب أيضاً أن كافة محتويات هذا الكتاب – مثله مثل أىّ كتاب آخر – ليس له فيه أمراً جديداا، إلاّ أنّه يتضمن فى صفحاته مجموعة كثيرة من الخطابات الجديدة، وهى وإن لم ترتّب على شكل أسئلة وأجوبة، لكنها عبارة عن إجابات لتساؤلاته المعاصرة والحيّة.

عرضت محتوى هذه المجموعة التى تم تدوينها بعد اتصالات كثيرة مع الشباب والتعرف على مشاكلهم الفكرية والثقافية، على الطلبة الجامعيين فى عدة المراكز الجامعية وذلک فى أجواء معنوية من شهر رمضان المبارک. ولكن فى المرحلة التدوين حاولنا أن تكون هذه المجموعة مفيدة لجميع الشباب الذين هم بصدد اعادة النظر فى النظام القيمى والمعنوى الحاكم على أذهانهم، ويبحثون عن «الطريق» و«الهدف» فى الحياة، (و تشمل هذه الشريحة من الشباب كلّ من: طلبة الجامعات والحوزات العلمية، وطلبة الإعداديات والثانويات العامة، وعموم المثقفين، وغيرهم من شرائح المجتمع)، بل كل من له ارتباط مباشر بالشرائح الشابة، والإجابة على استفساراتهم، وأسئلتهم الهامة.

وقد سعينا جهد الامكان الابتعاد عن عرض الأمور الكلية التى تحتوى على الغموض والإبهام، وذكرنا أمثلة محسوسة فى مواطن عديدة من هذا الكتاب، لرفع الغموض والإبهام عن العبارات لفهم المعانى، والتعقيد فى استخدام المفردات الكلية، وقد استدعى هذا الأمر إلى إطالة البحث أحيانا فى بعض الموارد، خلافاً لما دعونا إليه من عدم الإطالة والتكرار، والابتعاد عنها.

وهذا التكرار لبعض المواضيع والأبحاث فى هذا الكتاب، كان عن قصد وعمد، وسنذكر السرّ فى ذلک فى الفصل الرابع.

يخاطب هذا الكتاب بأسلوب واضح وصريح الشاب المسلم الواعى والمثقف، الذى يؤمن بالقرآن، ويعتقد بكلام الأئمة المعصومين (ع). ومن هذه الجهة لم يكن من الضرورى إثبات اعتبار القرآن الكريم والحديث الشريف، قبل الاستناد عليهما.

وأخيراً نقدّم فائق شكرنا إلى كلّ من ساهم فى إعداد المحتوى، وتنظيم هذا الأثر وأخصّ شكرى الجزيل إلى أسرتى الكريمة، التى ضحت وآثرت على نفسها، لإيجاد أجواء التحقيق. أسأل من إمام الأتقياء والصلحاء (عج)أن يخصّهم

ويشملهم بعطفه وعنايته. كما أشكر المؤسسة البحثوية والتعليمية للإمام الخمينى(قدّس سرّه) على ما بذلتـه مـن قصـارى جهودها، وتحمّلها العبأ الأكبر فى طبع الكتاب ونشره.

وأشكر أيضاً كافة الأخوة الذين يساهمون ويدعمون هذا الكتاب من خلال إرسالهم مقترحـاتهم وانتقـاداتهم البنّـاءة لإصلاح أبحاثه وتطويرها، والارتقاء بها إلى المستوى المطلوب.

الفصل الأول: إلى أين؟

السؤال

سعينا نحن البشر دوماً منذ أن عرفنا أنفسنا فى البحث عن «وضع أفضل»، وقمنا بأمور كثيرة ومختلفة، فوفّرنا لأنفسنا أحياناً أثاث البيت، وفتّشنا أحياناً أخرى عن النجاح فى المجتمع. واتجهنا مرّة نحو إيجاد حالات معنوية، وأخرى فى طلب العلم الأكثر، وسعينا أحياناً باحثين عن الرخاء والراحة والنعيم واللّذة، وغير ذلك، واعتقدنا أن هذا نافع ومؤثر لإيجاد «الحالة الأفضل».

ومن هذا المنطلق، فلو قمنا بتحديث هذه المساعى والجهود المتعلقة بالأمور الصغيرة والكبيرة، والقضايا الجزئية والكلّية فى الحياة، واستذكارها فى أذهاننا وأعدنا النظر فيها، فسنعثر بسهولة على موارد من تلك المساعى قد حلّ بها الفشل والإخفاق، وأثارت غضبنا وسخطنا. ولكن هناك محاولات أخرى من تلك المساعى والجهود قد أثمرت عن نجاحات ونتائج إيجابية، أدّت إلى ارتياحنا ورضانا.

وتسير الأمور دائما على هذا المنوال، وهو: أننا متى ما وصلنا إلى «الوضع الأفضل»، فسنحاول مرّة أخرى البحث عن حالة أخرى هى أفضل من سابقتها وهكذا.

فشراء لعب الأطفال، أو الثياب الجدد، أو اقتناء كتاب، قد يسرّنا ويفرحنا كثيراً، إلا أنه لم يرضنا تماماً! وكذلك لو هيّئنا بعض الزينة الى البيت، أو اشترينا دراجة هوائية، فبعد أن آنسنا بها بعض الوقت، بدأنا نفكّر فى امتلاك زينة أكثر، أو وسيلة أفضل منها!، وإن كلّفنا ذلك أسعارا باهضة!، وشعرنا دائماً بالنقص والحاجة.

ومن الطبيعى هنا أن نسأل أنفسنا بعد كلّ هذه التجارب ونقول:

ما هى الحالة الأفضل والأسلوب الأمثل الذى ينبغى أن نتعايش معه؟

وأىّ حالة إذا وصلنا إليها، سوف نحقق كلّ طموحنا وأمنياتنا، فلانفكر فى شىء آخر؟!.

إن أعظم أمنية يطمح إليها الإنسان فى حياته هى الوصول إلى آخر مراحل الكمال، والشعور بالسعادة العظمى والرضا. فأين يكمن هذا الموقع الذى يتصوره الإنسان، ويطمح فى الوصول إليه دوماً؟!.

وأين هى نقطة النهاية فى حركة الإنسان؟ وأعلى قمة فى صعوده ؟!.

وإلى أىّ مدى ينمو فيه الإنسان، ويهنأ فى حياته؟!.

وما هو آخر مكان يصل اليه هذا الإنسان، ليكون «الهدف الأخير» فى حركته؟!.

إننا لانفكر من خلال عرض هذه التساؤلات بـ«النجاة» وحده، بل نبحث عن الكمال ونطلبه، ولانفكر أبداً فى البقاء على ما نحن عليه «من الحدّ الأدنى» من الحياة، بل نبحث عن «الحد الأعلى والأسمى»، ونريد أن نطوّر أنفسنا بأنفسنا! وبالإضافة الى أصل «الحياة» الإنسانية، فإن هناك محاولات نحو التفتح والازدهار والنضوج والتكامل أيضاً.

ويمكن بيان هذه التساؤلات بأسلوب آخر وهو:

من هو أفضل إنسان فى الوجود؟

ومن هو الإنسان الأكمل، الأمثل، القدوة، الأسوة، الأفضل، الأسمى، الأعلى والأجلّ، الذى يحظى بأعلى درجة من الاحترام والشأنية والموقع الاجتماعى، والأكثر سعادة وهناء فى الحياة؟!.

وما هى الشخصية الأنسب التى يتمنى الإنسان أن يتقمّصها فى تعاطيه وأسلوب تعامله مع الآخرين؟!.

وأىّ نموذج أمثل يختاره الإنسان للتأسى به والاقتداء؟!. ليتحرک باتجاهه دوماً فى كل الحالات، ومختلف الظروف؟!.

ومن الذى وصل إلى القمّة وحقّق كلّ طموحاته وآماله؟!. أو تصدّى لموقعه المناسب، وارتاح إليه، واطمأن به قلبه، وشعر بالرضا فيما حقّقه؟!.

ومن الذى حقّق كلّ رغباته وأمنياته؟ وتحوّلت تصوراته ومفاهيمه إلى حقائق وواقع محسوس؟ وتبدّلت قابلياته وقواه إلى مرحلة الفعلية؟!.

إننا فى عرضنا لهذه التساؤلات، لانبحث عن اسم أو عنوان «فرد» محدّد، بل نريد الكشف عن الملاكات والمعايير والخصائص والميزات التى رجحت ذلک الشخص، وجعلته هو الفرد الأكمل والأسمى، الأفضل والأتم!.

نريد أن نتعرف على شخصيته، ونريد أن نعرف كيف نقيس من خلال شخصيته مقدار الإنسانية وقيمة البشر!.

ونريد أن نعرف أيضاً: أىّ شىء يكون سبباً فى إنضاج إنسانية الإنسان، ويجعل «الإنسان» أكثر إنسانية بمعنى الكلمة؟!.

أهمية البحث

لا شک فى أن الإجابة عن كلّ تلک التساؤلات، لها آثار ونتائج مدهشة فى تنظيم حياتنا، وإيجاد التوازن فى ممارساتنا، وهذا السؤال هو من أهم الأسئلة التى عثر عليها الإنسان فى حياته عبر تجاربه المريرة فى فترات التاريخ، وعلى مختلف العصور والأزمنة أثناء مسيرته، وكان يبحث عن إجابات مرضية ومقبولة لها. وتحدّد هذه الإجابة «آمال» الإنسان وطموحاته، وتضع أمامه نموذجا فى التأسى والاقتداء، وتطوّر له «برامج حياته»، وتعيّن «مسار حركته» واتجاهها، وتحدد «جهة» كافة أنشطته، لتكون خاضعة «للمنطق».

الافتراضات

لكى نتعرف أكثر على أهمية هذه التساؤلات، نحاول الإجابة عن بعضها، وذلک من خلال عرضنا لبعض الافتراضات وتحليلها للإجابة عن تلک التساؤلات، وهى:

العلم

لنفترض جدلاً أن كمال الإنسان وقيمته هو فى طلب العلم وتحصيله. فعلى هذا الفرض:

أ) إن كل من حصل على علم أكثر، فهو أقرب إلى الإنسانية، وقد اقترب من مشارف القمم. فأكثر الناس قيمة، أعلمهم. وأسعد الناس هو من يعرف أسرار الخلقة والكون.

ب) إن أكبر أمنية يتطلع لها الإنسان هى معرفة كثير من الحقائق والأسرار، والقواعد الحاكمة على نظام الخلقة والكون، ليجمع عدد هائل من المعلومات.

ج) ان كل إنسان مثل «ابن سينا» انسان مثالى يجب أن بكون أسوة وقدوة للآخرين.

د) ينبغى أن يكون منطق كافة الفعاليات والأنشطة فى الحياة وجهاتها قائماً على أساس تكديس العلم.

فلوسئل شخص مثلا: لم فعلت ذلک؟ فلإقناعه فى الإجابة نقول له كلمة واحدة: لأكون ناجحاً وموفّقاً فى الإكثار من طلب العلم واكتسابه.

فعلى هذا، يكمن سرّ كل شىء هنا فى تعلم «العلم» وطلبه.

ه) تتحدد كمية ونوعية أنشطة الإنسان وممارساته فى هذا المعيار، وهو:أن كل ظاهرة أو عنصر يدعم ويساعد على طلب العلم، فسيكون هو أولى وأرجح من غيره، وأكثر قيمة، وأعلى شأناً.

فمن المستحسن هنا: الاستعانة بـ«العلم» فى كافة البرامج والأنشطة الحياتية للارتقاء بها إلى المستوى المطلوب.

وعليه: ينبغى إزالة كلّ الموانع التى تعرقل حركة معرفة الإنسان وتوجهاته العامة، وإزالتها عن قائمة الأنشطة والفعاليات المرخّصة والمسموح بها.

و) من أهم الوظائف والمسئوليات الملقاة على عاتقنا هى:

الكشف عن الطرق والأساليب المؤدية إلى الإكثار من طلب العلم، والوصول إليه فى أقصر فترة ممكنة. وبذل جهود أقل، واستخدام أدواة وآليات مفيدة وناجحة تسهّل الحركة نحو دنيا العلم.

ز) المربى الأفضل هو من يعلمنا كثيراً من العلوم والمعارف.

وأحبّ الناس لنا هو من: يفتح لنا آفاقاً واسعة من العلم، ويقدم لنا دعماً، ويبذل جهوداً ومساعى مكثّفة ومضاعفة فى طلب العلم.

ج) المجتمع المثالى المطلوب: هو المجتمع الذى يحترم العلم، ويسهّل فى تحصيله.

الثروة

لنفترض جدلاً أن الثروة والمال هما سبب كمال الإنسان وقدرته ونفوذه. فعلى هذا الفرض:

أ) الغنىّ من الناس هو الأكثر سعادة، وهو الأكمل والأحسن قيمة وموقعاً فى المجتمع.

ب) إن أفضل أمنية للإنسان فى هذه الحياة الدنيا هى الاستثمارالأكبر لرؤوس أمواله، والاستفادة من المواهب الطبيعية.

ج) منطلق الإنسان فى حركته هو الاقتداء والتأسّى بأحد أصحاب رؤوس الأموال والتجّار الكبارالأغنياء.

د) منطق الإنسان فى حركته الدؤوبة اليومية هو: تكديس الأموال.

فيكون عمله، وطلبه للعلم، ونومه، وأكله، ونزهته، وارتباطه بالآخرين... كلّها تصب فى خدمة الأموال والثروة، وجمعها وتكديسها.

فلو سئل شخص مثلاً ومن خلال هذا المنطق:

لم لاتطلب العلم؟

فيجيب عنه: لأنى أريد جمع الأموال وتكديس الثروات، والاستثمار المادى فى كافة المجالات!.

ولو سئل أيضا: لماذا تعمل؟

فيجيب: ليكون لى ودائع وأموال، وذخائر أكثر فى المصارف والبنوک وغيرها!.

ولو سئل: لماذا تتناول الطعام؟ أو تسترخى إلى الراحة والاستجمام؟

فيجيب قائلاً: ليكون لى قوة وطاقة فى جمع الأموال وتكديس الثروات الطائلة!.

ولو سئل: لماذا تخاطر بنفسک وتتعبها؟

فيجيب: لأن اكتساب الثروة وجمع المال له أهمية بالغة وقصوى فى حياتى!.

ه) علينا أن نبذل جهوداً مضاعفة ونسعى سعيا حثيثاً لتطوير مشروع برامجنا فى الحياة، لينتهى أخيراً إلى جمع الصفقات والأموال الطائلة، واستثمارها فى كافة القطاعات.

وعلى هذا، فإن كافة الفعاليات والأنشطة إنما تكون مستساغة وسهلة، إذا كانت أقل مانع أمام تحقيق هذا الهدف. فلو كان التملّى بالطعام، أو كثرة النوم، أو طلب العلم، مانعاً عن كسب الثروة وجمع الأموال وتكديسها، فيجب إخراجه عن قائمة البرامج اليومية وإزالته.

و) إن من أهم الوظائف والمسئوليات الملقاة على عاتقنا فى هذه المرحلة: هو المعرفة الكافية بالأساليب والطرق المؤدية إلى جمع الثروات وتكديس الأموال، وكسب التجارب والمهارات اللازمة، باستخدام الأساليب والطرق المتنوعة والعديدة فى ذلک، وتطبيق كافة الآليات والخطط والبرامج النافعة والمفيدة فى هذا المسير، وعدم ايقاف هذه الحركة نحو تحقيق الهدف المنشود، والمضى بهذا الاتجاه.

ز) إن من يقوم أكثر بخدمتنا : هو من يضع أمامنا كثيراً من الأموال.

والمربىّ الأفضل لنا: هو من يدلنا على كيفية جمع الأموال وتكديس الثروات.

ج) المدينة الفاضلة هى المكان المناسب لجمع الأموال الطائلة وتكديس الثروات.

العبادة

ولو كان ملاک الإنسانية والقيمة البشرية يحصل بالعبادة.

فلنفترض ما يلى:

أ) إن من يتعبد اكثر، ويذرف الدموع أكثر، ويتوسل ويتضرع بأنواع الدعاء، فهو الإنسان الأكمل والأسعد فى الحياة.

أما من كان له نصيب وحظّ أقلّ من هذه الأمور، فهو أبعد عن قمم السعادة والكمال، وأكثر حرماناً عن أىّ قيمة أو اعتبار.

ب) إن أفضل أمنية يمكننا أن نتصوها للإنسان لتحقيق طموحه، هى أمنية الوصول إلى أقصى درجات العبادة، وبذل أكثر جهد فى الخضوع والتذلل والاستكانة والخشوع لله عز وجل.

ج) الإنسان المثالى الذى يمكن أن نعتبره قدوة وأسوة: هو الإنسان العابد الزاهد المتضرع إلى الله بكرة وأصيلاً. وقد أفنى عمره وجسمه فى التهجد والعبادة، والتوسل والدعاء والاستكانة والاخلاص فى العبودية.

د) العبادة هى المنطق والمنطلق لكافة التحركات والتوجهات والأنشطة والفعاليات فى الحياة. وينبغى أن تتجه سائر البرامج والمشاريع بهذا الاتجاه، ومضاعفتها كمّاً وكيفاً.

ه) يرتبط قيمة كل عمل ينجزه الإنسان بميزان التأثير الذى يحصل من العبادة. ويتم تنظيم مقدار وكيفية أمور الحياة عن طريق هذا الميزان، فكل عمل يقربنا الى العبادة أكثر، أو يمهد لنا ظرفا للعبادة الأفضل، فهو أكثر مطلوبية، وينبغى الاهتمام به أكثر.

و) من أهم وظائفنا ومسئولياتنا هى: معرفة الأساليب والطرق المؤدية إلى مضاعفة العبادة.

ز) إنّ أفضل مربى فى اعتقادنا هو من يدلّنا على عبادة الله، ويرغّبنا أو يجبرنا إلى عبادته سبحانه.

ج) المجتمع المثالى فى نظرنا: هو المجتمع الذى يمهّد ويسهل لعبادة الله تعالى.

افتراضات أخرى

وهناک افتراضات أخرى بهذا النحو، هى قابلة للدراسة والتحليل: كالقدرة، والجمال، والأخلاق الفاضلة والحميدة، وحبّ الذات، والشهرة، والمحبوبية، والتنزه والمتعة، والتفرّغ.....

وكل ما ذكرناه فى العلم والقدرة والثروة يجرى هنا أيضاً فى كلّ الموارد المذكورة.

وكما يشاهد هنا: أن إجابات متعددة، عرضت لأهم تساؤل فى حياة البشر، فكان لها آثار عديدة ومنها تأثيرات مضرة بحياة الإنسان.

ولعل أيسر الإجابات التى تدهش الأبصار وتجذب اليها العقول فى الوهلة الاولى، هى:

أن قيمة الإنسان هو بمجموع هذه الكمالات، واستثمارها، وبها تتعين درجة سعادة الإنسان.

فالعلم، والقدرة، والكفاءة، والجمال، والجلال، والموقع الاجتماعى والمنزلة الرفيعة، والعبودية، والخضوع، والتذلل والاستكانة و... كل منها يضاعف فى كمال الإنسان، وأهميته ودوره فى الحياة، وتضمن له نسبة مئوية معينة. فالجمال وأمور أخرى مشابهة هى كمال للجسم البشرى.

والذكاء والنبوغ هما كمال للفكر الإنسانى.

والحب والحنان والتواضع هى كمالات لروح الإنسان.

ولو افترضنا هذا كله:

فالسؤال لايزال قائماً وهو:

هل الإنسان العالم هو الأكمل؟!أم الإنسان السخىّ؟! وهل هو ابن سينا أم حاتم الطائىّ؟!

وهل القدرة والسلطة هى أكثر قيمة وأهمية أم الفن؟ أم الفكر الثاقب؟ أم نزاهة الروح ولطافتها؟! أم الجمال، والفن، والرياضة أم الرئاسة؟!

وكيف نقيّم صفات الإنسان المختلفة؟!

وما مدى أهمية العناصر المكوّنة لقيمة الإنسان؟!

وأىّ تركيب لها هو أكثر نجاحاً ومطلوبية؟!

وهل أن كلّ هذه الاجزاء هى فى مستوى واحد من التأثير؟ أو أن مدى تأثيرها فى تكامل الانسان مختلفة؟!

وهل اننا نكتمل أكثر فيما لو انشغلنا بالعلم، واستفدنا من قدرة تفكيرنا؟ وإذا استثمرنا الوقت والزمان؟ أم إذا قمنا بخدمات الى الناس؟

وهل أن الانشغال بالعبادة أكثر فائدة وعطاء لنا؟ أم اللحظات التى يوفر فيها الإنسان مستلزمات حياة أسرته ورزق عائلته؟!.

ومحصل ذلک هو: كيف نستثمر فرص أعمارنا المحدودة؟ وفى أى شىء؟ لنحصل على فوائد كثيرة من الكمال؟ أو نكسب كثيراً من الإنسانية؟!

لا شک فى أن الوصول إلى كل هذه الحالات هو أمر خارج عن نطاق قدرات الإنسان وقابلياته المحدودة.

ولكن كيف يمكن أن نوزّع قدراتنا وقابلياتنا وأوقاتنا لهذه الأمور؟

ولأىّ منها نعير الأهمية ونمنح الأصالة ؟ وأىّ عن منها نبحث فى الحواشى والهوامش لكونها غير مهمة؟

ولو لم يمكن الجمع بينها، فايّها مقدّم على الآخر؟

وأىّ منها جيد؟ وأيّها أجود؟

وكيف ندير أنفسنا؟ ونبرمج لحياتنا وأوقاتنا؟

وكيف نحسّن من أوضاعنا؟ ليكون لها قيمة واعتبار، وتكون أكثر تكاملاً؟

هذه الإبهامات والتساؤلات التى تطرح بهذا التضخيم، عالقة فى أذهاننا دائماً، وهى تبحث لها عن حلول، ولكننا قليلاً ما شعرنا أو أحسسنا بوجودها. وقد أجبنا نحن وكافة البشرية فى مواقع الضرورة واللزوم دون إرادة منا أو اختيار عن كثير من هذه التساؤلات!، وأوضحنا فيها عن مسئولياتنا وتكاليفنا تجاهها فى مقام العمل، ولم نوقف ذلك المحرّك النابض بالحياة فى نفوسنا، ولم نتوقف عن الحركة أبداً، وقد اخترنا فى كل لحظة عملاً واحداً من بين الأعمال، ورحّبنا به بحفاوة، وقمنا به خير قيام.

فلم نقض ساعة واحدة من عمرنا بالبطالة والبطر، ولم تكن أعمارنا بلا عمل ومشروع أبداً. إلا أننا ننظر الآن لتلك الاختيارات والتراجيح بعين الشك والترديد.

أ لم يكن بوسعنا بدلا من أن نقضى ساعات طويلة فى طلب العلم، بأن نستغنى عن كل ذلك، ونملأ حياتنا ببرامج مثمرة ومشاريع مفيدة أخرى هى أفضل؟!.

ألم نهدر كثيراً من ساعات راحتنا واستجمامنا عبثاً ولغوا؟

ولكى نحصل على قيم أعلى وفرص أكثر، ويكون لوقتنا معنى، ما الذى كان علينا أن نفعل ومن الأن فصاعدا ماذا نفعل؟

إن من يقوم بأعمال المرتاضين، ويفعل حركات غريبة ومدهشة، كأن يلقى بنفسه من مكان شاهق على ركام خاو ملىء بقصاص الورق، أو معلّقاً بأعواد القشّ، ويشاهده الآخرون وهو يأكل شظايا الزجاج، أو يقفز بدراجته النارية أو الهوائية أو سيارته من مكان مرتفع إلى الأسفل دون أن يصاب بأذى، أو يأنس بالحيوانات المفترسة ويقيم معها علاقات حميمة وصداقة، أو يختار لمستقبله مهنة الفن والتمثيل أو الفوز فى بطولة ما، عن أى شىء يبحث؟ وماذا يريد أن يحقق بكل تلك الأفعال من أهداف؟

لقد أجاب بنفسه إجمالاً على كل هذه التساؤلات، فهو يبحث بشكل عفوى عن قيمته الضالة فى: القدرة، الشهرة والعظمة، المحبوبية، إرضاء الغريزة، وغير ذلك...

فالمجتمع الذى لاينطلق لسانه بأن يتلفظ كلمة «الشهيد» ليقول الشهيد شمران مثلاً، ويرجح لفظة «الدكتور» فيقول: «الدكتور» شمران! فهو فى الحقيقة يهتم بدرجة عالية بالشهادة الدراسية بدلا من مفهوم الشهادة فى سبيل الله!!.

إن لفظة «الشهادة» و«الدكتور» كلاهما مهمان فى تكريم كبار الشخصيات، والانسان يبحث عن أبلغ وأجمل الألفاظ فى ابراز هذا التكريم، فأى منهما استعمل أكثر فهذا يدل على أن قيمة وأهمية محتواه فى نظر الناس أكثر.

فالصور واللوحات التى تعلّق على الجدران وفى الطرقات وصفحات ألبوم الصور، هى دلائل وإشارات حقيقية تؤكد على أهمية أصحابها، وقيمتهم فى نظر الرسام والمصور الفنّان الذى رسم هذه الصور بريشته بهذه الروعة والجمال، فأبدع

فى رسمها وتصويرها. وهذه اللوحات والصور الصامتة تعبّر بصراحة عن صرخات أصحابها بأعذب الأنغام بوجه من يقف أمامها، فيسمع عزف ألحانها وأنغامها.

فمن يجمع صور العلماء والمفكرين، فهو داعية إسلامى بغير لسانه، دون أن يثير حوله ضجيج إعلامى أو توتر وقلق نفسى أو فكرى.

ومن جمع لوحات الشهداء، ففيها أمانى الموت الأحمرالقاتم وهو لون الشهادة، فقام بتكريم وإجلال الشهادة والشهداء.

والذى اختار رسم صور الفنانين والممثلين، فهو يعبّر عن مدى اهتمامه بالفن، والمحبوبية والشهرة....وقيمتها فى نظره.

وهذه الإجابات العفوية واللاإرادية عن كثير من تلك التساؤلات هى وإن كانت كثيرة ومتنوعة، لكنها لاتلبى نزعة البحث عن الحقيقة فى أعماقنا، ولاتروى غليلنا وظمأنا. فنحن بصدد تحرير إجابات دقيقة وواضحة عن تلك التساؤلات الأساسية والمهمة فى الحياة، لنحدد أهميتها واعتبارها، وإلا فإن الإجابات التى تفتقد إلى التأمل والدقة وإمعان النظر، والفارغة عن المحتوى كثيرة، وقد ملأت حياتنا!.

إننا نبحث عن أسلوب يوصل مسيرتنا وحركتنا الأصلية إلى جهة معقولة ؛ لأن من لايملك هدفاً محدداً فى حياته، تراه يتأمل ويستغرق فى كلّ زاوية من زوايا المسيرساعات طويلة مثلا فى مشاهدة المناظر الخدّاعة والمضلّلة. وبعد ساعة أخرى، ستحوم فى ذهنه إجابات عديدة حول ما شاهده، فهل يصل مثل هذا الإنسان إلى طموحه وأهدافه المنشودة، ومقصده الأخير؟

لقد سعى هذا الإنسان منذ القدم فى البحث عن الطعام الشهىّ واللذيذ ليتناوله.

فأحيانا يتعبه البحث عن الثياب الأنيقة ليرتديها.

وأحيانا يكون أهم شىء فى حياته هو اقتناء آلة أو جهاز شيّق وممتع.

وأخرى يفكّر فى النجاح والفوز فى مسابقة ما، أو الدخول إلى الجامعة، أو بناء أسرة وتشكيل عائلة، أو الإعداد لبناء بيت، وامتلاك دار للسكن، أو تجميع أثاث البيت، وامتلاك سيارة، أو العيش برغد وهناء ولذة أكثر، والنزهة والمتعة والسياحة الأكمل، والحصول على وظيفة حكومية أو عمل، أو منصب عال فى الدولة أو منزلة رفيعة ومرموقة فى المجتمع، ومزايا ومنح ومرتب شهرى أكثر، و....

فهل أن أكبر هدف فى حياتنا هو الالتذاذ والتمتع بالمناظر والمشاهد الجميلة، والطبيعة الساحرة؟

الجواب عن هذا التساؤل بلا شك هو: كلا!!.

لأن هدف الإنسان فى حياته ينبغى أن يكون أكبر وأكمل من حدود ونطاق سعة وجوده، وأفق تفكيره الضيق والمحصور، ليكون عمره مثمراً ومعقولا تجاه هذا الهدف.

ثم إن الأمور الجزئية والصغيرة التى لاتملأ قدح وجود الإنسان الكبير؛ هى غير قادرة على إرضاء نفسه واقناعها، وهى لن تتركه هادئاً، ولاتدعه يهدأ له بال أبداً.

إن من ظلّ عن معرفة هدفه السامى فى الحياة الدنيا، مثله كحصان الطاحونة الذى يدور حول نفسه، ولايحقّق شيئا فى حياته!. فهذا الإنسان يبذل كل ما لديه من وقت وجهد وأموال، إلا أنه لايحقق أىّ نتيجة، ولـن يتقـدم فـى هـذه الحركـة المظنية والشاقة خطوة واحدة الى الأمام!.

ومن ليس له هدف وطموح فى الحياة، فإن كل لحظة تمضى من عمره، سيكون فيها كدودة القزّ، أكثر تقييداً وتحديداً، حيث يصعب عليه الخروج من تلك القيود التى اصطنعها لنفسه.

أما من عرف هدفه فى الحياة، وكان لبيباً حاذقاً، فإنه يبذل قصارى جهده للوصول إلى هدفه؛ وإن انحرف أحيانا عن مسيره الطبيعى بحسب الظاهر فذلک لاستعادة قواه، والتهيؤ والاستعداد أكثر من السابق، مثله فى ذلک: كسائق حافلة، ربّما ينحرف عن الطريق لفترة معينة، قاصداً الاستراحة أو الإخلاد إلى النوم لبضع دقائق من عناء السفر، أو لتناول الطعـام فـى أحد المطاعم على قارعة الطريق، أو لأداء فرض الصلاة، أو لتعبئة الوقود فى الحافلة، وغير ذلک.

فايقاف الحافلة هنا أمر ضرورى جداً، مؤثر ومفيد للوصول بسرعة إلى نهاية الرحلة، بل له أهمية بالغـة فـى تسـهيل الرحلة، وفعل سائق الحافلة هذا قابل للاعتذار.

طبعا كلما كان زمن الوصول الى الهدف أقصر، وكان هذا الوصول أكثر أهمية، فان الإكثـار مـن إيقـاف الحافلـة فـى الطريق أمر مذموم، بل مثير للاشمئزاز والضجر لدى الركاب.

طريقة الكشف عن الإجابة

نحن نعتقد بأن البحث التجريبى مهما كان متطوّرا ومتكاملا، إلا أنه أسلوب غير مطمـئن، ولايمكـن الاعتمـاد عليـه للإجابة عن هذه التساؤلات، فالتعقيد الذى انطوى عليه وجود الإنسان هو أقوى من قدرة تجاربه بكثير.

لقد عرّف علماء النفس الإنسان: بأنه «كائن معقد ومجهول»، واعترفوا بهذه التعابير: بعجزهم، وبقيت كثير من الظواهر البشرية والإنسانية فى كتب «أوسع من العلم» مجهولة يصعب حلّها، ومضمرة دون تفسير[1].

ويرتبط الكمال البشرى بمعرفة هذا الكائن المعقد جداًّ والموجود العجيب المسمّى بـ«الإنسـان». فقـد عجـز مـدعوا معرفة الإنسان عن تفسير أبعاد كبيرة فى وجوده، وما فسّروه تحت عنوان «الإنسان» إنما هى نسبة مئوية ضئيلة من وجود الإنسان لا مجموعه، وبقى قسماً كبيراً من هويته الكاملة مجهولاً لم يكشف عنه بعد.

ومن البديهى فى مثل هذه الظروف: أن كل ما يصدر من أحكام فيما يتعلق بــ«الإنسـان» ومعرفـة هويتـه الكاملـة، لايتناسب مع مجموع شخصيته، بل يساعد على تحسين أجزاء من وجوده، وتضميد جراحه.

---

[1]. راجع: كتاب «عجيب .زدراودا كنارفل ،ةيسرافلا ةغللا ىلا مجرتم »ملع زا رت

وهذه الأحكام المذكورة هى فى الحقيقة أحكام لكائن آخر، يمتلك أجزاء من حقيقة الإنسان. فمن لايعلم أن تكامل جزء من المجموعة، لايعنى تكامل المجموعة كلها دائماً ؛ لأن تشعب أغصان الأشجار، ليس من الإلزام أن يستتبعه كمال الأشجار ونضجها.

لقد أجريت دراسات وبحوث تجريبية فى الآونة الأخيرة حول تكامل الحيوانات الأهلية وهذه الأبحاث مستمرة، وماضية فى طريقها الشاقّ والطويل لكشف كثير من الحقائق والأسرار المجهولة والغامضة فى هذا المجال.

ان التجارب العلمية المعاصرة بالاستعانة ببرامج الغذاء الحيوانى المختلفة وتوفير الأجواء والظروف البيئية المناسبة، وإصلاح الفصيلة والمكونات الجينية، توجد أحيانا صنفاً جديداً من الحيوان هو أكمل وأرقى من العيّنات والنماذج السابقة التى قورنت بها من قبل!.

فهل يحسن الاعتماد على هذا العلم الذى عجز عن معرفة كمال الحيوان! وتوقف فى منتصف الطريق، هل يمكن التعويل عليه فى وصف كمال الإنسان! ومعرفة هويته؟!.

وهل نأمل فى أن تكون هذه الإجابات لتلك التساؤلات الناتجة فى أبحاث ودراسات العلوم التجريبية، كونها توقعات تتناسب مع مستوى قدرة الإنسان وتفكيره؟!.

فالعلوم العقلية وعلى رغم كل النجاحات التى حقّقها الإنسان فى الكشف عن أسرار الخلقة وحقائق الكون، إلا أنه بقى مكتوف الأيدى وعاجزاً تماماً عن تحقيق رغباته وأمانيه.

قال الشهيد مرتضى المطهرى حول هذا الموضوع:

«اعتقد بعض الفلاسفة باستيفاء كافة الأبحاث والدراسات فى خصوص معرفة الإنسان، مدعين أننا اكتشفنا طريق السعادة والشقاء، وسنجعل أنفسنا سعداء باعتمادنا على العقل والإرادة. الا أننا نعلم من جهة أخرى أن لا وجود لفيلسوفين فى العالم! يتفقان معا فى الرؤية للعثورعلى طريق السعادة. فالسعادة التى تعدّ بنفسها غاية أصلية وأخيرة، وتبدو على أنها مفهوم واضح وبديهى، هى من أكثر المفاهيم غموضاً، فلم يكشف بعد عن كثير من المفاهيم والمعادلات التى هى إجابات عن هذه التساؤلات، مثل:

ماهى السعادة؟ وكيف تتحقق؟

وما هو الشقاء؟ وما هى عوامل الشقاء؟

وبقيت هذه المصطلحات مجهولة وغامضة، لم يكشف عن تفسيرها بعد، وهى غير معروفة إلى وقتنا الراهن. لماذا؟

لأن «الإنسان» كما هو عليه الحال، بقى مجهولا، لم يكشف عن قابلياته واستعداده، ومعرفة توجهاته، وما يكمن فى أعماقه من قوى وإمكانات ضخمة وجبّارة!.

فهل يمكن أن يبقى الإنسان مجهولا إلى الأبد؟!.

وهل يمكن تعريف السعادة؟! وكيف يمكن تحقيقها؟!.

وأكثر من ذلک، هو: أن الإنسان مدنی بالطبع وکائن اجتماعی، یواجه یومیا آلاف القضایا المزمنة والمشاکل الحادة والصعبة التی یعسر علیه حلّها!.

لکن علیه أن یحلّها لیعلم ما هو مکلّف به؟

وما هی وظائفه ومسئولیاته تجاهها؟

وبما أنه مدنی واجتماعی بالطبع، فإن سعادته، وقیمه، ومبادئه، وملاکات الخیر والشر الکامنة فی وجوده، وطریقه، وأسالیبه، واختیاره الوسائل المتاحة والممکنة... هی کلّها ممتزجة ومرتبطة بسعادة الآخرین. فلایمکنه أن یشقّ طرقه لوحده، بعیداً ومستقلاً عن الآخرین!، بل علیه أن یبحث عن السعادة فی الطریق الرئیسی المؤدی إلی سعادة المجتمع وکماله.

فلو أخذنا بنظر الاعتبار فکرة الحیاة الأبدیة، وخلود الروح، وفقدان تجربة العقل بالنسبة للنشأة التی تلی النشأة الدنیویة، فتکون مسألة بالغة التعقید، وصعبة للغایة، بل غامضة ومجهولة، فان هنا تستمدّ الحاجة الماسّة والشدیدة بل الضروریة إلی المذهب والایدیولوجیة»[1].

ثم إن تحصیل مقدمات العلوم العقلیة هو أمر صعب وبطیء الإیجاد للغایة، وهو منحصر فی مستویات محددة لا عامة المجتمع، فلیس الجمیع قادر علی فهم لغة العلوم العقلیة واستیعابها. ولهذا السبب، لن نعرض هذه التساؤلات علی علماء العلوم العقلیة لیجیبوا عنها. ولیس السبب فی ذلک أننا لانثمّن جهود العلماء، أو لانحترم آراءهم!، بل لأننا لانفهم لغة الحوار والتخاطب معهم فی هذا المجال، ولسنا قادرین علی هضم مقالهم، واستیعاب کلامهم تماماً[2]!.

فماذا علینا أن نفعل فی هذه الحالة؟

ولیتنا کنا قادرین علی أن نسأل من الرب الرحیم مباشرة، لنعلم الإجابة منه عن هذه التساؤلات!.

فکم هو جمیل بأن نرتبط مباشرة بعالم السرّ وأخفی؟! وخالق الکون، وعالم الحقائق، وملهم العلوم والمعارف، لنکشف عن تلک الأسرار!، ونحلّ رموز المجاهیل والألغاز!!.

لقد خلقنا الله بهذا النحو، وهو یعلم سرّنا ونجوانا، وکافة خصائصنا. ولیس هناک فی عالم الوجود من هو أفضل منه سبحانه، لیحلّ مشاکلنا وهمومنا ومعاناتنا قطعاً.

ولیتنا کنا قادرین علی محاورة سفراء الوحی وأنبیاء الله وجها لوجه، ونطلب منهم أن یجیبوا علی أسئلتنا الصعبة والمعقدة. فالأنبیاء وإن کانوا غیر قادرین أن یجیبوا بأنفسهم عن کثیر من هذه الأسئلة!. ولکن من خلال ارتباطهم بالعالم

---

[1]. مجموعة الآثار، ج ۲، ص۵۴.

[2]. راجع تفاصیل هذه الدراسات والبحوث العقلیة فی کتاب «خودشناسی برای خودسازی» للأستاذ مصباح الیزدی.

العلوى المطلق، يمكنهم أن يجيبوا عن كل سؤال يعرض عليهم، ثم نقله إلينا. فهم لايجرى على ألسنتهم إلا الصدق، ونحن نثق بهم، ونطمئن لكلامهم أكثر من غيرهم.

أما خاتم الأنبياء محمد المصطفى(ص)، فقد ودّع الدنيا وارتحل إلى جوار ربّه راضياً مرضيّاً قبل أربعة عشر قرنا، ثم انقطع الاتصال المباشر بالطريق الاعتيادى معه(ص).

ورحل أوصياؤه عليهم السلام واحداً تلو الآخر بعده، وافتقدتهم البشرية جمعاء.

وبقى خاتم الأوصياء والأئمة، بقية الله فى الأرضين، صاحب العصر والزمان الإمام المهدى(ع) حيّا من بينهم عليهم السلام، وهو يعيش بيننا، يعرف الناس ولايعرفوه إلا القليل منهم، ولايمكن الوصول اليه، وقد أخفى عن أنظار الناس بحكمة إلهية.

ومن هذا المنطلق، فلم يبق أمامنا لحل مشاكلنا إلا أناس هم غير معصومين، وهم مثلنا، يجوز عليهم الخطأ والسهو والنسيان، وهم لايمتلكون الاستعداد واللياقة الكاملة للإجابة عن أهم أسئلتنا هذه.

فعلى من نعتمد إذن؟ ممن له معرفة كاملة وواعية بالأبعاد المختلفة فى وجود الإنسان؟

ولمن نرجع؟ ممن لانحتمل فيه الخطأ والنسيان؟

وماذا علينا أن نفعل؟

وأين نذهب إذن؟

فلانحن قادرون على الإجابة! ولانعرف شخصاً آخر قادر على ذلک!.

فهل هناک طريق متبقى لاستخراج هذه الحقائق؟

ولحسن الحظّ، فقد خلّف لنا النبى(ص) وعترته الطاهرة، وأوصيائه المعصومين(ع) تراثاً خالداً من النصوص والأحاديث، لا نشک أبداً فى صدقها وصدورها من مصادرها الحقيقية، وهى نصوص وأخبار فى متناول أيدينا، فإننا وإن كنا لانمتلک فهماً عالياً لها، واختصاصاً فى معرفة كلامهم وتفسيره وتحليله تحليلا علمياً وموضوعياً دقيقاً، إلا أننا نمتلک علماء أمناء وأكفاء ومختصون، بذلوا جهوداً مضنية ومساعى حثيثة لسنوات طويلة لمعرفة وفهم الآثار والنصوص المروية عن النبى(ص) والأئمة الأطهار(ع). ولهؤلاء خبرة واختصاص عال، لاينازعهم فى ذلک منازع، ولايختلف معهم اثنان، وهم يعيشون فى أوساطنا وبين ظهرانينا. وهذه الشريحة الواعية والمثقفة من العلماء، هم حفظة تراث النبى(ص) والأئمة المعصومين«ع» وهم أفضل المفسّرين، وذوى خبرة وكفاءة، شأنهم كشأن علماء الآثار فى البحث والتنقيب، ولهم باع طويل وخبرة عالية فى تحليل ودراسة النصوص والآثار التى ناهز عمرها «١۴٠٠» عاماً. وهم يبذلون قصارى جهدهم فى استخلاص أحكامها، ومعرفة معانيها ومضامينها العالية والنقية المستقاة من الوحى ومدرسة أهل البيت(ع)، وبيان الآيات والروايات.

فمراجعة مثل هؤلاء، الذين يعدّون من أبرز المراجع وأشهرها فى توضيح الأحكام، وتفسير الآيات، وبيان الروايات، وقد صرّح النبى(ص) بأنهم كأنبياء بنى إسرائيل[1]، والطلب منهم للإجابة عن تساؤلات الانسان واستفساراته، يفتح أمامنا آفاقا ومنافذ من الأمل.

ويستعين هذا البحث بالنصوص والأخبار التى فى متناولنا أيدينا، لحلّ عقد هذه التساؤلات، ويستمد فى فهم كلا المصدرين (أى الكتاب والسنة النبوية الشريفة) بكبار العلماء، وأجلاّء الشخصيات من الطراز الأول، ونخبهم، وذوى الاختصاص منهم.

ونحن على يقين من أن القرآن والسنّة إن لم يكونا هما الطريق والأسلوب الأوحد اللذان تنحصر فيهما الإجابة على هذه التساؤلات، فهما على الأقل، المصدران الأكثر ثقة واطمئناناً، والأخصر طريقاً، اللذان سيكونان أمامنا فى الإجابة عن التساؤلات.

الإجابة الأولى: التوحيد والعبودية لله

إن أول خطاب صدر على لسان النبى(ص) بعد اصطفائه للنبوة، واختياره للرسالة، وبعثه إلى الشعوب والأمم فى العالم، مخاطباً لهم – و قد دوّن ذلک لحسن الحظّ فى تاريخنا الإسلامى– وكان إجابة واضحة وتفسيراً لكثير من الغموض والإبهام – هو قوله(ص): «قولوا لا إله الا الله تفلحوا»[2].

فإن سرّ السعادة والكمال، ومغزى التوفيق والنجاح، يكمن فى هذه الكلمات الموجزة والقصيرة[3].

ومن الواضح هنا: أن النطق بهذه الكلمات لايكفى فى إسعاد الإنسان وفلاحه!. فإنه(ص) لم يعن أبداً بقوله: «قولوا» الواردة فى هذا الحديث: هو لقلقة اللسان وتحريكه لإخراج صوت معيّن من داخل الحنجرة مثلاً. فهناک الكثير ممن نطقوا بهذه الكلمات وكرّروها على ألسنتهم دائماً، لكنهم كانوا أشرّ الخلائق وأقبح البشر فى التاريخ – كالشمر ومعاوية وصدام – وهم بعيدون كل البعد عن الإنسانية، وهم وصمة عار فى جبين التاريخ والبشرية، التى تشعربالعار والخجل بتسميتهم بـ«الإنسان» ؛ لأنهم لايستحقون ذلک، فهؤلاء كانوا قد تلفّظوا بتلک الكلمات مراراً، ولم يفلحوا كما قال النبى (ص).

بل لابد من الوقوف على مدلول الحديث النبوى الشريف، فإن النبى (ص) كان يعنى به:

---

[1]. قال رسول الله(ص): علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل. انظر عوالى اللئالى، ج ۴، ص۷۷.

[2]. المناقب ج۱، ص۵۶.

[3]. هذا هو شعار التوحيد الذى يشاهد فى رسالات كثير من الأنبياء والرسل، وقد صرّح به فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» (الأعراف:۶۵). وقد نطق به كبارالأنبياء كنوح، وهود، وصالح، وشعيب، وغيرهم. وقد تصدّر«شعار التوحيد» قائمة دعوة هؤلاء الأنبياء(ع).

أن من قال «لا إله إلا الله» بكامل وجوده وكيانه، وخرج عن براثن طاعة وعبودية غير الله نهائياً، فسيصل إلى السعادة والنجاح والفلاح.

وكلما ارتقى سلالم العبودية إلى الأعلى، فقد اقترب أكثر من قمة الإنسانية. وحينئذ يضمن رسول الله(ص) فلاحنا ونجاحنا، وعداً منه غير مكذوب، وذلك فيما إذا ملأت كلمات «لا إله إلا الله» حياتنا ووجودنا، وجرت على ألسنتنا منذ البداية وحتى الممات، ولم يشاهد فى سلوكنا وتعاملنا، قولنا وفعلنا، سوى العبودية والطاعة لله.

فلو قلتم: «إننا على هذا النحو، فلم نكن قد سجدنا لأحد إلا لربّ العالمين، ولن نرتض عبودية أحد غيرالله.

ونحن قلنا دوماً: «لا إله إلا الله»، فى كل حال، ونعتقد بها فى أنفسنا وأعماق وجداننا، فهناك القليل ممن لايعتقد بقلبه ووجدانه بـ«لا إله إلا الله»»!.

لكن من المستحسن هنا قبل عرض أىّ توضيح مسبق، أن نشير إلى مفهوم لفظة «إله» الواردة فى الحديث النبوى الشريف، لأهميته هنا، وليتضح المعنى جيداً.

«إله» كلّ شخص: هو من يعبده ويخضع له، ويتوسل إليه. و«الإله»: كل كائن يُعبد ويطاع دون أىّ اعتراض أو نقاش. ويأمر وينهى ويُكلّف، ويطاع، ويهمنا تحصيل رضاه.

فإننا وإن يمّمنا شطرنا إلى الواحد الأحد فى الصلاة، طاعة لأمره وطلبا لرضاه، فنشتغل بالقيام والركوع والسجود، ولكنّنا صادقين فى دعوى العبودية بتمامها، إذا أخرجنا أنفسنا عن طاعة غير الله تماماً، ولم نتحرك إلا لطلب رضاه – فى الصلاة وغيرها–، وقلنا «لا إله» لكافة مدعى الألوهية، ولم نخضع لأمر أحد سواه، وحينئذ سنخرج عن رق عبودية وعبادة الهوى، وأسر الشهوات، والتقاليد والأعراف الاجتماعية والعادات، وعن حالات الضعف والوهن والانفعالات، وتبعات القيود والأغلال، وكل تسلّط ونفوذ للذات، ونكون عبيداً للإله الحق وحده.

وعلى ضوء هذا، فكلّ عمل نقصد به طاعة الله سبحانه ورضوانه عن إخلاص وصدق نية، فهو عبودية له ويقول بلسان الحال: «لا إله إلا الله».

وإن كان بقصد آخر، فهو طاعة لغير الله، وقد روجنا فى أنفسنا إلوهية معبود آخر سواه.

آلهة أخرى

١- الأهواء والرغبات

إن الأفعال التى تصدر من الإنسان بدافع إشباع وإرضاء رغبات النفس، هى ليس فيها عبودية لله، بل هى فى الحقيقة عبودية للهوى.

قال تعالى: «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ»[1].

وهنا فلنتأمل مغزى وفحوى هذه العبارات:

«لم أستطع السيطرة على نفسى، فقد كان جذّاباً وممتعاً جداً»، «اندفعت نحوه بشدة دون إرادة منّى أو وعى»، «هذا الكتاب ممتع، وفيه عذوبة، ونكهة خاصة»، «لو قرأت أول صفحة من الكتاب، فسوف لن تتركه إلى آخره»، «كم فرحت والتذذت»، «لم يكن هذا بإرادتى واختيارى»، «استزدت من أكله ؛ لأنه لذيذ جدّا»... فلو دققت جيداً فى مثل هذه الجمل والكلمات، لوجدتها كلّها تشترك فى شيء واحد هو: تأمين لذائذ القلب وهوى النفس.

إن من يعجز عن السيطرة والتحكم بلذائذ القلب وهوى النفس ورغباتها، فإنه يقول بلسان الحال: «اننى عبد لهوى نفسى، ذليل لأوامر قلبى، ألبّى كلّ ما يأمرنى به هواى ورغباتى فوراً، ولاأعصى له أمراً طرفة عين أبداً، خاضع لأوامر نفسى ونهيها!!.

إن من كان كذلک، أى ممتثلاً لإرادة وأوامر نفسه، فهو عبد لهواها ورغباتها! ولم يعد بعد عبداً لله، فهو وإن أجرى على لسانه قول: «لا إله إلا الله»، لكنه فى مقام العمل والتطبيق لايعمل بأمر الله، ولم يتجل قول «لا إله إلا الله»فى كافة أدوار حياته!.

٢- الآداب والرسوم

تطغى الآداب والرسوم الاجتماعية أحياناً على وجدان الإنسان وضميره، فتقيّد عقله وروحه، وتجعل مخالفتها أمرا شبيهاً بـ«المستحيل».

وقد شاهدنا فى حياتنا أن التقيّد والالتزام بهذه العادات والتقاليد والآداب والرسوم الاجتماعية كم أوقعت الانسان فى متاهات كثيرة، وأوجدت له مشاكل عديدة فى الحياة.

وسمعنا أحيانا أن كثيراً من الناس ممن وقفوا بدقة على أضرار ومشاكل عمل ما، إنما التزموا وقيّدوا أنفسهم به بذريعة أنه أصبح من الآداب والرسوم.

إن الطاعة العمياء والخضوع المطلق لتلک العادات والتقاليد، هو نوع آخر من مصاديق العبودية لغير الله.

فمن عجز عن مخالفة القيم والعادات الاجتماعية التى لاتستند على أسس وجذور منطقية وعقلانية واضحة، فهو عبد قن لها، يسمع ويطيع.

ومن يطع الله تبعاً للأعراف والتقاليد المرسومة، وحفاظاً لماء وجهه، وصيانة لكرامته الاجتماعية وموقعه الاجتماعى، وتنزيهاً لها، فكيف يكون هنا عبدا لله؟ وهو بفعله هذا، قد لفّ حبل عبودية هوى نفسه حول رقبته، وصار عبداً مطيعاً لأوامرها، وخضع للعادات والتقاليد الاجتماعية، أى لعبودية غير الله.

---

[1]. الجاثية: ٢٣.

٣- العادات والتقاليد

إن العادات والتقاليد تفرض دائماً ضغوطا وإحراجات واسعة على إرادة الإنسان، وتلجئه إلى الخضوع والتسليم لها دون أىّ اعتراض منه أو نقاش أو شروط مسبقة.

فكثير من تعاملنا وأفعالنا التى تصدر منّا كالعادات والتقاليد، إنما هى ناتجة عن عدم الوعى والغفلة، ويعدّ مخالفتها أمراً صعباً وعسيراً للغاية، بل مستحيلاً أحياناً، وقد قيل فى المثل: «أن ترك العادة يوجب المرض». وكأن قوله: «اعتدت على ذلک» هو إجابة منطقية ومقبولة لدى الآخرين، عن سؤالنا مثلاً: «لم فعلت ذلک؟».

لكن علينا أن نعلم أن متابعة العادة والتقاليد هو فى حدّ ذاته نوع من الطاعة لغير الله.

فقولى: «اعتدت على ذلک» هو بمعنى أننى أرفض طاعة الله، ولاأكون تحت إرادته. فأنا أسير لعاداتى وطباعى، ولن أتراجع عن طاعتها واتباع أمرها لحظة واحدة!، وأنا منكّس رأسى لها! إلى درجة أننى أتصوّر أن مخالفتها أمر صعب، بل مستحيل ؛ لأنه سيسبب لى كثيرا من الإزعاجات والمضايقات فى حياتى.

أما إذا شملت كلمة «لا إله إلا الله» كل زوايا وجودنا، وعمق أرواحنا، فستكون«قيادة الله وتسييره لنا» أمراً طبيعياً!، فلاتكون مخالفة العادات والتقاليد حينئذ أمراً صعبا وعسيراً.

٤- حالات الضعف والانفعالات النفسية

ثمة كلمات قد نرددها ونسمعها من آخرين، كلّما واجهنا فى حياتنا هذه المواقف، نردّد هذه الكلمات:

«أستحييت فلم أقل شيئا»، «غضبت ففقدت السيطرة على نفسى»، «استبد بى حب الاستطلاع، فأخذت أنظر شزراً وغضباً بلا اختيار منى»، «فقدت القدرة والتحمل ولم أكن أتحمل»، «كان صعباً وعسيراً على للغاية، فتركته»، «خفت منه فتراجعت»، «أكرهه بشدة، فلم أقترب منه»، «تألمت عليه كثيراً، فاضطررت لمساعدته»، «كان أخى، فكيف لاأحامى عنه»، «لو كنت قد تعاملت معه بهذه الطريقة لحرمونى بعض حقوقى ومزايای، فاخترت السكوت»، «هم كلهم هكذا، فصرت مثلهم»....

فكثير من تصرفاتنا وأفعالنا تصدر بدوافع ومنطلقات من هذا القبيل، وبالتالى فهى صادرة:إما عن ضعف، أو فشل وهزيمة، أو انفعال، أو عن غضب وسخط، أو استحياء، أو حب استطلاع، أو توتّر وقلق، أو خوف وضعف، أو عداء وكراهية، أو استرحام وتألم روحى، أو تعصب، أو طمع، أو رغبة وعلاقة شديدة ومفرطة، أو تقليد، أو غير ذلک.....

هذه الدواعى والبواعث المحركة تنشط دوماً فى وجودنا، وتسوقنا إلى كل اتجاه وصوب، فمرة نقوم بعمل ما طاعة لأمرها، وأخرى نترک عملاً تحت قيمومتها، فهؤلاء هم قادتنا، وأمراء وجودنا!، ونحن عاجزون عن مخالفة أوامرها، ولاطاقة لنا برفعها وإزالتها عنّا أو تغييرها، فالتبعية لها واجب، ومخالفتها حرام!، أمرها مطاع، وتكليفها لازم وفرض، وكل منها تدعونا إلى الانحطاط والذلّ، المسكنة والاستهانة، الرقّ والعبودية والاستسلام.

أ ليست هذه هى العبودية بعينها؟!

٥- الآخرون

الطاعة والتبعية المطلقة للآخرين هى مظهر من مظاهر العبودية لغير الله أيضاً.

فكلما قدّمنا أمر غيرنا على أمر الله، فقد ارتكبنا نوعاً من الشرك، وابتعدنا مسافات بعيدة وشاسعة عن القيم والمبادئ الإنسانية الراقية.

ومن الواضح هنا: أن جذور التبعية للغير تنشأ غالباً من المخاوف والتوتّر النفسى والقلق، والطمع، والحياء والاستحياء....

لذا، ينبغى علينا فى إصلاح هذه الأمور العودة لأنفسنا.

وقبل أن تكون هذه الظاهرة هى «عبودية للغير» فهى فى الحقيقة «عبودية للنفس والهوى».

وعلى ضوء هذا، فان التحرّر والخلاص من عبودية النفس وذلّها – وهى العدو اللّدود، وأعدى أعداء الإنسان[١] – مقدّم على التحرّر والتخلّص من مخاطر الآخرين والوقوع فى فخاخهم.

بعث الشهيد البطل والمجاهد الأسوة فى ميادين الجهاد والعبودية لله، آية الله المدرّس برقية بخط يده إلى شاه إيران بعيداً عن عبارات المدح والثناء والتملق الرائجة للملوك ورؤساء الدول الإسلامية والعالمية، وما هو متعارف ومرسوم فى الأوساط الحكومية، فقال:

«أيها الملك! لم يمنحنى الرب أمرين:

أحدهما: الخوف.

وثانيهما: الطمع.

فكلّ من يتماشى مع مصالح الأمة والوطن، وأمور الدين والمذهب، فأنا معه، وإلا فلا»[٢].

ولا شک فى أن مثل هذا الموقف للشهيد «المدرّس» الذى ملؤه البطولة والشهامة والصمود، وصلابة الموقف التحرّرى فى مواجهة طاغوت العصر وغطرسته، إنما هو ناتج عن تحرره من أسر الخوف والطمع والهوى والشهوات.

ومن المناسب هنا أن نترک توضيح هذا المعنى إلى قلم قائد الثورة الإسلامية الإيرانية، وأسلوبه الرائع، وبيانه الجزل، آية الله العظمى الإمام الخامنئى (دام ظلّه) ليقول كلمته الفصل فى تفسير هذا الموضوع:

استعمال مادة «العبادة» فى القرآن الكريم يفيد أن العبادة تعنى التسليم والطاعة المطلقة تجاه إنسان أو أى موجود آخر.

---

١. قال(ع): «أعدى عدوّک، نفسک التى بين جنبيک»، تنبيه الخواطر، ج ١،ص٥٩١.

٢. داستان.١٨٢ص ،سرّدم ىاه

فحين نستسلم استسلاما أعمى لشخص، ونتحرک وفقا لرغباته وأهوائه وأوامره فقد عبدناه.

وكلّ قوة تستطيع أن تخضعنا لها، وتسيطر على أجسامنا ونفوسنا، وتسخّر طاقاتنا وفقا لرغباتها، فإنها تصيّرنا عبيدا لها، سواء كانت هذه القوة داخل أنفسنا، أم فى محيطنا الخارجى.

ومن أمثلة هذه الاستعمالات القرآنية:

موسى (ع) يخاطب فرعون فى بداية دعوته معاتبا فيقول:

«وَتِلْکَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَیَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِی إِسْرَائِیلَ».[1]

فرعون وبطانته يخاطب بعضهم بعضا فيقولون:

«أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَیْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ».[2]

إبراهيم (ع) يخاطب أباه قائلاً:

«يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا».[3]

رب العالمين يخاطب البشرية:

«أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِی آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»[4]

الله تعالى يعد عباده الصالحين بقوله:

«وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى»[5]

وحول أولئک الذين يعيبون على المؤمنين إيمانهم يقول تعالى:

«مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِکَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ»[6]

هذه الآيات عبّرت عن الطاعة لفرعون وبطانته، وللطاغوت وللشيطان بكلمة «عبادة».

ومن خلال دراسة جميع آيات القرآن فى هذا المجال نخلص إلى أن العبادة فى المفهوم القرآنى: هى الاتباع والتسليم والطاعة المطلقة أمام قدرة واقعية أو وهمية، طوعاً ورغبة، أو كرها وإلزاما، مع الشعور بالتقديس والثناء المعنوى أو بدونه.

هذه القدرة هى «المعبود» وهذا المطيع هو «العبد» و«العابد».

---

[1]. الشعراء: ٢٢.

[2]. المؤمنون: ٤٧.

[3]. مريم: ٤٤.

[4]. يس: ٦٠.

[5]. الزمر: ١٧

[6]. المائدة: ٦٠

ويتضح من خلال الإطار العام للمفاهيم، معنى لفظة «الألوهية» ولفظة «الله» باعتبارهما تعبيراً آخر عن كلمة «المعبود».

ففى النظام الجاهلى، انقسم الناس إلى طبقتين: مستكبرة ومستضعفة، أى إلى طبقة مسيطرة ماسكة بزمام جميع الأمور ومترفة طبعاً، وطبقة مهملة مسخّرة ومحرومة، فإن من أبرز مظاهر الألوهية والعبودية هى هذه العلاقة غير المتعادلة بين الطبقتين.

ومن العبث أن نبحث وراء كائن مقدّس بشرىّ أو حيوانىّ أو جامد، فى دراسة آلهة المجتمعات الجاهلية على مرّ التاريخ، فأبرز مظهر للمعبود والإله فى هذه المجتمعات، هو تلك الفئة التى تمارس- انطلاقاً من ارتباطها بالطبقة المستكبرة- عملية إخضاع وإرضاخ الجماهير المستضعفة، ودفعها على طريق إشباع نهمها وجشعها.

الدين الواقعى فى هذه المجتمعات، هو «الشرک». لأن الآلهة فيها متعددة بتعدد مراكز القوة المسيطرة التى تستثمر وتتلاعب بمقدرات الناس حسب أهوائها ومشتهياتها.

الشرک هو أن نتخذ أناساً نجعلهم آلهة دون الله تعالى، أو مع الله، فنلتزم بطاعتهم، ونقر لهم بالعبودية.

وبتعبير آخر هو: إيكال أمور الحياة إلى غير الله والاستسلام أمام كلّ قدرة غير الله، والركون اليها، والاتجاه نحو هذه القدرة لدى الحاجة، والسير على طريقها.

وأما التوحيد: فيقع فى النقطة المقابلة للشرک تماماً.

فهو يعنى رفض كل هذه الألوهيّة، وعدم التسليم لها، ومقاومتها والانقطاع عنها، وبالتالى التوحيد: يعنى محاربة كلّ القوى التى لاتمت بصلة الى الله، والتسليم المطلق اليه، فيشدّ الكائن الإنسانى بكل وجوده إلى الله، والشعار الأول لجميع الرسل والأنبياء، يتألف من ذلک الرفض وهذا التسليم.

وأول شعار رفعه رسول الله (ص)فى دعوته ور سالته، هو قوله سبحانه:

«وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ».[1]

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِکَ مِن رَّسُولٍ الا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ الا أَنَا فَاعْبُدُونِ»[2]

الانبياء إذن أعلنوا ثورتهم ضد الظلم، وزوال الأنظمة الجاهلية الفاسدة والمنحطّة بهذا الشعار.

وبهذا الشعار أيضا دعوا إلى كفاح مرير ضد الطواغيت. أى: ضد حماة هذا النظام، والمستهينين بالقيم الإنسانية الأصيلة،والداعين الى تلک القيم التافهة المساندة للظلم والظالمين.

---

[1]. النحل: ٣۶

[2]. الانبياء: ٢۵.

أما رفض الشرک: فهو فی الواقع رفض لکل الکیانات الاجتماعیة والسیاسیة والاقتصادیة المقومة للمجتمع الجاهلی، والمتخذة من مذهب الشرک غطاء وتبریراً لوضع المجتمع المهزوز.

ورفض الآلهة المزیفة: یعنی طرد کل الذین دأبوا علی استضعاف الجماهیر، واستغلالها عن طریق البطش والقوة والتزویر، من أجل إشباع غرائزهم وأهوائهم الجامحة.

فقد اتجه موسی (ع)إلی حرب فرعون بهذا الشعار.

نعم، لقد تردّد علی لسان البعض من بطانة فرعون مسألة رفض موسی (ع) لآلهتهم التقلیدیة.

قال تعالی:

«وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَی وَقَوْمَهُ لِیُفْسِدُواْ فِی الارْضِ وَیَذَرَکَ وَآلِهَتَکَ»[1]

وقال الإمام الخامنئی (دام ظله) فی موضع آخر أیضاً:

إن التوحید لیس بالنظریة الفلسفیة الذهنیة غیر العلمیة المعزولة عن الحیاة وعما یرتبط بحرکة المجموعات البشریة وبحرکة الفرد ونشاطه،کما لایکتفی باستبدال معتقد بمعتقد آخر.

بل إنه من جهة، رؤیة کونیة عامة للکون والحیاة، تشتمل علی فهم خاص للعالم، وللإنسان ولمکانته ودوره بین ظواهر العالم فی التاریخ، وما هی إمکاناته واحتیاجاته ومتطلباته الذاتیة، ولاتجاهه ومراحل سموّه وکماله، وبالتالی ما هی غایة الکمال فی شخصیته.

ومن جهة أخری، فإن التوحید منهج اجتماعی شامل متناسب مع طبیعة الإنسان، یحدد له البیئة والأجواء التی توفر له إمکانیات التکامل والرقی لیصل الی موقعه اللائق به.

ویستطیع الکائن البشری فی إطاره أن یسمو الی مدارج کماله بسرعة وسهولة.

إنه أطروحة خاصة للمجتمع تتضح فیها الخطوط العامة والأساسیة للکیان الاجتماعی.

ومن هنا: حین یرتفع نداء التوحید فی المجتمعات الجاهلیة (القائمة علی أساس الجهل بحقیقة الإنسان) والمجتمعات الطاغوتیة (القائمة علی أساس التعدی علی قیم الإنسانیة الحقّة والأصیلة) فإنه یحدث تغییراً شاملاً، ینیر القلوب المظلمة، ویحیی النفوس الهامدة، ویبعث علی الحراک فی جسد المجتمع الراکد، وینظّم الشؤون المبعثرة المتناقضة لذلک المجتمع.

ویحدث التوحید تغییراً فی المحتوی النفسی، والمؤسسات الاقتصادیة والاجتماعیة، وفی القیم الأخلاقیة والإنسانیة.

وباختصار:

یهاجم التوحید الوضع الجاهلی القائم، والسلطة التی تحمی هذا الوضع، والجوّ الذی یغذّی هذا الوضع، ویمدّه بالحیاة.

---

[1]. الأعراف: ۱۲۷.

راجع: روح توحید، نفی عبودیت غیرخدا، آیة الله العظمی السید علی الخامنئی(دام ظله)، ص ۲۷- ۳۱.

التوحيد – إذن – ليس فقط أطروحة ترتبط بمسألة نظرية محضة، أو مسألة ذات إطار عملى محدود.

بل إنه أيضاً طريق جديد أمام الإنسان، يستهدف تقديم نموذج وأسلوب آخر للعمل والحياة، وإن استند إلى تحليل ذهنى ونظرى.

وانطلاقاً من هذا الفهم لمحتوى التوحيد: نعتقد أنّ هذا الأصل يشكّل حجر البناء فى صرح الدين، ومحتواه الأساسى، والقاعدة التى يقوم عليها فهم التوحيد.

النظرية التى تعبر عن ما وراء الطبيعة فقط أو تعتبر فى أحسن الأحوال أطروحة أخلاقية وعرفانية، لاتتناسب إطلاقاً مع الأيديولوجية الإسلامية الحيّة، التى تنطوى على أطروحة كاملة للحياة الاجتماعية.

وكان هناك على مرّ التاريخ طبعا أفراد، مع إيمانهم بالله وبالتوحيد، غفلوا أو تغافلوا عن هذا المحتوى الموضوعى والعملى، وخاصة الاجتماعى – لهذه العقيدة. فهؤلاء وطّنوا أنفسهم على العيش فى كل زمان، ومع كلّ الظروف، بحيث لاتكاد تميّزهم عن الكافر بالتوحيد.

أى إن هذه العقيدة لم تبعث فيهم شعور التعارض مع الوضع غير التوحيدى القائم، ولم يثقل كاهلَهم عبءُ الشرك المستفحل فى مجتمعهم.

فى مطلع الإسلام، كان هناك مجموعة من الحنفاء يعيشون فى مكة مركز الوثنية وعاصمة أصنام العرب الكبرى، لكن وجودهم لم يكن له أدنى تأثير على الجوّ الفكرى والاجتماعى، لأن فهم هؤلاء الحنفاء عن التوحيد لم يتعدّ أذهانهم وقلوبهم وإطار حياتهم الخاصّة. ولم يكن له أدنى تواجد فى تلك المتاهات الجاهلية، ولاأقلّ تأثير على الحياة المؤسفة القائمة هناك.

وهؤلاء الذين يسمّون بالموحّدين، كانوا يعيشون مع غيرهم على ساحة واحدة، ويطوون مسيرة تلك الحياة بنفس الطريقة المتبعة لدى غيرهم، دون أن يزعجهم شىء.

إن هذا الفهم الذهنى للتوحيد يتميّز بهذه الصفة من الخمول والانعزال عن الحياة وخاصة الحياة الاجتماعية.

فى مثل هذه الأجواء: أعلن الإسلام مفهوم التوحيد باعتباره عقيدة ملتزمة بتنظيم خاص للحياة، وأطروحة جديدة للمجتمع. وبهذا الشكل أعلن عن هويته باعتباره دعوة انقلابية ورسالة ثورية لكلّ مخاطبيه– المؤمنين منهم والكافرين–. فكلّ من سمع نداء الإسلام علم أنه نظام اجتماعى واقتصادى وسياسى جديد، لايتلاءم إطلاقاً مع الأوضاع التى كانت سائدة فى العالم آنذاك. بل إنه يستهدف إزالة الوضع القائم، وإبداله بوضع آخر.

وبسبب هذه الأطروحة، اندفع المؤمنون صوب الدعوة باشتياق ولهفة وولع شديد، وأسلموا لها.

ولهذا السبب أيضا هبّ المعارضون والكافرون ليقاوموا نداء التوحيد بوحشية وضراوة، وليصعّدوا عداءهم يوما بعد آخر.

هذه الحقيقة التاريخية، بمقدورها أن تكون معياراً لتقييم صحة أو عدم صحة ادعاء التوحيد فى كل زمان ومكان. ومن الصعب أن نصدّق وجود التوحيد فى نفوس قوم يشبهون موحدى مكة قبل ظهور الإسلام.

التوحيد المهادن أى التوحيد المداهن مع كل الأنداد والآلهة المزيفة... والتوحيد الذى لايعدو أن يكون فرضية ذهنية، ليس إلا نسخة مزيفة وممسوخة لتوحيد الأنبياء.. ومن الطبيعى أن يخلو مثل هذا التوحيد من ديناميكية دعوة الأنبياء.

من خلال هذه الرؤية نستطيع أن نفهم سبب انتشار نور الإسلام وتقدمه فى العصور السالفة، وسبب تراجعه وتقهقره وضعفه فى العصور المتأخرة.

لقد كان إسلام رسول الله(ص)، يضع التوحيد أمام الناس، باعتباره طريقاً ومسلكاً.

وأما إسلام العصور التالية فقد عرض التوحيد باعتباره نظرية يدور حولها البحث والجدال فى المنتديات والمحافل.

كان البحث فى عصر النبى عن رؤية جديدة حول العالم ونظرية حديثة للحركة والنشاط فى الحياة، بينما تكون المباحث المعاصرةحول التفاصيل الكلامية التى تناسب أوقات الفراغ.

وكان التوحيد على عهد رسول الله (ص) يشكّل الهيكل العام والبنية التحتية للنظام القائم، والمحور لكل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهنا يتمثل فى لوحة فنية جميلة معلقة فى صالة، الهدف منها إكمال مظاهر الزينة فى تلك الصالة، وأىّ دور فاعل يمكن أن نتوقّعه من مثل هذه الظاهرة الكمالية؟!.

ويتضح مما تقدّم:

أنّ التوحيد من منظار عملى: هو أطروحة للمجتمع، ومنهج للحياة، وقاعدة للنظام الذى اعتبره الاسلام متناسبا مع طبيعة الإنسان ونموه وسموّه.

وهو من منظار نظرىّ: يشكّل القاعدة الفكرية الفلسفية لذلك النظام[1].

نعم، عبودية الله تعنى: الحرية والتحرر عن كافة التمنيات والشهوات، والعادات والتقاليد، وحالات الضعف والانهيار والأسر للهوى.

عبودية الله تعنى: التمرد على كافة التحريكات والدواعى التى تسوقنا الى غيره سبحانه وتعالى.

عبودية الله تعنى: التحرر من براثن عوامل النفوذ والقدرة التى تقودنا باتجاهها.

فلا يتحقق كمال الإنسان إلا فى ظلّ العبودية لله، والطاعة لأوامره كما قال النبى (ص): «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

إنّ الإنسان الكامل: هو الذى يستجيب لمحرّك واحد فقط، ويذلّ نفسه لله الواحد الأحد، ويخضع له، فيمتثل لأوامره وحده، وينزجرعن نواهيه.

---

[1]. المصدر السابق ١٧-٢١.

والإنسان الكامل هو الذى قطع علاقاته وارتباطه بغير الله، وعن أى صلة تبت الى غيره سبحانه، ومنع بقوة وصلابة عن نفسه أىّ نفوذ وتسلّط أو عامل خارجى، فهو لايخضع لأى سلطة خارجية، ولايطمع بغير الله ولايخاف أحدا إلا إياه، ولايغضب لأجل غيره، ولايأمل بعطاء من هو سواه، ولايستحيى إلا منه، ولايحب ما سواه، ولايترحم أو يعطف على غيره إلا لأجله سبحانه، ولايستفزّه أو يثيره صوت إلا صوت واحد، ولايستلم أوامره إلا من مركز واحد، وليس له إلا صبغة واحدة، وهى: «صبغة الله».

قال تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً»[1].

قال الشاعر ما معناه:

لايمكن السير باتجاهين فى آن واحد نحو المعبود.

فإما السير نحو إرضاء هوى المحبوب أو نحو إرضاء هوى النفس[2].

الإجابة الثانية: التقوى

لو راجعنا مفردات القرآن الكريم لمعرفة الملاک والمناط فى تحديد قيمة الإنسان، ومن هو الإنسان الكامل، فان سياق الآيات وخاصّة ما تم اختياره منها، فيها إشارات واضحة وإجابة عن التساؤلات التى سبق عرضها، وكيفية صياغتها.

فأولى الآيات المختارة فى الإجابة

قوله تعالى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم»[3].

وهذه الآية تحدّد أن قيمة الإنسان ودوره واعتباره الحقيقى فى المجتمع قائم على أساس «التقوى».

فكلما ازدادت حالات التقوى فى الإنسان، وارتقى هذه السلالم خطوة بخطوة الى الأعلى، وطوى مراحل ودرجات كثيرة بهذا الاتجاه، فقد حصل على قيمة واعتبار أكثر من أىّ وقت آخر.

التقوى لغة: مصدر مأخوذ من «الوقاية» والوقاية تعنى: «الحفظ والصون»[4].

وأما اصطلاحاً: فهى عبارة عن القدرة على حفظ النفس، أو السيطرة والتحكم عليها، أو الرادع النفسى، أو رعاية اعتدال النفس[1].

---

[1] البقرة: ١٣٨.

[2]. «با دو قبله در ره معبود نتوان زد قدم يا هواى دوست مى‌بايد يا هواى خويشتن».

[3]. الحجرات: ١٣.

[4]. قال الراغب الإصفهانى فى مفرداته: الوقاية: حفظ الشىء مما يؤذيه ويضرّه. والتقوى: جعل النفس فى وقاية مما نخاف، هذا تحقيقه. ثم... صار التقوى فى تعارف الشرع: حفظ النفس عمّا يؤثم، وذلک بترک المحظور، ويتم ذلک بترک بعض المباحات.

التقوى: هى قوّة مانعة ورادعة، تصرف الإنسان وتنزّهه عن القيام بأعمال سيئة وقبيحة. ويمكن نسبة هذا المفهوم إلى أدواة أنشطة النفس وأفعالها.

فتقوى العين يعنى: القدرة على حفظ العين.

وتقوى اللسان يعنى: التسلّط والسيطرة على أفعال اللسان، وصونه والمحافظة عليه.

وتقوى البطن يعنى: القدرة فى التحكم والسيطرة عليها، والحدّ من انسياقها نحو الشهوات.

وتقوى الذهن والفكر يعنى: القوة الصارفة عن الحركة غير الطبيعية فى الذهن، والقدرة فى التحكّم على الخيال.

وكذلک تقوى اليد والرجل والأذن والبدن والشعر، فمعناه: القدرة والسيطرة على اليد والرجل والأذن والبدن والشعر، وغيرها من أعضاء جسم الإنسان وجوارحه.

وقد شبّهت التقوى فى الآية الكريمة: «وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِکَ خَيْرٌ»[٢] باللباس والثوب الذى يرتديه الإنسان. فكما أن الثياب تستر ظاهر الإنسان وعورته وتزيّنها، وتقى جسمه وتحميه عن الحرّ والبرد، فالتقوى كذلک تحافظ على كرامة باطنه ونزاهة نفسه، وصيانتها وحراستها عن كلّ المؤثرات.

ونشيرهنا إلى ضرورة الفهم الكامل لسياق الآيات المذكورة، والانتباه إلى معرفة متعلق التقوى الذى ورد فى آيات أخرى من القرآن الكريم.

فلفظة «التقوى» يرافق فى كثير من الآيات القرآنية لفظ «الله»، وتعنى طلب السعى فى الحصول على «التقوى الإلهية».

ومن بين هذه الآيات قوله تعالى: «وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»[٣]، وقوله سبحانه: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ»[٤]، وقوله: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ»[٥].

توضح هذه الآيات المباركة الهدف والغاية من ضبط النفس والسيطرة عليها. فالتقوى فى الرؤية القرآنية تعنى: كبح جماح النفس والتحكم بها بدافع طاعة أوامر الله وتحصيل مرضاته، وذلک عند ما تدعو نفس الانسان الى إرضاء ميوله وشهواته، والاستسلام لرغباته الدنيئة.

---

١. اعتدال الذات أو النفس: يعنى الصبر والحلم أحياناً، وهو أخص مفهوماً من التقوى، ويستعمل فى المعنى الأعم. والمعنى الشائع من لفظة «التقوى» فى اللغة الفارسية هو: الاجتناب والكفّ والامتناع، وبما أن الوهم يتبعه نوع من الانزواء والعزلة الاجتماعية وانتساب هذا المعنى لجذور لغوية غير واضح فنترک الكلام عنه.

٢. الأعراف: ٢٦

٣. آل عمران: ٢٠٠.

٤. الشعراء: ١٠٨.

٥. العنكبوت: ١٦.

قال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى»[1].

وعلى ضوء ما تقدم، تعتمد التقوى على عنصرين هامين: أحدهما: السيطرة والقدرة فى التحكم على النفس.

وثانيهما: مشاهدة حضور الله.

فمجرد السيطرة والتحكم بالنفس وكبح جماح هواها لا قيمة له وحده، فمن يسيطر على نفسه ويمنعها عن الهوى والشهوات سيلاقى موانع أقلّ، تصدّه عن الحركة والانطلاق. ومن اختصّ بهذه الميزة، فسوف لن يختلف فى قيمته الواقعية والحقيقية عن الآخرين.

أما إذا اعتمدت حركته تلك على العنصر الآخر وهو: أن يكون الله حاضراً مراقباً لأعماله، ويكون الاتجاه نحوه سبحانه، فستكون هذه الحركة نحو الأمام أكثر سهولة وانقياداً. فكلما ازدادت قدرة الإنسان فى المحافظة على نفسه وذاته، فسيكون أقدر وأقوى على تحدّى هوى النفس ورغباتها. وسيحصل على قيمة مضاعفة وكرامة عالية، بشرط أن يكون تركه هوى النفس بهدف إطاعة الأوامر الالهية وتطبيقها.

قال تعالى: «نَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم»[2].

وقال سبحانه: «وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»[3]

فلفظة «التقوى» فى الآية الكريمة تعادل لفظة «لا إله» ولفظة «الله» أيضاً تعادل لفظة «إلا الله» فى بيان كلمة التوحيد، وقوله تعالى: «وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»[4] هو خطاب لايتضمن إلّا قوله(ص): «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[5]، وقوله سبحانه: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِکَ هُمُ الْفَائِزُونَ» [6].

وعلى ضوء هذا: فإنّ عمل المعصية مؤشر واضح على عدم حصول حالة التقوى، وهو بمعنى الانحراف والسقوط عن القيم والمبادئ الإنسانية، لأن السعادة لاتتحقق إلا فى ظل التقوى الإلهية.

إن فعل الواجب وترک الحرام هو من أهم الوظائف والمسؤليات التى كلّف الله سبحانه بها عباده، ورعاية الإنسان لها هو من أولى شروط التقوى.

فكل من لايحترم تكاليف الله ومسئولياته تجاهه، فهو لم يرتق سلّم الكمال.

---

[1] النازعات: ۴۱.

[2]. الحجرات: ۱۳.

[3]. آل عمران: ۲۰۰. وقال تعالى: «و أما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى»(النازعات: ۴۰ و۴۱).

۲. آل عمران: ۲۰۰.

۳-المناقب، ج ۱، ص ۵۶.

۴-النور: ۵۲.

ومن يجتنب عن المعاصى، ويتنازل عن هواه ورغباته تحقيقاً وطلباً لمرضاة الله ورضوانه، ويروّض نفسه ويكبح جماحها، ويسيطر عليها، ويتحكم بها، فسينال أرباحاً وفوائد كثيرة، ويرتقى سلّم المجد والكمال دوماً.

وبعد هذه المرحلة، سيتجه هذا الإنسان باتجاه العمل بالمستحبات والمكروهات، وهى أوامر ثانوية، وتأتى أهميتها بالدرجة الثانية من تكاليف الإنسان، واستزادته من الفضائل للوصول إلى الكمال.

وتعدّ كثرة الأكل، وكثرة النوم هى من جملة مصاديق عدم التقوى. فمن امتلک حالة من التقوى، يعنى القدرة والتسلّط على كبح جماح النفس والهوى واللذائذ، وصبر على عدم تناول الأطعمة الملوّنة والشهيّة، فانه لايفقد توازنه واختياره فى هذه المرحلة، ولاينطق بكلام سخيف هزيل ومنحرف عند السخط والغضب، والضعف والبطالة والوهن، والفوضى والانهيار النفسى والعصبى، والانشغال بأمور غير مفيدة كاللهو والبطر، والقيام بأعمال تأخذ وقتاً وجهداً أكبر بلا نفع أو فائدة، والتأثّر بالمشاهدات المثيرة والممتعة والجذّابة وأمور مشابهة من هذا القبيل.

فهذه هى كلّها مظاهر ومصاديق لعدم التقوى، وفقدان الرادع عن المسؤولية، باعتبارها مؤشر واضح فى عدم قدرة الإنسان على كبح جماح نفسه، والسيطرة عليها.

الإنسان المتقى هو القادر على مسک النفس وكبح جماحها والسيطرة عليها فى دخولها وخروجها بنجاح ولياقة عالية.

فكلما ازداد التحكم والسيطرة على ضبط النفس ومراقبتها، فسيزداد اتّقاد وتألّق النفس الإنسانية فى وجدانه، ويقترب كثيرا من السعادة.

الاجابة الثالثة: رضا الله

صرّحت آيات قرآنية عديدة بأن كمال الإنسان وقيمته، وفلاحه وسرّ نجاحه يكمن فى رضا الله وحده.

قال تعالى: «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»[1]، وقال أيضاً: « رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ»[2].

وعلى ضوء هذه الآيات وآيات أخرى:

فإن أثمن إنسان هو من رضى الله تعالى عنه.

وإنّ الإنسان المثالى والكامل والسعيد هو من نال رضوان الله كله خالصاً وهو الذى يستحق أن يكون قدوة للآخرين. وأن الآخرين بأى مقداراقتربوا منه، سينالون نفحات من كماله وسعادته.

أن أكبر أمنية تحلم بها البشرية هى كسب مرضاة الله ورضوانه، فعلى البشرية أن تركّز بدقة وتصبّ اهتمامها وتبذل مساعيها، للوصول الى هذا المقام الأسنى، والقرب الأعلى منه سبحانه، والانطلاق عبر هذا المسير وحده. وعلى هذا، فإن قيمة كلّ عمل يوزن من خلال محاسبة مدى تأثيره فى تحصيل رضا الحق تعالى.

---

[1] التوبة: ٧٢.

[2].المائدة: ١١٩.

ولايخفى هنا: أن تحصيل رضا الله لايمكن أن يتحقق إلا من خلال الامتثال الكامل، والطاعة والخضوع المطلق لأوامر الله عز وجل، وتطبيق تعاليمه والاجتناب عن نواهيه، فهذه هى «العبودية»، ورعاية «التقوى الالهية».

وفى النهاية يمكن تقييم وجود الإنسان وتلخيص كماله الحقيقى فى جملة واحدة، هى: «العبودية».

وقد فهم هذا المعنى والخطاب الدينى من خلال كثير من النصوص الدينية والمصادر الاسلامية التى وصلتنا. ويمكن مشاهدتها فى آفاق عديدة من القرآن الكريم والروايات.

وردت لفظة «العبادة والعبودية» فى سورة الذاريات،

وقد بيّن فيها سبحانه وتعالى أن «العبودية» هى الهدف من خلق الكون والجن والإنس.

قال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ الا لِيَعْبُدُونِ»[1].

فأقصى نقطة وضعها الله لصعود الإنسان وارتقائه سلّم الكمال هى «العبودية»، فليس هناك شيء آخر بعدها، ولايضاهيها شيء آخر[2].

---

[1]. سورة الذاريات: ۵۶.

[2] . لايخلو ذكر هذه المقدمة من الفائدة وهى: لعل استخدام لفظة «الهدف» لفواعل مثلنا نحن البشر، تؤمّن وترفع نوعا من الحاجة والنقص الحاصل فى حياة الإنسان. فلو سألنا شخصا مثلاً: ما هو هدفک من إيجاد هذا المشروع؟، فهو كأنما سألناه فى الحقيقة: ماذا تطمح من تنفيذ هذا المشروع؟! أو ما هى النقائص والمشاكل التى شعرت بها فى عملک حتى دعتک الحاجة الملحة لوضع مثل هذا المشروع ؟

أما فى ما يتعلق بـ«الله» وربّ الأرباب، فلايتصور هناک أىّ نقص وفاقة فى ساحته المقدسة. ولايصحّ استعمال لفظة «الهدف» بهذا المعنى أبداً فى حقه سبحانه.

فعند ما نسأل ونقول: ما هو هدف «الله» من خلق الإنسان؟ فليس معناه: ما ذا يستفيد الله من خلقه للإنسان؟ بل يعنى: بأى شيء يتحقق كمال الإنسان؟

فليس الله سبحانه هو المستفيد من خلق الإنسان، بل العكس من ذلک تماماً، وهو: أن المستفيد الوحيد من هذا الخلق هو «الإنسان» وحده.

ولكى نقرّب هذا المعنى إلى الذهن...نفترض أن هناک رساماً ماهراً ومشهوراً، طاعناً فى السن، وقد جمع أموالاً طائلة، وكدّس ثروات هائلة، إلا أنّه غير محتاج –لا إلى المال ولاالثروة، ولاإلى الجاه والمقام، ولاحب الذات والشهرة، ولاإلى تفريغ وتخلية العواطف والأحاسيس الباطنية والنفسية، ولاإلى أىّ شيء آخر–، فمثل هذا الشخص – بين الناس مجرد حدس وافتراض، وليس له وجود خارجى – ما هو هدفه فى رسم لوحة فنية مثلا؟ فلو افترضنا أنه لايفكر فى رفع أىّ نقص أو قضاء حاجة مثلاً، وإنما يفكر فى شيء واحد فقط هو: الإبداع فى صنع لوحة فنية فى غاية الروعة والسحر والجمال، وإيجاد صفحة ناصعة وجذابة، يعنى أنه لايستفيد من ذلک لنفسه، بل يوصل الفائدة والربح لغيره.

فلو اعتذر هذا الفنان الماهر المبدع لغيره: أنه غير قادر على صنع لوحة فنية أخرى جديدة فى غاية السحر والجمال بحجة أنها لاتعود عليه بالنفع والفائدة، ألا يكون متهما فى محكمة العقل والمنطق والوجدان بالأنانية والغرور والعجب بنفسه والكسل؟!.

أو إذا امتنع المعلم عن التدريس بحجة أن التدريس لايعود عليه بالنفع والفائدة، أ يكون فعله ممدوحا ولايذم عليه؟!.

ومفهوم «العبودية» المذكور فى الآية يختلف تماماً عن مفهوم «العبادة» فى المصطلح المعاصر، وما يتداعى مباشرة إلى الذهن من إطلاق هاتين اللفظتين.

«فالعبودية» بمعنى العبادة، أمّا«العبادة» فى مصطلحنا المعاصر: عبارة عن مراسيم وطقوس تتضمن نوعاً من إظهار الخضوع والخشوع والتذلل والاستكانة، ولكن مع زيادة هذا القيد وهو: ليس كل عبادة عبودية، ولاكل عبودية عبادة، وليس كل عابد عبد، ولاكل عبد عابد.

فهناک قسم من أفعالنا وتصرفاتنا غير العبادية، بإمكانها أن تأخذ لنفسها طابع العبودية فى الحقيقة: كطلب العلم، وصلة الأرحام، وتناول الطعام بقصد مرضاة الله... هى كلّها من هذا القبيل. وفى مقابلها أعمال غير عبادية من نوع آخر تصدر منا، لاتتسم بطابع العبودية أبداً، بل تبعد آلاف الفراسخ والأميال عن حقيقة العبودية، وبينهما بون بعيد، كإهمال المريض دون إنقاذه، وتركه يعانى من شدّة مرضه، بحجة دخول وقت الصلاة ووجوبها!. فتراه يقوم ليصلى!، إلا أنه لم يؤد حقّ العبودية لله!؛ لأن الله أمر فى تلک اللحظة بترک الصلاة وإنقاذ المريض.

وكذا تكرار العمل لمن له نوع من حالات التوهم والوسواس فى عمله، وصوم المريض العاجز عن الصيام، وصلاة المسافر أربع ركعات فى السفر، هى كلّها من هذا القبيل.

ولكن كما أشرنا إليه قبل قليل، أن مفهوم «العبادة» فى القرآن الكريم، والنصوص الواردة عن مدرسة أهل البيت(ع) يختلف تماماً عن المصطلح المعاصر بمفهومه البدوى.

وهكذا هو هدف الله سبحانه من رسمه لوحة الوجود الساحرة الجميلة، بهذا الفارق وهو: أنه لم يُتصور معترض فى خصوص الله تعالى قبل خلقه للإنسان وإيجاده. فلو عطّلت قدرته وعظمته بلا انتفاع، فهو مذموم منه عقلاً – وهذا العقل هو المسمى بالحكمة–، فلايمكن صدور مثل هذه الأفعال عنه سبحانه، لأنه مخالف لفهمه وعقلانيته وحكمته.

أما فى منطق العقل: فوجود السحر والجمال هو أفضل من عدم وجوده، وإن عالم الخلقة والتكوين هو أروع لوحة فنية مليئة بالسحر والجمال والإبداع، قد صنعها الله عز وجل بيد قدرته الماهرة الجميلة، وأسمى هذه اللوحة الفنية الرائعة بـ«النظام الأحسن». فالنظام الأحسن يعنى: نظام التكوين الإلهى، الذى يضمّ أجمل وأحسن صورة ممكنة. قال تعالى: «الذى أحسن كل شىء خلقه»«سورة السجدة:٧».

فقسم من أجزاء هذه اللوحة الفنية الرائعة والمدهشة لها إرادة واختيار للوصول إلى كمالها، ووجود مثل هذه الظاهرة فى هذه اللوحة كان قد ضاعف من قيمتها الفنية بكثير، وإن هناک عدداً محدّداً من هذه الكائنات الحرّة والمختارة –التى أساءت وتسىء إلى الاختيار والحرية والإرادة – لاتصل إلى الهدف المنشود وقمم الكمال.

فمعنى قول الله سبحانه «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ الا لِيَعْبُدُونِ»«سورة الذاريات ٥١: ٥٦» هو: أن قيمة الإنسان وكماله التام إنما يتحقق متى ما طوى الإنسان مراتب العبودية، فكلما عبد الله وأطاعه حق عبوديته وطاعته، فقد صار أجمل.

وهذا البيان منه عز وجل يشبه قولنا:«المصنع الفلانى، قام بتصنيع الساعة، ليثبّت الوقت بدقة»، ففى هذه العبارة: وقبل أن تبدأ الحديث عن حاجة الصانع فى تصنيعه للساعة، فإنها ركّزت على كمال الساعة.

ففی الثقافة الاسلامية مثلا يطلق لفظة «عبادة الله» على العمل الصالح الذی يقصد منه التقرب إلى الله، وتحصيل مرضاته ورضوانه.

وعلى ضوء هذا، تنطبق لفظة «العبادة» على «العبودية» فی القاموس القرآنی.

ونذكر هنا قبسات من فكر قائد الثورة الإسلامية الإيرانية الإمام الخامنئی (دام ظله) فی بيان لفظة العبودية، لاكتمال البحث، ولايخلو ذكره عن الفائدة.

قال سماحته (دام ظلّه): استعمال «العبادة» عادة فی القرآن الكريم يفيد: أن العبادة تعنی التسليم، والطاعة المطلقة تجاه إنسان أو أی موجود آخر.

فحين نستسلم استسلاماً أعمى لشخص، ونتحرک وفقاً لرغباته وأهوائه وأوامره فقد عبدناه، وكل قوة تستطيع أن تخضعنا لها، وتسيطر على أجسامنا ونفوسنا، وتسخّر طاقاتنا وفقاً لرغباتها، فإنّها تصيّرنا عبيدا لها، سواء كانت هذه القوة من داخل أنفسنا، أم فی محيطنا الخارجی.

ومن خلال دراسة جميع آيات القرآن فی هذا المجال نخلص إلى أن العبادة فی المفهوم القرآنی: هی الاتباع والتسليم، والطاعة المطلقة أمام قدرة واقعية، أو وهمية طوعاً ورغبة، أو كرهاً وإلزاماً، مع الشعور بالتقديس والثناء المعنوی أو بدونه.

هذه القدرة هی «المعبود» وهذا المطيع هو «العبد» و«العابد».

ومن خلال الإطار العام للمفاهيم المتقدمة يتضح معنى لفظة «الألوهية» ولفظة «الله» باعتبارهما تعبيراً آخر عن كلمة «المعبود»[1].

ونكرّ راجعين لتفسير الآية المذكورة وهی قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ الا لِيَعْبُدُونِ»[2].

روی عن أميرالمؤمنين(ع) أنه قال: «إلهی، كفى بی عزّا أن أكون لک عبداً، وكفى بی فخراً أن تكون لی ربّاً»[3].

أی أن العبودية لک وحدک مدعاة للفخر والتباهی، وأن كل ما يتوهمه الآخرون غير هذا، فهو سراب أمام بحر!.

وقد تضمنت سورة «الحمد» التی تعدّ خلاصة القرآن الكريم، هذا الخطاب فی باطنها، فی قوله سبحانه وتعالى: «إياک نعبد وإياک نستعين».

الإجابة الأخيرة

اتضح لنا من خلال الإجابة عن سؤالنا: بأن الكمال الإنسانی والقيمة البشرية، هی أعلى المراتب التی ينبغی أن يكون فيها الإنسان، وأعلى القمم التی تكون فی حركته، والمنزل المقصود الذی ينتهی اليه السير والسلوک الإنسانی، والوضع

---

[1]. روح توحيد، نفی عبوديت غير خدا، للسيد على الخامنئی، ص ۲۷-۲۹.

[2] الذاريات: ۵۱.

[3] الخصال، ج ۲، ص ۴۲۰.

الأفضل الذى يتصور لوجوده، والمحلّ الآمن الذى يطمئن إليه الإنسان فى الركون اليه فـى حلّـه وترحالـه، ويشـعر فيـه بالراحة والاستقرار، وهى السعادة الحقيقية التى تلخصت فى جملة واحدة، هى: تجسم «العبودية والعبادة لله».

قال تعالى: «وَأَنْ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ»[1].

وقد تم عرض هذا المحتوى فى الآية بأشكال مختلفة.

ففى التوحيد:

روى عن رسول الله (ص) قال: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[2]. وقال (ص) أيضاً: «لا إله إلا الله حصنى، فمـن دخـل حصنى أمن من عذابى»[3].

وفى التقوى:

قوله تعالى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم»[4].وقوله سبحانه: «وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»[5].

وفى رضا الله:

قوله تعالى: «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم»[6].

وفى تزكية وتهذيب النفس:

قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى»[7]، وقوله سبحانه: «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا»[8].

وفى ذكر الله:

قوله تعالى: «الا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»[9].

وفى طاعة الله ورسوله:

قوله تعالى: «وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»[10].

---

[1]. يس: ۶۱.

[2] المناقب، ج۱، ص ۵۶.

[3]. أمالى الصدوق، ص۲۳۵.

[4] الحجرات:۱۳.

[5]. آل عمران: ۲۰۰.

[6]. التوبة:۷۲.

[7] الأعلى: ۱۴.

[8] الشمس: ۹.

[9] الرعد: ۲۸.

[10] النساء: ۱۳.

الآن عرفنا من هو أفضل إنسان.

فالإنسان الكامل والإنسان المثالى، والأكثر قيمة وموقعاً اجتماعياً، والأسعد، والأسمى، هو من تتمثل فيه كفاءة القيادة، ونموذج التأسى والاقتداء، ويكون «ميزاناً» للآخرين. وهو من ارتقى قمة الإنسانية وذروة المجد. ذاک الأكثر عبودية بين عباد الله.

أشهد أن محمداً «عبده» ورسوله.

«سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِه»[1]

«فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِه مَا أَوْحَى»[2].

فرسول الله «ص» هو مولى الموحدين، وسيد المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين، وأكثر الناس اندكاكاً وذوباناً فى التوحيد، وحرية وانعتاقاً، وطاعة وعبودية لله، وهو سيد العابدين.

لقد عرفنا الآن: أن أفضل أمنية يتمناها الإنسان والبشرية قاطبة فى هذه الحياة الدنيا هى الوصول إلى مقام العبودية.

وعرفنا أيضاً: أن من تتمثل فيه خصائص التقوى والعبودية أكثر من غيره، فهو أقرب إلى الإنسان الكامل، وأما من فقد ذلک، ولم تتوفر فيه أى من تلک الخصائص، فقد تعرض لخسائر فادحة، وهو أكثر حرماناً من القيم والاعتبارات الإنسانية.

وعرفنا أيضاً: أن المنطق الذى يليق بكافة أفعالنا وأنشطتنا فى الحياة ينبغى أن يصب فى مسلک الطاعة لله وإرادته.

ومن هذا المنطلق: علينا أن نكون أمام هذا السؤال:

لماذا أنت هكذا؟،أو لماذا فعلت هذا؟

فإن له جواب واحد ومحدد وهو:

«لأن فيه رضا الله» أو «لأن عبودية الله تقتضى ذلک».

– لماذا تطلب العلم؟!.

فتجيب: «لتحصيل رضوان الله».

– لماذا أنت منشغل بالعمل؟

– «لإطاعة أوامر الله».

– لماذا تساعد فلاناً؟!.

–«لكسب رضا الله».

---

[1] الإسراء: ١.

[2]. النجم:١٠.

– لماذا قلت ذلک؟

–«لأن الله أراد ذلک».

–لماذا لم تقل شيئاً؟

–«لأن الله يحب ذلک».

–لماذا تصلّى؟

–«قربة إلى الله».

–لماذا لاتستريح؟

«لأن الله...» وهكذا....

وعرفنا أن «العبد لله» لايستولى على قلبه الخوف والطمع والخجل، والتبعية للعادات والتقاليد والآداب والرسوم، وآلاف الدواعى والبواعث الأخرى، فليس عمله إلا لطلب رضا الله.

وعرفنا أيضاً: كيف ننظّم أفعالنا، ونخطط ونبرمج لحياتنا وسلوكنا.

فكل ظاهرة أو عنصر يساعد على إظهار روح العبودية والإكثار من الطاعة، والتسليم والخضوع إلى الله سبحانه، فلها الأولوية فى مشروع عملنا فى الحياة.

وكل ما يصدنا ويعرقل حركتنا عن السير فى طريق التقوى والعبودية والطاعة لله، ينبغى علينا أن نخرجه عن قائمة أفعالنا وأنشطتنا المرخص لها والمسموح بها.

وعلينا أن ننظم حياتنا لتحصيل ما هو أكثر عبودية وطاعة لله عز وجل.

وقبلنا أيضاً أن أساس مسؤولياتنا ووظائفنا الملقاة على عاتقنا، هى عبارة عن: معرفة الطرق والأساليب المؤدية إلى تقوية وترسيخ دعائم العبودية وتثبيت أركانها، ومعرفة كلّ الموانع التى تواجهها، وكسب القدرة والمهارة الكافية لرفع كلّ الموانع والحواجز والمضايقات التى حصلت وتحصل أثناء الحركة باتجاه التسليم، والطاعة، والاستمرار مع الله، والاصطباغ بصبغته، والتأدّب بآدابه، والتخلّق بأخلاقه.

وعلى ضوء هذا، فالمجتمع المثالى: هو المجتمع الذى يمكن فيه عبادة الله بسهولة، بلا مضايقة من أحد، والتوجه الى الله هو الهدف والمحور، والسائر اليه سبحانه قريب المسافة منه، ليسهل الوصول إليه سبحانه.

والقانون المثالى والنموذجى هو القانون الذى يقرّب الإنسان نحو الهدف الإلهى، ويسير به بهذا الاتجاه.

وعرفنا أيضا أن العبودية «أصل» ثابت لايقبل التغيير والاستثناء فى الحياة الإنسانية والبشرية جمعاء.

وهو القانون الوحيد الذى لايمكن التنازل عنه أو التراجع فى مختلف الظروف والأحوال.

«العبودية، التسليم، والطاعة لله» هى قواعد وأصول عامة ثابتة وخالدة لاتقبل التغيير، وهى على خلاف كثير من الصفات والأصول المادية. «فالنظم» مثلاً هو قانون وقاعدة ثابتة فى حياة الإنسان، وقد تحددت كلّيات هذه القاعدة

وانحصرت بحدود «العبودية». أى أن «للنظم» قيمة، فيما إذا كان فى دائرة «العبودية لله» وانطلق بهذا الاتجاه، أما إذا خرج عن هذه الدائرة، وخالف رضا الله سبحانه، فينبغى تركه والتغاضى عنه، وعدم الركون إليه. وفى هذه الحالة، سيكون كمال الإنسان فى عدم النظم والفوضى والتشتت.

وهكذا «حسن الخلق والمحبّة» ففى التعامل مع الإنسان الآخر، حسن الخلق والمداعبة هو أصل أولى وقانون حاكم، إلا أن هذا الأصل إنما له قيمة واعتبار، فيما إذا تحدّد بحدود العبودية، وأما إذا كان تحصيل رضا الله فى القوة والصلابة فالانعطاف والمداهنة، أمر مذموم ويقلل من قيمة الانسان.

وينبغى التوجه والقصد نحو العبودية لله دوما؛ لأنها لاتقبل التقييد والاستثناء مهما كانت الظروف والأحوال. فالعبودية ليست وظيفة وقتية، ومرحلية، ولاتحدّ بأى عنوان من العناوين ولايدخل كمال الإنسان حالات الرفض والعصيان، وعدم الخضوع والطاعة لله أبداً.

«العبودية»أصل ثابت وراسخ، لها قيمة مطلقة وهامة فى الحياة، وخالدة، وهى تشكّل كافة تحركات البشر وأنشطتهم العامة، وقد أشار الشهيد بهشتى (قدّس سرّه) إلى هذا المعنى بقوله: «المسلم هو الذى يبتنى سلوكه وتعامله وأفعاله على ما يختصّ بأعلى القيم والمبادئ، وتلك هى «العبودية لله»، على ضوء اعتقاده بالاسلام، إلا أن قيمة «العبودية»هى أسمى من كل القيم والمبادئ[1].»

فالصلاة والدعاء والمناجاة والتضرع ينبغى أن تكون مصاديق «للعبودية»، كما هو الحال أيضاً فى تناول الطعام، والسياحة والنزهة، والرياضة والنوم والاستجمام. وكما هو الحال فى طلب العلم والجهاد والسعى وتقديم الخدمات، وفى كلامنا وصمتنا وصيامنا وإفطارنا، وقيامنا وقعودنا ونومنا ويقظتنا.و كذلك فى ذهابنا وإيّابنا، قولنا وفعلنا، غضبنا وشفقتنا، كراهيتنا وإقبالنا، توجهنا وغفلتنا، موتنا وحياتنا، ينبغى أن تكون كلّها لله.

قال تعالى: «إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[2].

وقال على(ع): «طوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه، وحبّه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمّته، وفعله وقوله»[3].

وعرفنا أيضاً أن العبودية هى الحرية، والتحرر من براثن القوى المادية، والقدرات غير الإلهية، والتخلّص من أسر هوى النفس والغرائز والشهوات، والعادات والتقاليد والانفعالات.

---

[1]. صحيفة «جمهورى إسلامى» مورخ: ۷۹/۵/۶.

[2] –سورة الأنعام: ۱۶۲.

[3] –تحف العقول، ص۱۰۰.

المخالفة أم العبودية؟

ويجدر بنا الآن أن نتسائل: هل أن العبودية لله تعنى مخالفة العادات والتقاليد، والرغبات والانفعالات دائماً؟ وهل أن الوصول إلى العبودية يعنى الصراع الدائم معها إلى الأبد؟ إذن، أين دور العادات والتقاليد الممدوحة! والآداب والفضائل المرجوة، والرغبات والدعوات المنطقية؟!

أ ليس للخوف والغضب، والخجل والاستحياء، والبغض والكراهية، والعطف والحالات الروحية والنفسية الأخرى للانسان فى شتى المجالات نتائج إيجابية ومطلوبة؟!.

فلو كانت التبعية لها عبودية لغير الله، فلماذا لها تطبيقات ومعطيات عملية ناجحة ومؤثرة إذن؟!. ولماذا أوجد الله سبحانه هذه الخصائص والصفات فى وجودنا كردود فعل طبيعية أمام المحركات الخارجية؟!.

ألا تعدّ إغاثة الملهوف، والعطف والحنان على إنسان حلّت به الكوارث، وألمّت به النوائب، قد سقط فى وحل الفتن والابتلاء، وأخذ يعانى من آلام وأوجاع، يتخبط كالغريق فى هذا المستنقع بيديه ورجليه، ويبحث عمن ينقذه وينجيه، من العواطف الإنسانية، والفضائل الممدوحة التى يثنى عليها ؟!.

إن التعرّف على هذه الأجواء يحتاج قليلاً من الفطنة والذكاء والتأمل.

إننا نعتقد تماماً بأن أفعالنا وتصرفاتنا هى ليست كلها شاذة ومنحرفة، ومجانبة للصواب والمنطق، ولاأن كل العادات والتقاليد الاجتماعية والآداب والرسوم المحلية المتعارفة هى عبث ولهو، أو قد وضعت فى غير محلّها وليس كلّ رغبات الإنسان ومطالباته هى غير معقولة ولا أحد ينكر نتائج وتأثيرات الحالات الروحية للإنسان، وردودها وانعكاساتها على حياته. إلا أن أىّ عمل يصدر عن الإنسان، بغضّ النظر عن الدواعى والبواعث التى تؤدّى إلى ظهورها، فبدون الانتباه إلى فواعلها، لايخرج الأمر عن حالتين لا ثالث لهما:

إمّا أن يرضى الله بها.

أو لايرضى بها.

أما الحالات التى يرضى الله سبحانه بها، فهو أن يكون الإنسان فى صراع دائم مع «هوى النفس» والرغبات والشهوات[1]، فيكون تقديم أوامر الله سبحانه هى «عبودية لله»، وترجيح «هوى النفس» هو «شرك بالله»، و«عبودية لغير الله».

وحينئذ يتقاسم وجود الإنسان أمران متضادان:

أحدهما من قبل الله.

---

[1] يميل الإنسان بطبعه إلى العمل طبقاً لمقتضى «التأثيرات الروحية» و«العادات الفردية» و«الآداب والتقاليد الجماعية». ويمكن التعبير عنها كلّها به «هوى النفس»، وسنلتزم نحن أيضا بهذا التعبير رعاية للاختصار.

والآخر من قبل النفس.

وطاعتنا لأوامر أحد هذين الآمرين، سيحدّد جهة عبوديتنا واتجاهنا[1].

فعندما يأمر الله عباده بالصلاة، وتطلب منه نفسه الاسترخاء والاستراحة، أو أن رضا الله فی قول كلمة «حق»، ويمنعه الخوف والوجل من قولها!، أو أن إرادة الله تقتضی منه السكوت، لكن نفسه تدعوه إلى الغضب والثـأر والكراهيـة، لتفريـغ عقد الباطن، أو يتطلب حفظ الكرامة الاجتماعية وماء الوجه، بمتابعـة العـادات والسـنن والتقاليـد، والأعـراف التقليديـة الموروثة، وتتعارض مع طاعة الأمر الإلهی، أو أن الحق يدعونا إلى وجهة معينة، والعادات والتقاليد والأعراف تفرض علينا وجهة أخرى معاكسة! ففی هذه الأثناء، كل قوة أصبحت حاكمة على وجود الانسان فهی معبـوده وإلهـه. فعنـدما يـؤدی مشاهدة برنامج تلفزيونی ممتع إلى فوات وقت الصلاة الواجبة، فعبودية الله هنا لاتتحقق فيما إذا عارضنا النفس والهـوى. ومن عجز عن مخالفة أوامر نفسه، فقد تجلبب بجلباب عبودية «الهوى».

وفی مثل هذه اللحظات، فإن من شرائط العبودية هی: المخالفة دون لحـاظ شـیء مـع العـادات والتقاليـد، والآداب والرسوم، والأمانی والرغبات والتأثرات الروحية والعاطفية. أما إذا لم يكن هناک تعارض بين رغبات النفس وعبوديـة الله تعالى، بحيث يمكن التوفيق بين الطرفين، ففی مثل هذه الحالة، سيوجّه الطرفان الإنسـان باتجـاه واحـد، وعليـه تضـحى مخالفة الشهوات مرفوضة وغير صحيحة.

إن من علّم نفسه القيام بالأعمال الصالحة والحسنة، بحيث يصعب عليه تركها، أو خاف القيام بفعل ما، أو حافظ على عفافه وحيائه متأثراً بشدة الخجل والاستحياء، أو طلب تعلّم العلوم الواجبة شوقاً وفضولاً، أو قدّم دعما لجبهة الحق بدافع الحماس، أو التعصب، أو قدّم خدمات اجتماعية لأبناء جلدته ووطنه طمعاً فی نيل مزايا وخصائص ومنح ماديـة أكثـر أو مسک بيد عاجز وأعانه رحمة عليه وشفقة، أو تطبع بعرف اجتماعی معين، فذهب لزيارة أقربائـه وصـلة أرحامـه مـثلاً، وأتحفهم بهدايا، أو استضاف أحداً فی بيته ودعاه لتناول الطعام،...فكل هؤلاء يقومون بأعمال صالحة...

لكن هل فيها عبودية لله؟!.

وما هو مقدار تلک العبودية؟!.

وهل أن كلّ عمل صالح يمتاز بقيمة إنسانية عالية؟!.

وهل أن كلّ عمل صالح يؤدی إلى الكمال الإنسانی؟!

طبعاً لا!.

---

[1]. يجوز طاعتنا لأوامر الآخرين، وذلک فی ما اذا كان ذلک فی دائرة وحدود أوامر الله تعالى، فمثلا أوصى سبحانه بالإحسان إلـى الوالـدين، وحدّد ذلک مباشرة فی إطار أوامره، وقيّده بأن لايؤدی الى الشرک بالله، فقال: « وَوَصَّيْنَا الانسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاکَ لِتُشْرِکَ بِـی مَـا لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فلاتُطِعْهُمَا» (العنكبوت: ٨).

لماذا؟

لأن عبودية الله وحدها هى التى تضاعف قيمة الإنسان، وتسوقه نحو أعلى مراتب اليقين والكمال.

وفى تلك الأمثلة، وبدون أن يتوجه الإنسان فيها إلى الله عز وجل، فإنه ربما يفعل تلك الأعمال لإرضاء حاجة فى نفسه، وإطفاء نيران مستعرة فى أعماقه، دون أن يستحضر نية القرب الإلهى. فتكون كل تلك الأعمال خلواً عن حضور محسوس ومشهود لله عز وجل؟!. بل إن المحسوس والمشهود فى أغلب تلك الأفعال هو «هوى النفس» وأوامر الغرائز والطاعة والتسليم لها.

«الإنسان الكامل» والمتعالى، هو الذى تصبّ أعماله فى مرضاة الله والطاعة لأوامره وحده واجتناب نواهيه بعيداً عن المؤثرات والتحريكات الباطنية.

وعلى هذا، فإن ظاهر العمل وإن كان صالحاً وجميلاً، إلا أنه ليس مناطاً للحكم والتقييم! بل أن ميزان توجه الإنسان إلى الله تعالى عند العمل هو الذى يحدّد قيمة العمل يعنى بالنظر إلى أن الانسان إلى أى خطاب استمع وبأىّ دافع تحرك، تتحدد قيمة العمل وقيمة وجود الانسان، فللنيات والمقاصد أكبر الأثر فى تقييم الأعمال.

روى عن رسول الله (ص) أنه قال: «ضربة علىّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[1].

ويظهر من هذا الحديث الشريف: أن هذه الضربة لاتختلف عن سائر الضربات التى وردت على قادة الكفر وأئمة الجور وأعداء الاسلام، ولكن تواجد البواعث وحفظ الدواعى والنيات الخالصة، وإعلان العبودية المطلقة فى عمل أمير المؤمنين(ع) كان له طابع ولون الهى خاص، وقيمة لاتعدّ ولاتحصى، فاستبدل هذا العمل إلى إنجاز عظيم.

قال تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَة»[2].

فإذا انسجم هوى النفس وإرادة الحقّ فى هذه الظروف والأجواء، فميزان حضور النية، والنغمة الإلهية تحدد قيمة العمل! فكلما كان الفعل إراديا، ومساوقاً للانتباه والتوجه والشعور بحضور الله وتواجده أكثر، فله أثر عميق فى حصول التكامل الإنسانى والبشرى. أما إذا اكتفى بتحريک الغرائز، وكان فارغاً عن الإرادة والتوجه والشعور بالحضور والتواجد الإلهى، فليس لهذا العمل أىّ قيمة وأثر، وإن كان صالحاً وعظيماً ومفيداً.

العمل الصالح ينفع المجتمع ويخدم الآخرين، إلا أن هذه الفائدة القيّمة تفتقد جزءاً من الملازمة!. فالعمل يقع ثقله وأتعابه على كاهل هذا العامل، فهو الذى يتحمّل ذلک، لكن نفعه وفائدته تعود على الآخرين.

إن حفظ الظواهر الشرعية وإن كان بدواعى العادة أو الخجل والاستحياء، والدفاع عن جبهة الحق وإن كان للتعصب الوطنى، وخدمة البشر وإن كان قائماً على الطمع، وإغاثة الملهوفين والضعفاء والمحرومين وإن كان من منطق الاسترحام

---

[1] إقبال الأعمال، ص۶۶۷.

[2] البقرة: ۱۳۸.

والشفقة، والإقدام على فعل الخير وإن كان بداعى التهرّب والفرار عن معاتبة الناس وتـأنيبهم وتقريعهم... هى كلّهـا نافعـة «للمجتمع» ومفيدة «للآخرين»، إلا أن فاعلها الذى تحمل أعباءها، ووضعها على عاتقه ومسؤوليته، لايحصل علـى قـيم إنسانية، ولايقترب أو يدنو من قمم الكمال، إلا إذا اصطبغت أفعاله بصبغة ودواعى إلهية.

أما الاجابة عمّا قيل: هل الرحمة والرأفة والودّ والحبّ لايعدّ من العواطف والمشاعر الإنسانية التى يثاب عليها ويثنى؟ فعلينا أن نقول هنا: ما هو المراد بالعواطف والمشاعر الإنسانية؟!.

إذا كان المراد بها هو الاختصاص بنوع الإنسان!

فنقول: نعم، تختصّ الرأفة والمودة والحبّ بالإنسان. يعنى: أن كل من يحرم منها، فليس من صنف البشر فى شىء، بل يلحق بصنف الحيوانات والبهائم، أو يكون فى عدادها، قال الشاعرما معناه:

إن كنت لاتتحسس بمعاناة وآلام الآخرين، فلايليق أن يسمّونک إنسانا[1].

أما إذا كان المراد بالعواطف الإنسانية هى الصفة التى تعطى قيمة ضعفاً للإنسـان، وتمنحـه موقعـاً ودوراً خاصـاً فـى المجتمع، وتوسّع من انسانيته، فالرحمة والشفقة هما ليستا كذلک! فلـيس هنـاک صـفة تمتلـک خصـائص «العبوديـة». فالرحمة والشفقه هما أيضاً شبيهتان بالخوف، والحب، والحياء، والكراهية، والانفعالات الأخرى، وضعت فى قـرارة نفـس الإنسان، لتكون منشئاً ومنطلقاً فى العمل. فكل هذه الحالات الروحية والعاطفية فى خط انحناء القيم وضـد القـيم، واقعـة على نقطة الصفر، وتطبيق عنوان الطاعة والعبودية عليها هو وحده يكون سببا فى إضفاء القيمة والاعتبار على كـل تلـک الحالات. فليس كل شفقة ورحمة هما قيمة ومبدأ، وليس كل خجل وكراهية لا قيمة لهما! فالخجـل أو الحـبّ همـا مـن الصفات الإنسانية بنفس ملاک الرحمة والشفقة، أما ميزان الإنسانية ومعيارها الحقيقى فهو التقوى، والتحكم بهذه الصـفات والعواطف والأحاسيس، و«العبودية لله».

قال سبحانه وتعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[2].

وقال سبحانه: «و أن اعبدونى هذا صراط مستقيم»[3].

فلو وظّفت مظاهر الرحمة والرأفة الصادرة من الإنسان فى مسير العبودية لله، وصارت مصداقا للعبودية، فهـى ثمينـة وذو قيمة عالية، طبعا لا باعتبار كونها عواطف إنسانية، بل لأنها اصطبغت بالصبغة الإلهية.

وإن لم تكن فى مسير الطاعة والعبودية، فهى غير ثمينة ولاقيمة ولااعتبار لها أبداً، وإن كان قد ظهر لها فوائد جمّة فى هذا الاتجاه.

---

[1] توكز محنت ديگران بى غمى نشايد كه نامت نهند آدمى.

[2] الحجرات: ١٣.

[3] يس: ٦١.

إن الرحمة والتألم للآخرين، ليس لها قيمة ذاتية، بل تعدّ من الفضائل والقيم الحميدة أو السيئة كسائر الانفعالات والطبائع الغريزية، يعنى كما أنها يمكن أن تقع فى مسيرة رفعة الإنسان وسموه، يمكن أيضا أن تحطّ من قيمته وشأنه، وتسوقه نحو الانحطاط والحضيض وهدم الإنسانية. ولهذا السبب نهى عنها أحيانا. فبعد أن أمر الله عز وجل بجلد الزانيفى القرآن، قال على أثره: «و لاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين»[1].

فان العطف والرحمة والتألم، أو التأثرات الروحية والحالات النفسية للمشاهدين الحاضرين فى مثل هذه الحالات، هى أمور مخالفة لأوامر الله، وهى مرفوضة شرعاً ومعاقب عليها، ومؤدية إلى ضياع وفقدان القيم والمبادئ الإنسانية.

نعم، إن الفرق بين الرحمة والشفقة والرأفة مع حالات التأثر والانفعال كالخوف والخجل والطمع... هو: أن الرحمة والشفقة والرأفة بأمر الله ينبغى أن تكون قاعدة أصلية وأساسية فى حياة الإنسان. وإنما يرفع اليد عنها فى حالات طارئة وضرورية نادرة قد استثنيت عن هذا الأصل بصورة مؤقتة وثانوية. فاعتبار واستمرار هذا القانون مرتبط بملاک «العبودية» و«الطاعة» لله، أى ينبغى رعاية هذا الأصل بأمر الله سبحانه.

أما المادة المستثناة فى هذا القانون فإنها تدور مدار «العبودية»، فلانتعامل بهذا الأصل لفترة محدودة، إلى أن يزول المانع عن هذا الحكم بأمر الله تعالى.

وهذه الصفة موجودة فى الله تعالى، فللّه صفة الرحمة والقهر معا، إلا إن رحمته سبقت غضبه.

قال تعالى: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»[2].

وقال سبحانه: «أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ»[3].

وقد ورد عن رسول (ص) فى الدعاء: «سبقت رحمته غضبه»[4].

فلو كان للرحمة والرأفة والشفقة والحلم قيمة ذاتية وثمينة، وموجدة للكمال فى كل الحالات، لماكان الله – الذى هو الكمال المطلق – يتصف بصفات تخالف تلک الصفات.

ثم إن العمل الذى يتحقّق إثر الانفعالات النفسية والروحية، فهو عمل طبيعى، نتج عن ضغوط وعذاب وجدانى وأزمة نفسية، وليس له أىّ فائدة، لأنه لم يصدر عن إرادة واختيار.

وهذه الأساليب والنماذج فى التعامل أدت إلى هذه الردود والانعكاسات الطبيعية جراء الضغوط والأزمات الخانقة والحادّة من تلک المشاهدات.

---

[1] النور:۲.

[2] الأنعام:۵۴.

[3] طه: ۸۶.

[4]. إقبال الأعمال: ج ۲، ص۱۰۸.

فإذا تعرّض شخص مثلا إلى حادثة اعتداء وضرب، وأخذ يتألم لشدة الضرب، أو من غضب مثلا فأخذ بالتأوه والاستغاثة دون إرادة منه واختيار، فهذا التأوه والأنين هو حركة طبيعية قسرية ولاإرادية تقريبا، تهدئ ولو قليلا، ضغوطه الباطنية. طبعا بامكان الانسان أن يُخضع هذه الحركة لسيطرة الإرادة ويمنع عن إظهارها.

إن من يخجل أو يخاف، فإنه يمتنع ويتوقف لا إراديا عن العمل. وهذا السكون والتوقف هى ردود وانعكاسات طبيعية ولاإرادية لذلک الخجل وحالات التوهم.

ويمكن الثورة والانتفاض بإرادة قوية ضد الطبيعة الأولى، واستبدالها إلى نهضة وحركة، فمن يحب ويعشق شيئاً، يتجه نحوه بلوعة وشغف، ولهفة واشتياق دون اختيار، ويتبع هذا الجذب والانشداد تهدئة مؤقتة وتسكين لتلک الجراحات والآلام والمعاناة. وكذلک سائر أفعال الإنسان التى تبتنى على الرأفة والشفقة والرحمة.

إن من يتعرض لحادث جلل، فيتألم ويستغيث، سيثير اللوعة والحزن والأسى فى قلوب المشاهد له، ويستنهض منه الرحمة والشفقة، فيرقّ قلبه له، ويتعاطف معه، تسيل دموعه ويبكى لهذا المتألم، وينوى مساعدته وإغاثته، ويقدم له أنواع الدعم والمساعدة.

فقد قام هذا المواطن بعمل صالح، وأفاد غيره باغاثته ومساعدته، إلا أنه أخرج نفسه قبل ذلک من ضغوط هذا التأثر الروحى، وألم الانفعال والانشداد والتوترالنفسى، وتخلّص كما قالوا: من عذاب الوجدان.

إن هذه القوة الباطنية التى يعانى الجميع من ضغوطها – عدا القلوب الميتة والجامدة – لشدة كونها مركزة ومؤثرة، فإنها فى الظروف الاعتيادية تدعو الجميع – دون التوجه والالتفات إلى العقيدة والهوية – إلى هذه الردود والانفعالات، وهذه الردود والانفعالات تستجيب لأوامر الغريزة، وليس لأوامر الله، وكذلک هى لاتحتاج إلى إعمال إرادة واستخدام اختيار يثير الاهتمام. ولو قمنا بهذا العمل بشعور وإرادة طبقا لأوامرالله وإرادته، وبنيّة طاعته، فهو عمل ثمين وذو قيمة حقيقية، وفى أعلى مرتبة من مراتب الكمال ؛ لأن راية «العبودية» هى التى ترفرف عليه وتظلّله.

«فالعمل على أساس الغريزة» هى حركة تنازلية انحدارية، وهى لاتحتاج إلى رعاية واهتمام خاص، لأنه عمل حيوانى.

أما «العمل على اساس الوظيفة والمسؤولية والتكليف» فهو حركة تصاعدية، وهى بحاجة إلى رعاية واهتمام واستخدام للإرادة، ولهذه الجهة فإنها إنسانية.

وإذا دعت الوظيفة والغريزة معاً إلى جهة محددة، فهنا يشكل تشخيص هذا العمل:

فلأىّ مركزمنهما يتّبع؟

وعلى أىّ نية وقصد يعتمد؟

هل هو إنسانى أم حيوانى؟!.

وهل أن تناولنا للطعام، واستجمامنا، والركون إلى الراحة، هو عمل يتمحور حول التكليف والمسؤولية أم الغريزة؟

وإ ذا نوى الإنسان تنفيذ أوامر الله عز وجل فى موارد تستلزم توجها خاصاً وانتباها وإرادة، فيقوى احتمال أن القيام بهذا العمل كان طبقاً للوظيفة والتكليف والطاعة لله. لكن الثقة والاطمئنان بان لا دخل للغريزة فى ذلک، وكون النية خالصة ونزيهة لله، خالية من الشرک، فهذا ما لايمكن فهمه بوضوح وسهولة، وليس أمراً يسيرا، أى الاطمئنان والثقة بأن صدور هذه الأفعال ذو صبغة إلهية فقط!، خالية عن أىّ دواعى وبواعث نفسية وذاتية.

روى عن رسول الله(ص) أنه قال: «إن الشرک أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ليلة ظلماء»[1].

يبين هذا الحديث، تأثير النية المدهش ودورها فى صدور الأعمال، فالنية الخالصة والدواعى الإلهية هى كيمياء العمل، وتجعله قيما جدا.

وهنا نقترب أكثر من مفهوم قول النبى(ص): «إنما الأعمال بالنيات، ولكلّ امرء ما نوى»[2].

ويتضح مما قيل: إن التاكيد الكثير على الإخلاص والنية يجب أن لايؤدى إلى تعطيل العمل. ويهدف هذا التأكيد وحده لضرورة السعى إلى إصلاح الدواعى والأغراض، ليكون هذا الجهد والعمل وبذل المساعى مثمراً وناضجاً فى فترة زمنية غير محددة قطعا، قد أينعت ثماره، وأدّى إلى نتائج مؤثرة ومطلوبة. أى السعى لتحسين العمل الصالح، قال تعالى: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»[3].

فكلما كان عمل الإنسان أكثر إخلاصاً، فهو أحسن.

وهنا نعرض لتحليل أحد مصاديق العمل الصالح من زوايا متعددة، وليكن العمل الصالح هذا «التصدق بمقدار من المال» فنلحظ هنا اتجاهات متنوعة:

١. لو أراد شخص التصدق بحفنة من المال بهدف التفاخر على الآخرين، لكسب ودّهم، وتعاطفهم وحبّهم، أو لتخليص نفسه من تأنيبهم وتقريعهم، أو لدفع نقمتهم ومعاتبتهم، فانّه يحاول سدّ هذه الثغرة، وهو إنما يتصنع بذلک، ليدفع عن نفسه النظرة السيئة والمشئومة، فيدفع مبلغاً من المال، أو يتعامل مباشرة إثر تحريک هوى النفس، فإن عمله هذا صدر بدافع هوى النفس، وليس لله حضور فى هذا العمل، ولهذا فهو فاقد لكلّ قيمة معنوية، لأنه ليس خالصاً لله، وليس لصاحب هذا العمل أىّ نصيب من الكمال.

٢. لو رأى شخص مشهداً مؤلماً ومثيراً، قد أحزن قلبه، وأثّر فيه بشدّة، فعالج قلقه واضطرابه بالتبرّع بمبلغ من المال، فقد أدى بسبب تحريک طبعه الأولى، ولم يكن منتبها لمرتبة عبوديته وطاعته وإخلاصه، فطابع الإرادة وعامل الاختيار

---

[1]. ميزان الحكمة، الحديث ٩٣١٦.

[2] أمالى الطوسى، ص٦١٨.

[3] الملک: ٢.

هنا ضعيف جداً كما فى الفرض السابق. وقد ذكرنا فيما تقدم أن العمل الذى لايصطبغ بالإرادة، ولايشهده الحضور الإلهى، ولم يكن صادراً منه عن رغبة واختيار، فلايزيد صاحبه شرفاً وفضلاً وكمالاً.

٣. لو تبرع هذا الشخص بمبلغ من المال ؛ ليدفع عن نفسه الأضرار والابتلاءات المحتملة، أو لوفاء نذركان قد نذره، وكان قاصد لله فى فعله، معترفاً بقدرة الله وعظمته الأزلية اللامحدودة فى إدارة الكون، ولكن عمله هذا يتضمن نوعاً من المعاملة والأخذ والعطاء مع الله، وكأنه أبرم عقداً وصفقة بينهما مؤداه: «أنا أعمل على إرضائک يا رب، فأرضنى.

إن إغاثة الفقراء والمحتاجين المعوزين ومساعدتهم هو عمل صالح ترضاه، وها أنا ذا أتعاهده، فأزل عنى همى وحزنى، وأرضنى» فحضور الله وتواجده أمر مشهود وواضح فى هذا الفرض. ولكن المشاهد بوضوح إلى جانب هذا كلّه، هو رضا نفسه أيضا!. فلم يكن هذا الفعل قد صدر عن غريزة وانفعال، ولذا، فإن له أثر كبير فى الكمال الإنسانى.

۴- أما من يتبرّع بهذا المال طلباً لرضا الله عز وجل، فعرضه على ربه، إلا أنه يأمل فى قراره نفسه أن يرضيه الله عز وجل إزاء ما قام به من عمل، فلايعقد هذا الشخص عقداً واتفاقاً منذ البداية مع الله، لكنه إن لم ير مكافأة ومثوبة منه سبحانه على فعله، فسيعتب على ربّه ويحزن!. وفى هذا العمل – كالنحو الثالث المتقدم – يكون الله ونفسه حاضران، إلا أن حضوره سبحانه أكثر صبغة فى هذا العمل من نفس الإنسان.

۵. من يقول عند تبرعه بالمال: «إلهى، أنا عبدک، لاأفكر بشىء إلا برضاک، وقد رأيتک ترضى بهذا العمل، فأديته طلباً لرضاک، وطاعة للتكليف والوظيفة، وبداعى التعبد لأمرک، وأنا لاأرجو منک شيئاً، ولاأغترّ بذلک. وظيفتى أن أكون عبداً لک، وأنت يا رب بمقتضى ربوبيتک، تعرف ذلک، أنا عبدک فكن لى ربّا، فإن رأيت صلاح حالى فى دفع الرزايا والبلاء عنى، فاجعله كذلک، أو كان صلاحى فى زيادة ابتلائى بالرزايا والمحن، فليكن ذلک حالى، فأنت أعرف به منّى، أنا خاضع لحكمک وإرادتک، ولاراد لقضائک، ولامعبود سواک، ولاأريد إلا ما أردته أنت لى يا رب، وكان ذلک محبوباً عندک، ومرضيا لديک، فأنت الرب وأنا العبد».

قال الشاعر ما معناه:

أرضى بالشفاء والمرض، والوصل والهجران بما ارتضاه الحبيب لى[1]، وعند ذلک يضحى العمل مشعّاً بحضور الله، خالصاً لوجهه تعالى، كله نور وكمال وسعادة، ويزيد فى قيمة الانسان وطبعاً فإن الله شكور، لايضيع عنده عمل عامل من ذكر وأنثى. قال سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللّهَ لايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»[2]. وعن فاطمة الزهراء(س): «من أصعد إلى الله خالص عبادته، أهبط الله إليه أفضل مصلحته»[3].

---

[1]. «من از درمان و درد و وصل و هجران پسندم آنچه را جانان پسندد».

[2] التوبة: ١٢٠.

[3] عدة الداعى، ص٢٣٣.

وروى فى الحديث القدسى: «أطعنى فى ما أمرتک، ولاتعلّمنى ما يصلحک»[1].

من الواضح أن خلوص النية يرتبط مباشرة بمرتبة معرفة الإنسان، فالقيام بعمل كهذا يتطلب درجة عالية من المعرفة، وبدورها فإن هذه المرتبة من المعرفة يمكن تحصيلها بشكل تدريجى من خلال المواظبة على العمل الصالح.

والى هنا توصّلنا الى هذه النتيجة وهى: أن القيام بالعمل الصالح وحده لايكفى فى إيصال الإنسان إلى مشارف السعادة والكمال، بل ينبغى أن يكون العمل أيضاً خالصاً لوجه الله، وإرادته ومرضاته، وطاعة لأمره. فكلما كان العمل خاليا عن الشرک والرياء، ومنزهاً عن الشوائب، كان أكثر تأثيراً فى حركة الإنسان باتجاه الكمال.

قال تعالى: «فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ولايُشْرِکْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا»[2].

وتشيرهذه الآية المباركة إلى شرطين أساسيين:

«العمل الصالح» و«النزاهة من الشرک».

وقد تكرر هذا المعنى فى سبعين آية من آيات الذكر الحكيم، ويشاهد كل من له أدنى ثقافة قرآنية هذا الارتباط القوىّ بين الإيمان والعمل الصالح فى تلک الآيات. قال تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءامَنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِه»[3].

وقال أيضاً: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً»[4].

وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءامَنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لانُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا»[5].

اقتران الإيمان بالعمل الصالح ينتج «حسن العمل». فكلما كان حضور الإيمان وتواجده فى الإنسان أكثر ظهوراً ووضوحاً فسيكون العمل أكثر حسناً وجمالاً[6].

---

[1]. أمالى الصدوق، ص ٣٢٠، و الخصال، ج ١، ص٤.

[2] الكهف: ١٢٠.

[3] الجاثية: ٣٠.

[4] النحل: ٩٧.

[5] الكهف: ٣٠.

[6]. على المهتمين والمعنيين بالمصالح العامة أن يأخذوا بحسبانهم هذا الأمر، وهو: عليهم أن لايفكروا بالأرباح والفوائد العامة الحاصلة جرّاء العمل، بل عليهم أن ينظّموا السياسات العامة بهدف تنمية الإنسان وتطّويره. «فجمع التبرعات» مثلا وإن كان يحلّ كثيراً من عقد ومشاكل المجتمع ومعاناته، ويحسّن من أوضاعه العامة، إلا أنه بإمكانه أيضاً صقل هذه الدواعى والأغراض من خلال هذا العمل الصالح، وجعلها أكثر نزاهة وخلوصاً.

إن عمل لجنة الامداد فى عرض صورٍ مؤلمة عن حياة الفقراء والمعوزين المستضعفين إلى جانب صناديق الإعانات والصدقات أو احتفالات أعمال البرّ هو نوع تحريک للدواعى الطبيعية والمشاعر، وهو مؤثر فى تشجيع الناس على الإنفاق والقيام بالأعمال الصالحة. ولكن العمل الآخر لهذه المؤسسة الخيرية وهو قيامها بنشر الآيات والروايات المختصة بموضوع الإنفاق فهو بشكل عام يقوّى الدواعى والأغراض الإلهية،

قيمة العمل

مضافا على«الدواعى والأهداف»، فإن «الصلاحية والسمة الذاتية للعمل» و«مقدار العمل» و«قدرة الإنسان فى أدائه» أيضا من العوامل التى يساهم كل منها بدوره فى قيمة العمل وفاعليته. فلايمكن ادعاء تأثير هذه المتغيرات بشكل سواء فى إعطاء النتائج النهائية، إلا أنها على كل حال تشخّص وتحدّد بمجموع هذه العناصر قيمة العمل وأهميته.

(القدرة ÷ المقدار) × الداعى أو الهدف× الصلاحية الذاتية = قيمة عمل الإنسان

والمراد بـ«قيمة العمل» فى هذه المعادلة هو مستوى تأثيرها فى نيل الكمال الذاتى والقرب إلى الله. ففى هذه المحاسبة الرياضية تكون قيمة العمل عكس القدرة، أى كلما ازدادت القدرة وإمكانات فرص العمل، فستكون قيمة العمل أقلّ. يسمى: «مقدار العمل» ÷ «القدرة» بـ«السعى». ويمكن تلخيص المعادلة المذكورة بهذا النحو:

السعى × الدواعى × الصلاحية الذاتية = قيمة العمل.

ومثاله:

شخص يمتلك مليون تومانا، وآخر يمتلك (١٠) آلاف تومانا، فسعة الأول هى أكثر، وقدرته أكبر من الثانى. فلو افترضنا أن كليهما أنفقا من مالهما بالتساوى، فسعى الأول بالنسبة للثانى أقلّ، وبهذا السبب تكون قيمة عمله أقلّ، وكذلك من له قوة ذكاء وفطنة أكثر. ففى النشاط العلمى المتساوى، فإن له فائدة وقيمة أقل، لأن سعيه أقلّ. والصلاحية الذاتية للأعمال مختلفة أيضاً، فقسم من الأعمال الإنسانية غير صالحة، وصلاحيتها تصل إلى الصفر. ولايمكن التقرّب إلى الله بهذه

ويكرس ويدعم الحضور الالهى وتواجده وهذا عمل يستحق التقدير لأنه إضافة إلى معطياته الاجتماعية المستمدة منه، فانه يمهّد ويدعو لإيجاد «التواصى بالحق» لكن الاسلوب الاول لايعد مشروعا دينيا ويفيد استخدامها فى المجتمعات غير الدينية أيضا. راجعوا بدقة آيات الإنفاق، من الآية ٢٦١ – إلى الآية: ٢٨١، فى سورة البقرة. فقد أكدت كلّها على نية العمل، وضرورة أن يرتقى الإنفاق إلى مرتبة الإخلاص لله. قال تعالى: «وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» فقد استخدمت هذه الآية أساليب عديدة لاجتناب الإسراف، والتوصية فى استثمار الأعمال، واغتنام الفرص.

إن الهدف من تشريع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو: تربية البشر وتهذيبهم، وإن لم يغفل فى المراحل القادمة من إصلاح وضع المجتمع بأساليب أخرى. فالاستفادة من الانفعالات النفسية والهيجانات الروحية فى بداية الطريق مفيد جدّا، ويمكن التوصية به فى مجالات عديدة، ولكن ينبغى استبدال المحركات الغريزية فى هذه المسيرة إلى دواعى وأغراض سامية وطموحة. فجذب الاطفال إلى المساجد مثلا يعتمد على عدة أمور ينبغى رعايتها، منها: الحفاظ على جمال المسجد ووقاره، التعامل الحسن لإمام المسجد مع المصلين، عذوبة صوت المؤذن، توزيع الجوائز والهدايا ومنح المكافآة، أو للحفاظ على سلامة المجتمع، ينبغى إيجاد أجواء خاصة ودواعى القلق يشعر معها المرتكب للمنكر بالشعور بالذنب، والخوف والخجل، والاستحياء فى ارتكاب المخالفات والخروقات المخالفة للشرع والقانون، أو للدفاع عن جبهة الحق يلزم تحريك روح الحماس، وإيجاد نوع من الرغبة والهيجان فى نفوس الناس. ولكن ينبغى الإشارة هنا الى أن مثل هذا التحريك إنما يستخدم فى الخطوات الأولى. وينبغى أن يكون التوحيد والصبغة الإلهية فى الخطوات اللاحقة أكثر وضوحاً وظهوراً، ونكتفى هنا بذكر هذا القدر من الكلام، إذ لسنا بصدد الحديث عن «تربية الأخرين» و«إصلاح المجتمع».

الأعمال قطعاً، أو الوصول من خلالها الى الكمال، لأن المحصلة النهائية ستكون صفراً. فلايمكن «العبودية» مع الظلم والاعتداء على الغير، والسرقة، إذ لايمكن للنية الإلهية أن تغير ماهية العمل.

روى أن رجلاً عاصر الامام الصادق(ع) سرق وتصدق بها، وظن أن الله سيثيبه على كل صدقة عشر حسنات، وينقصه سيئة واحدة لسرقته، مستدلاً بقوله تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلايجزى إلا مثلها»، فذكّره الإمام الصادق بهذه الآية، وهى قوله تعالى: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»[1]. فلايحصل رضا الله بالمعصية، لأن العمل هنا يفتقد الى الصلاحية الذاتية، وكما قال الإمام الصادق (ع): إن هذا العمل عار عن التقوى ؛ وإن قصد التقرب إلى الله لاينفع شيئاً.

وبهذه المناسبة، قيل:«إن الغاية لاتبرر الوسيلة»، فلايكون التقرب إلى الله بأىّ وسيلة ممكنة، حتى لو كانت غير مشروعة، بل إن العمل المقبول والمثمر، الذى يصل إلى مستوى نصاب اللياقة، هو الذى يساهم فى إيصال الإنسان الى كماله المطلوب، أو يتخذ له موقعاً فى مسير التكامل.

ولهذا العمل درجات فى التفاضل مختلفة، فالامور الواجبة والتكاليف الإلزامية لها صلاحيات أكثر من عمل المستحبات[2]. وطلب العلم أيضاً أولى وأفضل من العبادات المستحبة.[3] ولاشک فى أن معرفة مراتب الأعمال، ودرجة صلاحها ونوع الترابط القائم بينها، والمناسبات التى تحكمها ضرورية جداً للوصول إلى أعلى مراتب الكمال الإنسانى، واتخاذ هذا الاتجاه هدفا له فى هذه الحركة.

ويتضح من هذا البيان أنّ:

١. بعض الأفعال كالجهاد، الثورة، طلب العلم، الإحسان، العمل، الانتاج، العبادة، التواضع للناس وخدمتهم، إنما لها قيمة وأهمية، وذلک فيما إذا كانت تتجه فى «الصراط المستقيم». و«الصراط المستقيم» هو «العبودية» لله، كما قال تعالى: «وَأَنْ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ»[4].

فهذه وسائل تجعلنا نتحرک فى اتجاه «الصراط»، ويمكن استبدال بعضها بالبعض الآخر، تبعاً للظروف والمستجدات. ولكن هذا لايعنى أن من يعمل عملاً صالحاً من هذه المجموعة، يضحى إنساناً شريفاً ذا مكانة مرموقة وقيمة فى المجتمع، فربما يقوم الإنسان بأعمال صالحة إلى نهاية عمره، إلا انه لم يمض خطوة واحدة فى مسير الإنسانية والصراط المستقيم[5].

---

[1] المائدة: ٢٧. راجع تفاصيل القصة فى وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٦٧.

[2]. قال على(ع): «إذا أضرّت النوافل بالفرائض فارفضوها» نهج البلاغة، الكلمة ٢٧٩.

[3]. قال على(ع): «لاخير فى عبادة ليس فيها تفقه» تحف العقول،ص٢٠٤.

[4]. يس: ٦١.

[5] قال الإمام الخمينى «قدّس سرّه» فى هذا المجال مستدلاً بالآية الكريمة: «اقرأ باسم ربک الذى خلق» ما ملخصه: «العلم ليس مطلوباً فى كل الأحوال، فكم من العلوم هى ضد البشرية، وضد كرامة الإنسان. نعم لو ارتهن العلم والقلم والسلاح لغايات ومقاصد إلهية، لأضحت هذه

نعم، إن هناک من لم يؤد وظائفه وتکاليفه، ويترک الواجبات، فهو محروم عن القيم والمبادئ الإنسانية. فترک الواجب وفعل الحرام مؤشر واضح ويقينى على عدم الکمال، لکن العمل الصالح ليس وحده علامة للکمال دائماً. فالتاريخ يروى لنا قصص وحکايات عن أناس تهجدوا بالأسحار، وحفظوا القرآن، لکنهم حاربوا إمام زمانهم، وسلّوا سيوفهم وأسنّتهم ورماحهم مشرعة بوجهه، ورشقوه بسهامهم البغيضة، فهل لتلک العبادة والتهجد بالأسحار قيمة وثمن؟!.

فهذا مالک الأشتر قائد جيش على(ع) فى معارک الجمل والنهروان وصفين تراه يتوسط الحرب، وبيده سيفه، وقد عرّض نفسه للخطر، وذاک أبو موسى الأشعرى، قائماً فى محرابه، منشغلاً بالصلاة وتلاوة القرآن، وقد غلى وطيس الحرب، واستعرت نيران المعرکة!! فأين هذا من ذاک!!.

ولکن عبادة الأشعرى لاتضفى عليه قيمة، کما أن اشتغال الأشتر بالحرب بدلاً عن العبادة، لايدل على عدم استقامته ورفعته، وعدم علو مقامه!، بل إن ملاک القيمة والاعتبار والشرف هو التقوى والعمل بالتکليف والوظيفة الشرعية، والتى تجسدت فى مالک الاشتر بأعلى درجة، وهذا ما لايمکن العثور عليه فى صلاة أبى موسى الأشعرى. فمن وجهة نظر رواد الحقيقة، جهاد مالک الأشتر هى العبادة الحقيقية والواقعية، وأما صلاة الأشعرى، فلاتعدو أن تکون سراباً خالياً عن کل حقيقة، وکونها عبادة ظاهرية تصنّعية.

وعلى کل حال، عدم الصلاة وإن عدت مؤشراً على السقوط والانحراف والانحطاط – لأنها تمثل خروجاً عن زىّ الطاعة والعبودية لله– ولکنها فى نفس الوقت ليست علامة على الکمال والسمو دائماً وفى کل الحالات، لأن عبودية الله لاتتحقق دوماً بالصلاة، بل إن هناک أعمالا صالحة أخرى ذات قيمة وأهمية بالغة، کالإحسان وطلب العلم وغيرها، تضاعف من قيمة الإنسان وأهميته، فيما إذا قرنت إلى «العبودية» لله تعالى وحده.

وينبغى القول بعد إمعان النظر: إن «عبودية الله» وحدها هى التى تسمو بالإنسان، وتسير به نحو آفاق الکمال والرقى، وتمنحه القيمة والأهمية القصوى، وترفع درجات الإنسان.

فإذا تجلت روح العبودية والطاعة فى مثل هذه الأعمال الصالحة والحميدة، فستکون أعمالاً حيّة لها قيمتها ومعناها.

إن من يقوم بوظائفه وتکاليفه، ويسلّم تسليماً مطلقاً لله فى طلب العلم مثلاً أو العبادة، ففى الحقيقة هو فى تکامل، لأنه يعمل بوظيفته وتکليفه، فهو إنسان کامل، لا لأنه نال قسطاً من العلم أو اشتغل بالعبادة!

الأمور ذات قيمة أيضاً، فقيمة القلم:هى الغاية التى يکتب لأجلها، إذ العمدة: هى الجهة التى يتجه نحوها. وقد ذکر القرآن الکريم ذلک، قال تعالى: «اقرأ باسم ربک الذى خلق»؛ «اقرأ» ولکن لا مطلق القراءة، و«تعلّم» ولکن لا مطلق التعلم، واطلب «العلم» ولکن لا مطلق العلم، ومطلق «الطلب»، بل العلم الذى له غاية، والتعلم الذى له غاية، و«الغاية» هى اسم الرب، والتوجه إلى الله ولله، فقيمة کل شىء هوما يقوم به الإنسان من عمل لله. فلو صلى الإنسان، فقيمتها تتعلق بالنية التى يدخل بها المصلى إلى الصلاة، فکم من الناس توردهم صلاتهم فى قعر جهنم، وذلک عندما تکون الصلوة رياءاً للناس».. صحيفة النور، ج ١٣،ص٢٢٩.

٢. الثروة والجمال وقوة الجسم والبدن وأمثالها، فكل هذه الأمور هى زينة ظاهرية للإنسان وليست من مصاديق كمال الذات، فحقيقة وجود الإنسان لاتتحدد بقواه الجسمية والبدنية، وكمال الجسم أو جمال البيئة والمحيط لا علاقة لها بكمال حقيقة وذات الإنسان.

٣. العمل القليل والصغير الذى يحقق كمالاً إنسانياً، ويسوق الإنسان لأداء دوره الطبيعى وممارسة وظائفه الحقيقية هو أفضل بكثير من العمل الكبير والإنجاز الضخم الذى ينطلق من أغراض ومطامع شخصية ودواعى نفسانية، ويكون أكثر عطاء وفائدة للإنسان نفسه، وإن لم يستفد منه الآخرون، ولم تعم فائدته الجميع، بل هى منحصرة ومحددة فى شخصه، ومثال ذلک : الأم التى تترک وظائف الأمومة وتربية أولادها بحجة قيامها بخدمات اجتماعية للآخرين، فهى بذلک تكون قد ابتعدت كثيراً عن دائرة الفضيلة والشرف والكرامة.

إن هذه المواقف والخدمات التى تقوم بها، وإن نالت استحسان الآخرين، باعتبار أن هذه المرأة قامت بدور هام وخدمات جليلة الى المجتمع وتطويره، إلا أن الوظيفة الإلهية للإنسان، هى الأهم دوماً من أىّ عمل آخر، فمن ترک هذا العمل الأهم بأىّ عذر من الأعذار، فقد خرج عن مسير «العبودية».

وهنا لابدّ من التذكير بإن هذا العمل الصالح الأهم ينبغى أن ينمو فى أحضان النية الإلهية ويقترن بها، ليترک انطباعاً وأثراً حسناً فى روح الفاعل ووجدانه.

٤. الإنسان مسئول بالدرجة الأولى عن إسعاد نفسه قبل أن يكون مسئولاً عن سعادة وكمال الآخرين. فغير مقبول من أحد أن يضحّى بسعادته وإنسانيته لكمال الآخرين وسعادتهم.

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»[١] وقال سبحانه أيضاً: «قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا»[٢].

إن إغاثة الآخرين ومساعدتهم للوصول الى الرفعة والكمال المعنوى والإنسانى تعدّ وظيفة إلهية وإنسانية فى نفس الوقت، إلا أنها تأتى بالدرجة الثانية بعد بذل الاهتمام التام الى كمال النفس، ولاشک فى أن العمل بهذه الوظيفة هو فى حدّ ذاته طاعة لأوامر الله وعبوديته، فإن قصد به القربة، فهو عمل ناجح، ومحقق للسعادة الأبدية.

قال رسول الله(ص) فى وصيته لأمير المؤمنين(ع): «و أيم الله، لئن يهدى الله على يديک رجلاً خير لک مما طلعت عليه الشمس وغربت»[٣].

---

[١]. المائدة: ص ١٠٥.

[٢]. التحريم: ٦.

[٣] الكافى: ج ٥، ص ٢٨.

أما إذا تعارض القيام بالخدمات الاجتماعية وإيصال المنفعة للآخرين مع الحركة فى مسير «العبودية»، بحيث لايمكن الجمع بينهما، وليس هناك قرينة وإشارة على أحدهما، فإن وظيفتنا فى هذه المرحلة تقضى التوجه والاهتمام بأنفسنا، والحركة فى الصراط المستقيم وهى «العبودية»، وإن أدى ذلک إلى حرمان الآخرين.

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) موبخاً بعض أصحابه: «و إنى لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم، ولكنى لاأرى إصلاحكم بإفساد نفسى»[1].

المعرفة والعبودية

ترتبط صفة العبودية بشكل وثيق ومباشر بكيفية نية الأفعال والقصد ومستوى التوجه إلى الله، فهذه النية الإلهية هى التى تميز السجود والركوع عن الحركات الرياضية، وإن الركوع فى ظاهره وإن بدا أشبه ما يكون بحركة رياضية، إلا أن التوجه لله وقصد الطاعة والخضوع والذلة والاستكانة له سبحانه وتعالى، يعطى لهذا العامل هوية جديدة، فيضاعف فى قيمته وأهميته، ويرفع من درجاته عالياً.

ومن جهة أخرى، فإن الإخلاص فى النية وهو أهم عنصر فى إيجاد صفة العبودية، وأفضل منهج فى تقييم العمل، يتناسب تناسباً طردياً مباشراً مع المعرفة. فكلما ازدادت درجة معرفة الإنسان ووعيه، فسيكون أكثر نزاهة وطموحاً فى تحقيق أهدافه ومقاصده.

المعرفة – النية الإلهية – العبودية.

والمراد بالمعرفة: الوعى والادراک الذى يظهر بشكل تصديق، ويقين قلبى، نافذ إلى أعماق روح الإنسان فعلاً. فكلنا يعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أحاط بنا جميعا، وهو عالم بسرنا ونجوانا، وأقوالنا وأفعالنا، ونياتنا وجهرنا، «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور».

كما نعلم أن طاعة أوامره فى الدنيا والآخرة مفيد بحالنا، وسوف لن يترنا أعمالنا، بل يكافئنا ويثيبنا عليها، لكننا فى نفس الوقت لانلتفت الى هذه الأمور التى نختزلها فى وعينا، فنعمل على خلاف مقتضاها. والسلوک يكشف عن أن ما اختزلناه من وعى ومعرفة، لم ينفذ الى أعماق وجداننا، ونحن فى سلوكنا هذا أشبه ما نكون بمن حكم جازماً بعجز الإنسان الميت عن فعل أى شىء، لكنه غير مستعد للبقاء عند جثمان هذا الميت ولو لساعة حتى لو كان الميت من أعز أصدقائه، أى أن علمه بعدم خطورة الميت وعجزه، لم يتبلور بصورة يقين وتصديق قلبى واعتقاد وجدانى.

ومن هنا نقول: إن الإنسان كلما ازدادت معرفته بربه، كان أكثر قدرة على الانقياد والطاعة له سبحانه وتعالى، ويضحى مفهوم العبودية أوفر دلالة وأكثر ثراء، وبالتالى ستكتمل الدواعى والمحفزات على العمل لدى ذاک الإنسان، كما أن حظه من الثواب سيكون أوفر وأنمى، وبما أن العبودية والتسليم يشكلان الهدف النهائى والمقصد الأخير فى حركة الإنسان، فإن

[1]. نهج البلاغة، الخطبة ۶۹.

زيادة المعرفة بالله تعالى يعدّ المنهج الأهم لتحصيل «العبودية»، ولذا نجد أن الأنبياء والأولياء والعلماء الأبرار والعرفاء على مرّ التاريخ، يحثّون الإنسان على كسب المزيد من المعرفة الالهية والاجتهاد فى تحصيلها، والانفتاح على رب العالمين، والأنس به أكثر وأكثر [1].

إن أهم جهد يبذله قادة البشرية هو إيجاد الارتباط والموازنة بين ظواهر الأعمال وبواطنها وهذا الارتباط والتلاقح المبارک والممدوح بين الإيمان والعمل الصالح (المعرفة والعمل الصالح، النية الإلهية والعمل الصالح) هو العامل الرئيسى والوحيد للتحرر من الخسران، وضياع وهدر الطاقات البشرية والاستثمارات الإنسانية [1].

---

[1]. من هنا بالذات نجد أن القرآن الكريم حرص كثيراً على التعريف بالله والتذكير بصفاته، بدرجة أنک لاتجد فى القرآن صفحة تخلو عن اسمه أو بيان صفة من صفاته، أو فعل من أفعاله، كما أن الروايات والخطب الواردة عن أئمة أهل البيت (ع) هى الأخرى تكشف عن أن الأئمة عليهم السلام فى جميع ما أثر عنهم، بدأوا بالحمد والثناء لله والتعريف بأسمائه وصفاته. وتصل هذه الظاهرة فى بعضها الى أوجها، كما فى دعاء الجوشن الكبير، حيث اختص بالتعريف بالله وبأسمائه وصفاته الحسنى من أوله الى آخره

ويعتقد أهل المعرفة أن «التوحيد» و«معرفة الله» هى عصارة التعاليم الدينية والمناهج السماوية، وهى مستوحاة من تفصيل أصول الدين ومبادئه وأحكامه. فكل من رأى الله غنيا بالعلم واللطف والقدرة والحكمة، فقد اعتقد بالنبوة والمعاد أيضاً. إن عرض كافة الفضائل الأخلاقية فى الكتاب والسنة هوناتج ووليد مباشر أو غير مباشر عن معرفة الله. فكل من يؤمن بقدرة الله الواسعة، ولايرى إلها وحاكماً وربّاً غيره فى الكون، فقد وصلت هذه المعارف فى وجوده إلى مرحلة التصديق واليقين، وهو مدرج فى عداد «المتوكلين» بلا عناء. ومن اعتقد بلطف الله ور حمته ومحبته، وعلم من أعماق وجوده أن كل فعل يصدر منه سبحانه فهو عن حكمة ومصلحة، فسيصمد فى وجهته أمام التحديات والابتلاءات، و«يرضى» و«يشكر» الله على كل حال، بل «يطلب» منه ذلک. إن من اعتقد أن الله رؤوف بعباده ورازق لهم، واعتمد على سعته، فلا«يبخل» أو «يحرص» على زخارف الدنيا الدنيئة. وإن من شاهد قدرة الله الواسعة بدافع المعرفة، فلا«خوف» أو«وجل» أو «استحياء» يمتعضه فى القيام بوظائفه الشرعية وتكاليفه. قال على(ع): «إن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله» (نهج البلاغة، الرسالة ٥٣). إن قلع الشجرة المذمومة وصفاتها غير النزيهة عن صفائح القلب الناصعة يستلزم قبل كل شيء قلع جذورها، ثم هدم الشجرة بالمعاول والفؤوس. إن اتساع وتعميق «المعرفة بالله» سيحطم ويقضى على كل الرذائل الخلقية فى وجود الإنسان. فقد روى عنه(ع): «أن حب الدنيا رأس كل خطيئة»، فهى تجلب له كل المتابع والمصاعب والمعاناة والويلات. وهذه الرذائل فى الحقيقة وليدة عدم المعرفة بكمال الله. و«اليأس والقنوط» هما من محاصيل «الغفلة» عن الرأفة الالهية والعطف والقدرة الربانية. و«الذنب والمعصية» هما من محاصيل الجهل بمقام الخالق وعظمته ورفعته وسموه. إن من يرى الله موجوداً فى كل الأحوال وبكل اتجاه، فكيف يعصى الله فى حضوره؟ ونقول بإيجاز: كل الصفات الإنسانية والقيم والمبادئ المعنوية كالإخلاص والصبر والتقوى والثقة والصداقة والتواضع والزهد والأمل والطمأنينة... إنما تنبع من التوحيد والمعرفة بالله. وفى مقابل هذه الصفات: الغفلة والرياء والنفاق والحيلة والطمع والخوف والبخل والحرص والكبر والاضطراب والعجب والغرور والحيرة واليأس والخوف والجزع... إنما تمتد جذورها من الشرک. إن ارتباط التوحيد بالمفاهيم الأخلاقية فى أول نظرة هو فى الحقيقة ارتباط الأصول بالفروع، والأم بأولادها، إلا أن واقع المناسبات هو من نوع ارتباط الروح بالجسم. أى أن التوحيد موجود فى كل التعاليم الدينية، وأن الصفات الحميدة الاخلاقية هى المصداق الحقيقى للتوحيد وليس وليدها. راجع التفاصيل فى: الميزان ٣٥٤/١ – ٣٧٥ ذيل سورة البقرة: الآية ١٥٥.

العمل الصالح بلا صبغة إلهية، بعيدا عن التوجه والمعرفة، هو فى الحقيقة جسد بلا روح، لايرجى منه حركة وصدور أثر. والنية المرقومة بلا عمل، هى جذور بلا أغصان ولاثمار. فلو بقيت مدة أطول مغطاة بالتراب، فستنهشها الديدان، وتفترسها الحشرات فى الأرض.

لقد أكد العرفاء فى كلماتهم على ضرورة إثراء العمل بالمعانى والقيم العالية والمحتوى السامى، وامتلاك القلب السليم. فالمعرفة الواسعة والدواعى والأغراض الإلهية لايمكن تفسيرها بعدم الاهتمام والتوجه بقوالب العمل وظواهره. فالعرفاء الحقيقيون هم أكثر البشر تقيداً بالأوامر الشرعية والإلهية، والأكثر تعبّداً بالأحكام والآداب الربانية. ومن جهة أخرى، لم تكن وصايا الفقهاء بالمحافظة على ظواهر الأحكام الشرعية بمعنى الغفلة عن القيم والمعانى العالية والمحتوى السامى الشامل للعبادة.

روى عن الإمام الصادق(ع) إنه قال: «لا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة، ولامعرفة إلا بعمل. فمن عرف، دلّته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل، فلامعرفة له»[٢].

على قمة الكمال

من المناسب فى هذه المرحلة من البحث أن نتعرف على حالات العباد الربانيين الحقيقيين، ممّن خطوا بجدّ واهتمام فى مسير الطاعة والولاية، واقتربوا من الله دنواً واقتراباً. لكننا نريد أن نعرف:

أين يصل الإنسان بعد مسيرة شاقة من المجاهدات الطويلة والنشطة؟!.

وأىّ منحة وهبها الله الغفور الرحيم لهذا الإنسان كمكافأة على «عبوديته»؟!.

فالعبد المطيع للّه لايطمع فى شىء من الله، ولايرجو ولايأمل إلا فضله تجاه عمله اليسير!.

إلا أن الرب الشاكر الرحيم لايترك جهداً وسعياً دون مكافأة وإثابة، بل سيثيبه ويكافئه على عمله بفضله وكرمه اللامحدود، أفضل مكافأة وأحسن أجرا[٣]، بل أضعافاً مضاعفة[٤]، ربما تصل مكافأته عشرة أضعاف عمله[٥]، أو (٧٠٠) مرة ضعف عمله، أو لا نهاية لعدده[٦]. فإن أدّى العبد وظائفه وتكاليفه، وقام بها خير قيام، فسيخصه الله بعطفه وحنانه، ولطفه

---

[١] قال تعالى:«إِنَّ الانسَانَ لَفِى خُسْرٍ * الا الَّذِينَ ءامَنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ».

[٢] الكافى: ج ١، ص٢٤.

[٣] قال تعالى: «مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا» (القصص: ٨٤)، وقال أيضاً: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» (يونس: ٢٦)، وقال سبحانه: «يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ» (الحديد: ١٨)، وقال عز وجل: «فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً» (البقرة: ٢٤٥).

[٤] قال تعالى: «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» (القصص: ٥٤).

[٥] قال تعالى: «مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» (الأنعام: ١٦٠).

[٦] قال تعالى: «مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (البقرة: ٢٦١). وقال تعالى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» (الزمر:١٠).

وكرمه، ويرفق به ويحسن إليه. فإن لم يخط الإنسان بنفسه فى هذا الطريق، ويجتاز فيه المسالک الوعرة والملتوية الشائكة، فسيكون عاجزاً عن فهم مقام الذين سلكوا الطريق ووصلوا إلى المقصد. إلّا أن هناک نصوص وأخبار بيّنت وصول بعض العباد المصطفين الأخيار إلى أعلى قمم العبودية والتسليم، واصفة أيضاً فضل الله ولطفه وجوده فى مكافأة عباده المخلصين الاخيار وإثابتهم على عبوديتهم وطاعتهم له، والرعاية الخاصة والمركزة والاهتمام بشؤونه، الذى لايقدّر أو يتناسب إلا مع كرمه ورحمته الواسعة الأزلية...

وإليک بعض تلک النصوص والأخبار الواردة عن قادة الدين، والأئمة المعصومين (ع):

١. قال(ع): «إن الله جلّ جلاله قال: «ما يتقرّب إلىّ عبد من عبادى بشىء أحبّ الىّ مما افترضت عليه. وإنه ليتقرّب إلىّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، إن دعانى أجبته، وإن سألنى أعطيته»[١]

٢. وقال(ع): «إن الله جلّ جلاله قال: يا ابن آدم، أنا غنىّ لاأفتقر فى ما أمرتک، أجعلک غنيّاً لاتفتقر. يا ابن آدم، أنا حىّ لاأموت، أطعنى فى ما أمرتک، أجعلک حيّا لاتموت. يا ابن آدم، أنا أقول للشىء كن فيكون، أطعنى فى ما أمرتک، أجعلک تقول للشىء كن فيكون»[٢].

٣. وقال الله عز وجلّ: «عبدى أطعنى، حتى أجعلک مثلى، أنا أقول للشىء كن فيكون، أجعلک تقول للشىء كن فيكون»[٣].

٤. روى عن رسول الله(ص) أنه قال: «من أخلص لله أربعين يوماً، فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٤].

ويقترب العبد فى كل هذه الخصائل والصفات الحميدة إلى الله عز وجل، فيكون علمه علم الله، وقدرته قدرة الله، وإرادته إرادة الله، وكلّ خصائصه وصفاته تصبح خصائص وصفات إلهية، ولكن مع هذا الفارق وهو: أن صفات الله وخصائصه ذاتية ومستقلة بنفسها، أما العبد فخصائصه بالتبع وبلطف من الله. فوجوده وصفاته وكماله هى كلها من الله. وهذا هو الاحتياج والتبعية والفقر إلى الله الغنى الحميد، فالاغنى والأكمل هو الله، يمنح كماله وغناه لمن يشاء من عباده بلطفه ورعايته.

قال(ع): «لا فرق بينک وبينها، إلّا أنهم عبادک وخلقک، رتقها وفتقها بيدک، بدؤها منک، وعودها إليک»[٥].

---

[١]. الكافى، ج ٢،ص٢٥٣.

[٢] عدة الداعى، ص٣١٠.

[٣] علم اليقين، ج ٢،ص٦١٠.

[٤] عدة الداعى، ص٢٣٢.

[٥] إقبال الأعمال، ص ۶۴۶، مفاتيح الجنان، دعاء فى كل يوم من شهر رجب، عن ولى العصر الإمام المهدى (عج).

فالإنسان الذى يرتقى قمم التوحيد فهو خليفة الله، ويليق به أن يكون خليفة عن الله، لأنه صار مثله، وإن له منزلة عظيمة يغبطها عليها الملائكة الكروبيون، فإنهم يعجزون عن دركها وفهمها وتصورها، وهم عاجزون أيضاً عن الوصول إليها.

قال تعالى: «إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»[1].

وقال(ص): «لو دنوت أنملة لاحترقت».

ويصبح هذا الإنسان فى مثل هذه الحالات إلهياً!، فأينما نظر، يرى فيها شهوداً وحضوراً وتجسيدا حقيقياً وعينياً لله تعالى، فيعتقد أن وجود كل شيء هو من الله، وينسب صفات الكمال، والجمال، والقدرة، والعظمة، والسعة... لله عزوجل. ويرى يد الله وقدرته فى أحداث الزمان وتقلب الحدثان، ما وقع منها وما يقع. فلايرى حادثة أو ظاهرة فى الكون إلا ويرى تدلّى إليد الإلهية والربانية فيها. فهو المدبر لعالم الوجود، ولايرى أى حادث فى الكون صدفة واتفاقا، دون أن تكون هناك إرادة ومشيئة إلهية، ومحاسبة كونية، ولهذا فهو هادئ البال ومرتاح الضمير دائماً، لايعقد آماله وأمانيه على أحد سواه،و يرى محبة غيره، ولايخشى أحداً دونه، ولاأمنية له إلا منه سبحانه، ولايرجو خيراً من أحد عداه، ولايطمع بقدرة أحد سواه، فكلما حصل عليه فهو بمشيئته وقدرته سبحانه، لا باستعداد العبد وقوته وسعيه، ولابمعونة ومساعدة من الآخرين، فلايقنط ولاييأس أبداً، لانه عقد آماله دوماً على القدرة الأزلية الإلهية. وهو مجذوب وخائف من الواحد الأحد، والفرد الصمد، الذى لم يكن له كفؤاً أحد. وكل ما يطلبه ويتمناه، إنما يطلبه ويتمناه من الله، وكل ما يقوم به من عمل، فلايقصد منه الا وجهه ورضاه، ملأت عظمة الله ذهنه وأحاسيسه، وكلّ مشاعره وعواطفه، وليس هناك مكاناً فى قلبه لحب غيره أو تصوره فى ذهنه. يرى العالم بأسره جميل، فيعشق الكائنات فيه، لأنه عرف مدى علاقتها وارتباطها بخالقها ومحبوبه، ويبدأ يتألم ويواسى البشرية فيما تمرّ به من معاناة وحرمان، بسبب العلقة العاطفية والملتقى المعنوى معها. لقد بعث الله أنبياءه ورسله وأولياءه لهداية البشر، وليكون الإنسان محلاً للإشعاع ونشر الأنوار، وليفنى فى الله، ويصل إلى لقاء الله وجواره.

مقصد النمو

للإنسان بعدان؛

١- البعد الفردى.

٢- البعد الاجتماعى.

---

[1] البقرة: ٣٠.

للإنسان هوية ومحورية فردية، وأخرى اجتماعية[1]، أى أن له شخصية فردية حقيقية، وأخرى اجتماعية صنفية، فكما أنه مكلّف بمعرفة نفسه، ومعرفة حالاتها وتربيتها فردياً، فهو مكلّف أيضاً بمعرفة نفسه، ومعرفة حالاتها وتربيتها إجتماعيا وسلوكياً.

وباعتباره إنسانا، فإن عليه أن يتعرف ويطلع على: الملاكات والقابليات والاستعدادات والمناطات والممتلكات والفرص المتاحة والمطالبات والمستلزمات والوظائف والمسئوليات والنقائص وغيرها.

وباعتباره أحد أفراد المجتمع، فإن عليه أن يرتفع ويسمو بمستواه إلى قمّة الطموح، ويرتقى بقيمته فى الحياة الاجتماعية إلى أعلى مراتب الكمال والنضوج.

الإنسان بمقتضى إنسانيته – بكونه فرداً بعد الفراغ من اعتباره عضواً فى المجتمع البشرى – مكلّف بالوصول إلى الأهداف السامية والقيم والمبادئ الراقية، وعليه أن يختار مسيراً محدّداً وسلوكاً معيناً ليمضى باتجاهه، بلا فرق بين الرجل أو المرأة، الشاب أو الهرم، المتحضر أو البدوى، العامل أو الكاسب، والموظف أو المعلم... فكلهم مشتركون فى هذه الوظائف والمسئوليات، وهذا النوع من الإنسانية والهدف الراقى فى الحياة هو «الحياة الطيبة»،و سنتطرق لهذا الموضوع بالتفصيل.

والوصول إلى نقطة البداية يتعين من خلال تأمين معرفة قيمة الإنسان، والمحافظة على اعتباره ومكانته فى الحياة الفردية. فلو ابتعد الإنسان عن طابع المدنية والتحضر، وعاش فى جزيرة لوحده مثلاً، فإن إنسانيته تقتضى تهذيب نفسه، واصلاح ذاته للوصول إلى الحياة الطيبة والكريمة، والكمالات الاخلاقية.

وعلى الإنسان مسؤولية «الحضور والتواجد الاجتماعى» أيضاً. فبمقتضى طبعه الاجتماعى، واعتباره فرداً وعضواً فى المجتمع، فإن عليه مسؤولية العيش بسلام وأمن، وربط الكمال المطلوب للإنسان أيضاً بهذه الحياة الاجتماعية، حيث يمكن العثور على ذلک فى الميدان الاجتماعى.

ويرتبط هذا الإنسان حينئذ بالمجتمع، ليصبح عضواً يشكّل جزءاً وأساساً من كيان المجتمع، ويعرّف تعريفاً واضحاً وجديداً، ويحمل على عاتقه مسؤوليات ووظائف جديدة. وليس هذا بحكم الإنسانية فحسب، بل بمقتضى حضوره وتواجده الاجتماعى كما سبق، وعليه المحافظة مثلاً على حقوق الآخرين ورعاية شؤونهم، والتصدى لحلّ معاناتهم ومشاكلهم، وقضاء حوائجهم.

ويلزم هنا بيان قيمة الإنسان فى البعدين: الفردى والاجتماعى.

---

[1]. هوية كل فرد أو شيء هى أوصافه الخاصة وسماته التى يتصف بها، ولاتشاهد فى آخرين أو أشياء أخرى، لتكون هى وجه الميزة والفارق بين هذا الشيء والاشياء الاخرى، وسبب تمايزه منها.

مقصد نمو الإنسان وقيمته فى الحياة الفردية

خلق صانع الكون الصمد الأحد هذا الإنسان، ليكون مظهرا للكمال، وأودع فى فطرته غريزة العشق إلى الكمال، وعرض كماله الأخير فى نماذج قد اختارها واصطفاها بنفسه للبشرية، ليهلب قلوبها مشاعر الشوق إليها. فقد وصل الأنبياء والأولياء أعلى مراتب الكمال واليقين، وعند عودتهم من هذا السفر المعنوى والإنسانى، جاءوا بحقائق ورسالات إلهية قيّمة الى البشرية، لإنقاذها وتحريرها من الحيرة والضياع والخسران. فتحدث هؤلاء الأنبياء والرسل عن حياة أخرى هى الأفضل، ودعوا الناس الى «الحياة» و«القرب». فقالوا: إن بامكان الإنسان أن يرتقى إلى أعلى من رتبة الملائكة، ويقترب من الله الواحد الأحد. وهذا العلو والقرب ليس توصيفاً للوضع المكانى أو بأى حالة يكون فيه الجسم. وسنوضح فى هذا الفصل مفهوم «القرب» و«الحياة الطيبة» الإنسانية.

القرب إلى الله

«القرب إلى الله» فى النصوص الدينية والمصطلح القرآنى والروائى هو المقصد الأخير فى حركة الإنسان. فأفضل وضع يكون فيه الإنسان، هو ما إذا كان مقترباً من الله، ويستمر هذا الاقتراب ويزداد دنواً من العلىّ الأعلى إلى درجة أن هذا الإنسان يصبح «خليفة» الله و«مثله»، فيفعل كل ما يقدر الله عليه، ويكون كما أراد الله أن يكون.

وعلينا فى هذه المرحلة أن نستوعب تماماً مفهوم «التقرب» لأنه هام جداً، وسيضاعف من فهمنا ومعرفتنا لأنفسنا، والاطلاع على دور الإنسان وأهميته فى المنظومة الكونية والعالمية، ويبعث فينا دوافع الاستمرار فى هذه الحركة[1]، فإذا لم

---

[1] هناك مراتب مختلفة لمعرفتنا لسائر الأشياء، فنحن ومن خلال آليات الادراك المختلفة، بإمكاننا أن نتعرف على الظواهر الموجودة فى مراتب ومستويات مختلفة. فمن سمع وصف النار مثلاً، فهو فى المرحلة الاولى يتعرف على مفهوم «النار» إذا رآها، ويدرک «النار» ويعرفها على حقيقتها فى المرحلة الثانية. فان ألقى فى النار واحترق فسيحصل له وعى اكثر لحقيقتها من وصفها له. وكذا الإنسان الأعمى، فهو لايدرک مفهوم الألوان، وكذا الطفل الحدث، فانه غير قادر على استيعاب مفهوم «الغريزة الجنسية». وإن أردنا تقريب المعنى لذهنه وتفهيمه، فصورناها له بأنها عبارة عن قوة (جذب) أو (سحب) بين الرجل والمرأة مثلاً، فهو يصورها كبتارية أو «المغناطيس»، وإن أردنا وصفه بالحلاوة، فسيشبّهه بالعسل او الحلويات مثلا، ويبقى تصور هذا الطفل الحدث ناقصا غير مكتمل حتى يصل مرحلة البلوغ. ونحن فى هذا المثال كهذا الطفل فى تصورنا البدائى لبعض المعارف والمفاهيم، غير قادرين على استيعابها وفهمها بدقة ووضوح. وليس لدينا آليات يمكننا استخدامها لفهم تلک الحقائق والمفاهيم. فاذا دار الكلام حول الملائكة المقربين إلى الله، فسرعان ما يتبادر إلى أذهاننا: أنها موجودات وكائنات لطيفة وخفيفة وشفافة، لها وجه جميل، وحسنة المحيّا والملامح، لها أجنحة بيضاء مثنى وثلاث ورباع، تهبط بها إلى الأرض كما يهبط الطير من تحليقه فى السماء، وهى تحمل الوحى الإلهى من السماء لتلقيه بأمانة إلى النبى(ص) وسائر الأنبياء. لكن انسنا بالكائنات المادية مع وجود المساحات الشاسعة والفوارق الكبيرة بيننا وتلک الحقائق الميتافيزيقية وما وراء العالم المادى وابتعادنا عنها، أعاد كل هذه الأمور إلى تجاربنا فى عالمنا المادى، فليس فى تصورنا الا المادة، كما يتصورذلک الأعمى اللون البنفسجى. فاذا كان العلم بأسرار العالم وفهم مفاهيم العالم المجرد ضروريا، فعلى الإنسان أن ينمّى من قوى إدراكه وتصوره، ويوسّع آليات الادراک للوصول إلى معرفة هذه الحقائق، ثم ننتقل من خلال النمو الوجودى

يعتبر الإنسان نفسه ذرة منسية مغفولة فی زاوية من هذا العالم الكبير، وعرف قابلياته واستعداده، فلايسمح أبداً لأن يصرف وجوده الغالی فی أمور تافهة هی أقل من اعتباره وقيمته، فليس للقرب الإلهی معنی مادیّ قطعاً، أی لايعنی تقليل المسافة، مكاناً أو زمانا، بيننا وبين الله عزوجل، وذلک بسبب:

أولاً: أن حقيقة وجود الإنسان هو ليس ذلک الجسد المادی والجسم الترابی. فعلی هـذا، فـإن اقتـراب هـذا الجسـد الترابی إلی شیء هو ليس بمعنی اقتراب الإنسان.

وثانياً: ليس لله تعالی وجود زمانی أو مكانی يسبقه أو يتلوه أو يحلّ معه، ليقيم معه الارتباط، فنسبة الله سبحانه إلـی كافة المخلوقات والكائنات المادية فی كل زمان ومكان هی نسبة متساوية.

ومن هنا: لايمكن افتراض قرب وبعد لله عزوجل. وكذلک القرب إلـی الله تعـالی، لـيس بمعنـی القـرب الاعتبـاری والجعلی أو التشريفی، فأقرباء الحاكم مثلاً هم أقرب الناس اليه من غيرهم، فهو يهتم بهم ويرعی شؤونهم، وإن ابتعدوا عنه فی الحيّز المكانی، فهذا القرب هو عقد واتفاق اعتباری قابل للاستبدال والتغيير، وهو يشبه مجیء شخص واستبداله مكان آخر، وزيراً كان أو وكيلا.

إن القرب إلی الله هی حقيقة وجودية. والله سبحانه كمال مطلق، فالقرب من الكمال المطلق معناه التكامل.

فلو قلنا: إن الطالب الجامعی النشط أقرب إلی الاستاذ من التلميذ فی الصف الثانی الابتدائی، فلانقصد بهـا الفواصـل الزمانية والمكانية أو الاعتبارية الجعلية أبداً، بل نقصد أن الفواصل بالاعتبار العلمی والكمالات الوجودية بين هذا الطالـب الجامعی وأستاذه هی فواصل أقلّ، فإذا تقرر أن يفوّض عمله لشخص آخر، ويجد لنفسه من يمثّله، أو يستخلف عنه، فـإن فعالية ونشاط هذا الطالب الجامعی هو أكثر بكثير من ذلک التلميذ الصغيرفی المرحلة الابتدائية. أما خصـائص وكفـاءات الأستاذ، فإنها تشاهد بوضوح أكثر فی ملامح هذا الطالب الجامعی من ذلک التلميذ الصغير فی المرحلة الابتدائية. فالاستاذ والطالب الجامعی متماثلان من هذه الجهة، وبينهما تشابهاً كثيراً فی جهات عديدة، والتقرب إلی الله هو كذلک أيضاً.

إن كافة المخلوقات والكائنات من جهة أنها موجودة هی قريبة من الله عز وجل، قال تعالی: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ»[1]. اما لو أخذت الخصائص وكمالات الوجود فيها بنظر الاعتبار، فإن فواصلها مختلفة ومتفاوته مـع الله.

فی الذهن والفهم والادراک من مرحلة الحسّ إلی مرحلة التعقل، ومن مرحلة التعقل إلی مرحلة الشهود. ولكن لايمكن أن نتوقـع فهـم أسـرار العالم والارتباط بين مكوناته بهذا الحسّ والتجربة قطعاً، كما أنه لايمكن فهم حقيقة الألوان باللامسة من الجوارح.

ومن هذه الحقائق المجردة غير المادية: العرش، الكرسی، اللوح، القلم، الروح، القيامة، القدر، البداء، الوحی، ليلة القدر، نزول القـرآن، المعـراج، الهبوط، الاسم الاعظم، الحوض، الكوثر، عالم الذر، الجنة، النار، الصراط، الميزان.... والتقرب إلی الله هو من هذه المقولة أيضـاً. لـذا علينـا أن نكون حذرين من أن لانفسر هذه المعانی تفسيراً سطحياً محدوداً، فنحملها علی معانی أقل اعتباراً منها، وجملتهـا إرادة معرفـة «التقـرب إلـی الله». بل نسعی إلی تنزيهها وتفريغها عن المحتوی والإطار المادی إن أمكن ذلک، لنصل إلی الحقيقة.

[1] الواقعه: ۸۵.

فالجمادات فی قربها من الله هی أبعد من الحیوانات، لأن الحیوان یمتلک فهماً وحرکة، أما الجماد فإنه یفتقد کلا الخاصیتین. وکذلک الحیوانات فی قربها من الله، هی أبعد من الملائکة، لأن فهم وقدرة الملائکة لایمکن مقارنتها بالحیوانات. ویکون خلق البشر فی هذه الأثناء علی أنهم یمکنهم أن یتحرکوا ویتجهوا إلی الله، مع کمالات أکثر، فیزیدوا من تشابههم مع الله، ویقلّلوا من مسافة ابتعادهم عنه سبحانه، فیکون الإنسان فی قربه منه خلیفة له عز وجل. فکلّما تکامل الإنسان، ووسّع من دائرة وجوده، کان أقرب من ذلک الوجود الکامل واللامتناهی بنسبة تصل إلی ۹۰٪ ، ونفخة الروح الإلهیة فی وجود الإنسان[۱] وصبغة الله[۲] التی أشار إلیها القرآن الکریم، یفید هذا المعنی. وحیث أن الإنسان لایملک لنفسه شیئاً من حطام الدنیا ، وکلّ ما هو موجود فی الوجود فهو لله، وکلّ کمال ونجاح یناله الآخرون فهو من الله، نستنتج: أن الإنسان کلّ ما کان أکثر تملکاً، وقرباً من الله، فسیکون أکثر تعلّقا وتبعیة له، وهذا التعلّق والتبعیة ستبعده عن الله الغنی الصمد.

وبعبارة أخری: لایمکن القرب من الله بصفة واحدة أبداً، وهذه الصفة هی الغنی والاستقلال.

وعلی هذا، فکل ما یکون أکثر تعلّقا بالله وأکثر فقراً الیه، فهو أکمل وأقرب إلی الله.

ومن خصائص الإنسان: معرفته بذاته، وتتکامل المعرفة وتقوی بتکامل النفس. فهو یدرک فلسفة وجوده بوضوح أکثر، ویعلم فقره وحاجته وتبعیته لله.

نضرب مثالا علی ذلک: لو اتصل شعاع الضوء بمصدر الطاقة کالشمس، وفرضنا أن شعاع الضوء هذا قادر علی فهم وإدراک وجوده، فیدرک انه: لیس له حقیقة إلا الارتباط والاتصال بمصدر الضوء، فهذا الشعاع متصل من جهة واحدة بمصدر الضوء. فلو کان له معرفة بنفسه فبقدر اتصاله بمصدر الضوء یدرک وجوده وارتباطه بالشمس ولو کان یمکن لشعاع الضوء هذا أن یتکامل أکثر، ویکون أکبر من هذا المقدار، فحیث أن وجوده هو عین الاتصال بمصدر الضوء وهی الشمس، فیحصل اتصال أکثر بمصدر الضوء، وکما افترضنا ان له معرفة بنفسه فبعد هذا التکامل یتعرف علی اتصاله بمصدر الضوء أکثر فاکثر.

إن تکامل الإنسان سبب فی الفهم الأکثر للتبعیة، فهو کالجسم الشفاف، کلما اشتدت فیه الشفافیة والسیولة أکثر، فسیکون أکثر خفاء واستتاراً، ویظهر ما وراءه أکثر مما فی نفسه. وهکذا الإنسان، کلما ازداد کماله، ازداد فقره وتبعیته، فهو لایری لنفسه سوی ارتباطه مع الله.

وبعبارة أخری: لایری بینه وبین الله أی ستر وحجاب، ولایری نفسه مستقلاً أمامه سبحانه [۳].

---

[۱] «وَنَفَخْتُ فِیهِ مِن رُّوحِی» سورة (ص): ۷۲.

[۲] قال تعالی: «صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ» (سورة البقرة: ۱۳۸)

[۳] راجع: فلسفة الأخلاق، مجتبی مصباح، ص ۶۰.

انظروا إلى الصورة التى طبعت على غلاف الكتاب، حيث رسمها فنان ماهر بريشته، فأبدع فـى إيجادهـا وتكوينهـا، فربما لم تشاهدوا هذا الفنان المبدع بأعينكم أبداً، وليس لديكم أىّ معرفة خاصة به أصلاً، إلا أن هذه الصورة المنقوشة لن تظهر لكم شكل الفنان المبدع وملامحه الظاهرية، كعلمه وآداب معاشرته، وخلقه وأسلوب تعامله وخصائصه، بل أظهـرت لكم هذه الصورة جزءاً من الفن وروح الإبداع، والدقة فى الاختيار. لقد تعرفتم على هذا الفنان الماهرالمبدع مع جزء مـن خصائصه من خلال هذه الصورة على غلاف هذا الكتاب، فأظهرت لكم تلك الصورة ملامح الفنان، وكأنكم تعرفونـه مـن قبل إلى حدّ ما. فلهذه الصورة قرابة وانتساب مع الفنان المبدع، وكذلك الآثار الأخرى التى انطوت فـى شخصـية الفنـان وأبدع فى خلقها وإيجادها فإنه يذكرها ويبيّنها إلى حدّ ما. فإذا سمعتم صوته مثلاً، أو شاهدتم صورته، أو تعـرّفتم علـى رأيه فى موضوع ما، فستتداعى لكم خصائصه بوضوح أكثر، وكأنكم رأيتموه بأعينكم بصورة أكثر وضوحاً من قبل وبشكل أحسن.

فكل واحدة من تلك الآثار هى مرآة تتجلّى فيها شخصية الفنان الماهر المبدع، وتحكى لنا عن واقعه وحقيقته، لكـن المرآة والتجلّى الناقص يظهر لنا جزءاً من صفاته لا كلّها، فكلّما كان العرض أكثر تجلّيا ووضوحاً، فإنها تقترب أكثـر فـى تحديد معالم صاحب الصورة وهو الفنان الماهر المبدع، وإظهار آراء الشخص وعقائده هو أقرب لشخصـيته مـن صـوته، فكلّما ظهر الله أكثر وضوحاً وتجلّياً فى شخصية الإنسان، كان الإنسان أكثر قرباً إلى الله! فيكون هذا الإنسان مثله سبحانه، كما ورد فى الحديث القدسى المتقدم. لايمكن إظهار الله جلّ وعلا فى أىّ صورة، بإظهار صفاته وخصائصه ظاهراً وباطناً[1]؛

---

[1]. ماذا علينا أن نفعل لمعرفة ودراسة شخصية الإنسان دراسة متكاملة؟! افرضوا أن فرصة سنحت لرؤية هذا الفنان الماهر المبدع وجها لوجـه، ففى هذه الحالة، هل يمكن أن ندّعى أننا عرفناه بشكل واضح وكامل؟ كلنا يعلم أن الشكل المادى والمظهر الخارجى لايمثل كل شخصية هـذا الفنان المبدع. وإذا قلنا أننا شاهدناه، فنحن نقصد أننا شاهدنا جسمه ومظهره الخارجى، وليس ذاته ونفسه، ولاعلمـه، فيجـوز اسـتعمال لفظـة «المشاهدة» فى مثل هذه الحالات، فقد سمح لنا أن نكون قد تعرّفنا ولو قليلا عليه، وكذلك الأمر فى المرآة. فعند ما يقول: رأيت نفسـى فـى المرآة، فهو يقصد أنه رأى وجهه وأعضاء جوارحه ومظهره الخارجى فقط،، دون ذاته ونفسه وحقيقة وجوده – بل حتى المرايا ذوات الأحجام الكبيرة لو وضعت أمامه، فانها تظهر جانبا من شكله، فهى عاجزة عن إظهار كل شكله الظاهرى... فكيف بالباطنى؟!. وليس لدينا فـى عالمنـا المادى أىّ مرآة تظهر لنا كل أبعاد شخصيتنا. وما يصنع من تماثيل بأبعادها الثلاثة تشابه صنع الإنسان، فهى أيضاً لاتفصح عن كافة أبعاده، بل حتى الأفلام التى تصوّر وتعرض الممثلين، هى غير قادرة على تحديد وبيان كافة شخصياتهم أيضاً، فلابد أن تبقى أجزاء من شخصية الإنسـان فى خفاء وستر وحجاب، لايمكن فيه مشاهدته.. هذا فى المرآة والأفلام والتماثيل المصنوعة. ويمكن القول أيضاً: أن أثر كل شخص هو مقدار سعته الوجودية، أما كمالاته: فهى دليل على قدرة الله وفنه وكماله. فكل مخلوق يتحدث بلسان حاله وصفاته وخصائصه عنـه سـبحانه، وكـل مخلوق هو تجلّى وآية من آيات الله ومرآة تعكس الله فيها بأى نحو كان، يمكن مشاهدته فى كافة أرجاء العالم. فالعالم كلّه اسم من أسماء الله، وتجلى وشأن وعلامة له سبحانه. قال على(ع): «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه». وقال الشاعر ما معناه (١): نظـرت إلـى البحر فرأيتک فيه ونظرت إلى الصحراء فوجدتک فيها، ونظرت إلى كل شىء، إلى الجبل والسهل والوادى، فرأيت فيها قامتک البهية والرائعـة: (به دريا بنگرم، دريا تو بينم ❊ به صحرا بنگرم، صحرا تو بينم ❊ به هرجا بنگرم، كوه ودره ودشت ❊ نشان از قامت رعنات بينم.)

فإنه سبحانه مرآة لكل الأبعاد، وفيها التجلّى الكامل. فلو نظر فيها هذا الإنسان، لـرأى وكـأن الله قـد انطبـع فيهـا. فهـذه الموجودات والكائنات هى كالتصوير فى باطن المرآة، غير مستقلة بنفسها[1].

ويمكن القول: بأن كل من يشاهدها، فإنه يرى فيها تجسيداً حقيقياً لله، وهؤلاء المشاهدون متكلمون ونواب وخلفاء له فى أرضه. وقد انعكست العناوين التالية فى المرآة الإلهية المتكاملة وهى:

خليفة الله، المثل الاعلى، الاسم الاعظم[2]، المظهر الأتم، التجلّى الكامل، الوجه الأتم، والآية الكبرى.

قال(ع): «لا فرق بينک وبينها، إلا أنهم عبادک وخلقک»[3].

ونشيرهنا إلى أن مظهرية المخلوقات لله، تختلف عن مظهرية المرآة وآثار الإنسان، فمظهرنا نحن البشر لـه نـوع مـن الاستقلال، قسم منها ينسب لنا، وفيه نوع من المظهرية، والقسم الآخر غيرمنسوب لنا، فكلامنا أو كتاباتنا منفصل ومستقل عنا بنحو ما. والعمارة والشقق السكنية لها بعدان، فمن حيث صورتها الظاهرية هى خاصة بالمهندس المصمم، أما من ناحية مواد البناء المستهلكة فيها، فهى حقيقة مستقلة عن مهندسها المصمم لها، أى أن آثار الله وتجلياتـه فيهـا حقيقـة مسـتقلة،

وفى كل شىء له آية ❊تدل على أنه واحد.

وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقائق فى عدّة آيات، ذكر فيها أن كل المخلوقات هى آيات ودلائل وعلامات لله، رغم أن كل منهـا يشـير إلى بعض صفاته وخصائصه. قال تعالى: «فاينما تولّوا فثم وجه الله»، وكمال الإنسان هو من تلک الخصائص والصفات، والمعرفـة تعـين هـذه الحقائق، فالتوكل والتفويض والتسليم...ناتجة عن درک هذه الحقائق وفهمها للوصول إلى هذا المقام الأسنى.

[1]. يمكن للإنسان أن يصبح مرآة كاملة الأبعاد لله عز وجل. يعنى: أن تكون له كافة الخصائص والصفات الكمالية والجمالية المختصة بـالله عـدا صفة الاستقلالية والصمدية اللتان هما لله وحده. فالإنسان وحده لايملک أى كمال، الا بلطف من الله ورحمة، وإذا تمثل فيه الكمال، فهو من الله عزوجل، فالصمدية ليست صفة اكتسابية كسائر الصفات التى يمكن اكتسابها بإذنه وإرادته، فكلما اقتـرب الإنسـان مـن الله، وامتلـک صـفات الكمال فستزداد تبعيته له سبحانه، فيكون أكثر تعلّقا به، أى للبقاء على هذه المرتبة الوجودية والمحافظة على القابليـات والكفـاءات الحقيقيـة والصفات الالهية، يحتاج الى الله أكثر، فالذين هم أكثر غنى بين البشر، هم أكثر احتياجا للبارى تعالى.

[2]. ان علاقة الاسم بالمسمى هى كعلاقة المرآة مع صاحب الصورة المنطبعة فيها، فمن جهة الاسم، نحن على معرفة ناقصة عن الاشخاص، فاذا طرق أسماعنا اسماً من الأسماء، فاننا نتصور فى ذهننا صاحب هذا الاسم، ونجسده أمام أبصارنا، ونـرتبط معـه، ونقـيم معـه علاقـات ودّيـة وأخوية. وبهذا الاعتبار: فإن كافة المخلوقات هى اسم من أسماء الله، إلا أنها يمكن تصنيفها بمقدار تناسب إظهار وانعكاس حقائقهـا، فالاسـم الذى يبيّن كافة خصائص المسمى هو الاسم الاعظم. وقد اصطلح على المخلوقات بلفظة «الكلمة» فى المفهوم القرآنى. ولعلّ وجه هذا التعبيـر هو أن كل «كلمة» تظهر بمقدارها خصائص المتكلّم، ويعتبر مظهراً من مظاهرها، فالكلمة هى بهذا المفهوم الذى تبيّنه وتظهره، وإلا فـان اللفـظ بلا مفهوم هو ليس بكلمة. وكذلک المخلوقات، فان كافة موجوديتها هو بمظهرها، وكونها آية ودلالة، وإلا فإنها تكون واصلة إلى العدم.

[3]. مقتطفات من الزيارة الرجبية، مفاتيح الجنان.

وتجليات ودلائل، وآية بكل حقيقتها مرتبة و«غير مستقلة»، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. ورد فى الحديث القدسى أن الله عزوجل قال:«عبدى أطعنى حتى أجعلک مثلى، أنا أقول للشىء كن فيكون، أجعلک تقول للشىء كن فيكون»[1].

وفى حديث قدسى آخر، أن الله عز وجل قال: «يا ابن آدم، أنا غنى لاأفتقر، أطعنى فى ما أمرتک، أجعلک غنياً لاتفتقر. يا ابن آدم، أنا حىّ لاأموت، أطعنى فى ما أمرتک، أجعلک حيّاً لاتموت. يا ابن آدم، أنا أقول للشىء كن فيكون، أطعنى فى ما أمرتک، أجعلک تقول للشىء كن فيكون»[2].

وقال عز وجل أيضاً:«ما يتقرّب الىّ عبد من عبادى بشىء أحبّ الىّ مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إلىّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، إن دعانى أجبته، وإن سألنى أعطيته»[3].

ويكمن هنا إبهام وغموض آخر وهو: ما المراد بالكمالات الوجودية؟ وماذا على الإنسان أن يكسبه فى الحياة؟ ليكون مثلا وشبهاً لله تعالى كما تقدم فى الحديث القدسى؟ فهل أن الثروة وكسب الشهرة هى التى تقرّب الإنسان إلى الله؟ أم العلم أو القدرة؟

لا ريب فى أن الثروة وكسب الشهرة هى حقائق خارجة عن وجود الإنسان. فدخول البضائع بكثافة إلى الأسواق إلى جوارالإنسان، هى ليست بمعنى نمو حقيقته الوجودية. كما أن الشهرة والمحبوبية وجلب أنظار الناس واهتمامهم، لا علاقة لها بمنزلته الحقيقية وصغرشخصيته وكبرها، فالحيوان الصغير الذى لا قيمة له يمكن أن يصبح حيوانا معروفاً ومشهورا، أو يكون مثلا شعبيا عند الناس مثلاً، إلا أن زيادة العلم والمعرفة هو الكمال الحقيقى والواقعى. فلو قارنا نحن البشر أنفسنا ببعض الحيوانات كالحشرات مثلاً، أو المواشى والبهائم، أو الأطفال الصغار، فإننا نشعر بالفخر والغرور والعظمة، والخيلاء والأنانية أحياناً، وعندما نشاهد الثروات والأموال التى وضعت فى تصرفنا واختيارنا، فسنعتزّ بأنفسنا، وتأخذنا نشوة الطرب والفرح، ويغمرنا حالة من السرور والبهجة. فربما شاهدنا النمل الصغار، وهو يدبّ فى الأرض، ليجمع فتيات الخبز الصغيرة أو مكعبات قطع السكر، فيلتقطها بخراطيمه الصغيرة، ويحملها إلى أعشاشه، ليخزنها إلى فصل الشتاء القارص، وقد بذل جهوداً واتعاباً مضاعفة فى حملها، أو البحث عن الطعام له، ولعلّنا وضعنا فى طريقه بعض قطع الخبز الصغيرة أو حبات السكر ليحملها بأرجله الصغيرة إلى أعشاشه، أو نفخنا فتيات الخبزالصغيرة بأفواهنا وحركنا الهواء لنسلب هذا الطعام من خراطيها وأرجلها، أو قرّبنا نملة أو أبعدناها عن عشّها!. وفى كل هذه الحالات، لو تصورنا أنفسنا بين مجاميع النمل هذه، فسنشاهد فرحها وسرورها البالغ بسبب عثورها على الطعام، وقطع الحلوى وحبات السكر، أو نرى حزنها وألمها الكبير فى

---

[1] علم اليقين: ص ۶۱۰.

[2]. عدة الداعى، ص ۳۱۰.

[3]. الكافى ج ۲، ص ۳۵۲.

سلبها قوتها من فمها وخراطيهما، فالنملة تفقد توازنها فرحاً وطرباً حينما تجد لنفسها ذلک الطعام، لکن قوة إدراکها ضعيفة. أما الکائن مثلنا، القادر على تحريک إصبعه ليضع فتيات الخبزأو قطع الحلوى والسکر، بل مئات القطع فی طريقها، أو يقرّبها لها بسهولة دون عناء، أو يضعها أمام أعشاشها، أو يبعدها عنها، فإن هذا الإنسان والکائن الحیّ لايرى نفسه کبيراً. وإذا أردنا تفسير حياة النمل بأفق أوسع، ونظرة أشمل، فإننا نأسف لحالها، وما تؤول إليه بعد سلبها أقواتها، ونرى أنفسنا أصغر أحجاماً منها، وأقزاماً صغاراً أمامها، ونعدّ أنفسنا أقل رتبة ووضاعة ودناءة وخسّة، فنحتقر أنفسنا بالنسبة لمقارنتنا بها. فالنمل له إدراک محدود، لأنه غير قادر على معرفة الحقائق! وعلمه وفهمه محدود فی هذا العالم بعدة أشبار أعشاشها وبيوتها، فليس له معرفة أبعد من هذا، ولذلک فإنها تقيم ارتباطا وعلاقة خاصة من نوعها بأعشاشها. وهکذا الحيوانات الأخرى، فإن فهمها وإدراکها محدود بدائرة تصوراتها وعلاقتها بأعشاشها، فلايفهم أیّ من تلک الحيوانات والبهائم القواعد الهندسية، وليس لها قدرة على التحليل والتفسير السياسی!، ولاتعرف قيمة النسخ الخطية الثمينة والباهضة، ولا جغرافيا العالم، ولايلتذ ويستمتع فی مشاهدة الأفلام السينمائية... وباختصار، لايفهم کثيراً من الحقائق والمعارف، ولهذا السبب، نعبّر عنه: بـ«الکائن الصغير». وفی مقابله: نحن، فإننا فرحون ومسرورون لأننا ندرک کل شیء، ونفهم ونعرف کل شیء، ونقدر على إقامة علاقات ودية ووثيقة مع کلّ الحقائق الکونية والوجودية، ونرى أنفسنا أفضل کائن فی الوجود وفی جنّة أوسع!.. إلا أن کبر وجودنا وحقيقتنا هی ليست بکبر أجسامنا وضخامتها، وثقل أبداننا وسعتها، بل بميزان علمنا وفهمنا، ومعارفنا ودرکنا للحقائق. قال أمير المؤمنين(ع): «قدر کل امرئ ما يحسن»[1]. وليس مستوى إدراکنا وفهمنا لحقائق الکون متساويا، فإن مخاوفنا وآلامنا وتفکيرنا وشعورنا وأحاسيسنا مختلف تماماً، ولذلک عالمنا قابل للاتساع.

إننا ومن خلال تکثيف ومضاعفة علومنا ومعارفنا، يمکننا أن ندخل عالماً آخر، فجوهر وجودنا عصارة هذه المعارف والاکتشافات العلمية، وهی التی توسع دائماً من دائرة وجودنا، وتزيد من أبعاد شخصيتنا[2]. فالعلم ليس ثوباً نرتديه ونغطی به أجسامنا، ليمنح أنفسنا زينة وجمالاً، بل العلم: معناه الأوسع والأکمل يشکّل کل حقائقنا.

ولکی نفهم هذا المعنى، علينا أن نرفع کافة الاغلال والقيود والأصفاد والآصار عن أنفسنا وأبداننا، فإن لم يکن لنا أبداناً، فمن نکون نحن إذن؟ حلقات ومجاميع من المعرفة والإرادة. وها نحن کذلک! فسيسترجع منا هذا الجسد العاری يوماً ما!!.

إن للانسان دوراً خطيراً وهاماً فی هذه المدة الوجيزة والمحدودة التی يعيشها فی هذا العالم المادی المحدود، وهو يمثل هويتنا وحقيقة وجودنا الأبدی فی العالم الأخروی.

---

[1]. أمالی الطوسی: ص۴۹۴.

[2] عبّر فی الحکمة المتعالية عن هذه الحقيقة باتحاد العلم والعالم والمعلوم، أو اتحاد العقل والعاقل والمعقول.

لقد خلق الإنسان ليكون وجوده أكمل من خلال استزادة شعوره واحساسه، وفهمه للحقائق الكونية، وتوسيع حدود عالمه، ليكون أكبر من ذلک.

إن سرّ عظمة الإنسان وأفضليته على الملائكة يكمن فى هذا العلم. قال تعالى: « وَعَلَّمَ آدَمَ الاسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَکَ لاَ عِلْمَ لَنَا الا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّکَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»[1]. فهل المراد بـ«العلم» فى هذه الآية، هو علم الرياضيات أم الفيزياء أم الكيمياء؟!.

تصنّف حقائق الكون إلى قسمين كبيرين مزدوجين دائماً هما:

الحقائق المادية والمعنوية، الظاهرية والباطنية، الشهادة والغيب... فالمراد بالحقائق المادية أو الظاهرية: مجموعة من الظواهر والأحداث بالواسطة أو عدم الواسطة يمكن معرفتنا لها أو مشاهدتها أو الوصول إليها بالحواس الخمسة وجوارح الإنسان. فعلى الإنسان بذل الجهود ومضاعفة الهمم لمعرفتها بواسطة آلياته الحسية وأدواته الظاهرية، ومعرفة مدى الارتباط بينها.

والقسم الثانى: هو الحقائق المعنوية والغيبية (المجردة)، وهى خارجة عن الحواس الخمسة وجوارح الإنسان. فهو غير قادر على إقامة الارتباط معها بواسطة آلياته المادية وأدواته الظاهرية، بل عليه استخدام آليات أخرى غير مادية وغير ظاهرية. ويظهر من التعاليم والمناهج الدينية أن نسبة أبعاد عالم المادة إلى الحقائق الباطنية فى العالم هى كحلقة درع ملقاة فى فلاة، وكأن عالم المادة مع مالها من عظمة هى بمنزلة حلقة درع صغيرة ملقاة فى فلاة عريضة وشاسعة لا نهاية لها، فما يمكن إدراكه بالحواس هو ظاهر هذا العالم. وفى مقارنته بالعالم المجرد الميتافيزيقى الذى هو عالم الغيب، فهو بمنزلة الجنين فى رحم الأم، بمقارنته بالعالم الخارجى وإطاره الضيّق وأفقه المظلم والمحدود[2]. وبعد أن عرفنا أن كمال الإنسان هو فى تحصيل أكثر المعارف والعلوم التى تعنى بحقائق العالم والكشف عن أسراره، يلزم هنا أن نضيف هذه النقطة وهى: أن هذه الجهود والمساعى المعرفتية ينبغى توزيعها متناسبة مع هذه الحقائق. فالإنسان فى هذا العالم كالباحث والمحقق الذى يسافر إلى بلد ما، فإن عليه أولاً التحضير والاستعداد لهذا السفر، وإعداد خارطة عنه لمعرفة خصائصه ومشاهداته، فإذا أراد هذا الباحث والمحقق أن يؤدى وظائفه بشكل مطلوب فى فرصة محدودة وقليلة، فلاينبغى عليه أن يضيع وقته عبثاً فى معرفة أمور جانبية وهامشية، كجمع المعلومات عن هذا البلد وتلک المدينة التى يريد التعرف عليها، بل إن عليه مسؤولية أهم وهى: دراسة أهم العناصر والأجزاء المكوّنة لهذه المدينة وذلک البلد، وكشف النسب والعلاقات بين تلک العناصر. وإن أتيحت له فرص أخرى، فعليه أن يستثمرها فى إكمال أجزاء تلک الخارطة المنظّمة والمدروسة.

---

[1] البقرة، ٣٠و٣١.

[2]. قال الإمام الصادق(ع): «فما السماء الدنيا فى السماء الثانية إلا كحلقة درع ملقاة فى أرض فلاة، وكذلک كل سماء عند سماء أخرى». (بحار الانوار، ج ٥٢، ص ٥٨٣، الكافى ج ٨، ص ١٥٣)، وقال(ع): «ما السماوات والارض عند الكرسى إلا كحلقة خاتم فى فلاة، وما الكرسى عند العرش إلا كحلقة فى الفلاة» (بحار الانوار، ج ٥٥، ص ٢).

ولو فرضنا أن هذا المحقق والباحث بدأ دراساته حول معرفة الفندق الذى يسكنه، وقاس طول وعرض وارتفاع الغرف التى يحتويها هذا الفندق بدقة، وقام باستطلاع عام بفطنة ودقة عالية، لمعرفة درجة الحرارة والبرودة فى الفندق وقدم قائمة شاملة من أثاث هذا المنزل، بل أعطى تقريراً شاملاً عن العيش فيه، وبذل فى ذلک جهوداً مظنية ومضاعفة، ومساعى حثيثة فى إعداد هذا التقرير والاحصاءات بدقة، فهل قام هذا الباحث والمحقق بوظائفه المناطة به بشكل مطلوب وجيد؟! وهل قدم بحثا علمياً وموضوعيا قيّماً ومفيداً فى هذا الاتجاه؟!. فالباحث الذى يرسل فى بعثة لدراسة واستطلاع البلد الفلانى أو تلک المدينة، عليه أن يغض النظر عن دراسة الأمور الجزئية والهامشية، كمعرفة سكناه مثلاً إلا بمقدار الضرورة والحاجة لإقامة موقتة! ويخصص وقتاً كافيا لأداء وظائفه الأصلية. وهكذا خلق الإنسان!. فإن إرساله وبعثه إلى هذه الدنيا فى فندق يسمى «عالم الطبيعة والمادة» انما هو لغرض طلب العلوم، واكتساب المعارف، ومعرفة أسرار عالم الكون والوجود.

وعلى هذا، فإن دراسة عالم الطبيعة بعد ذلک، يعدّ جزءاً صغيراً فى مجموعة الوجود والكون المتكاملة والواسعة، وهى انما تعدّ مقبولة وقيّمة، فيما إذا كان هناک حاجة وطلب شديد إلى الحياة المؤقتة والمرحلية للإنسان. ففى الوقت الذى تكون معرفة عالم المادة كاملة ومفيدة، وذلک فيما إذا تم الكشف فيه عن النسبة بين ظاهر الكون والوجود وباطنه، وحصل التأثر والتأثير المتبادل بين المادة والمعنى. فإذا شاهد الإنسان الذهب والفضة، والنعيم الوافر، ورغد العيش فى هذه الحياة الدنيا والعالم المادى، وهو لايبصر بعد تلک القدرة المسيطرة والمسخرة لكلّ هذا، وذلک من خلال الإشارة بقول «كن فيكون»، فمثل هذا الإنسان كمثل النمل الصغير الأعمى الذى لايرى ما حوله! وإن خدعه الغرور والفخر بنفسه، وأخذه العجب والخيلاء بأحاييل الشيطان وخدعه وأضاليله.

الحياة الطيبة

القرب الإلهى يعنى إيجاد الارتباط الوثيق والصلة القوية بحقائق العالم وأسرار الكون. وهذا الارتباط هو نوع من أنواع المعرفة به، المستلزم لقدرة التصرف فيه أيضاً. القرب إلى الله معناه الحياة الطيبة والأفضل.

إن مفهوم الحياة مرتبط بشدة بمفهوم العلم. فقد عرّفوا «الكائن الحىّ» من وجهة العلوم التجريبية: بالكائن الذى يمتلک استعداد النشأة والنمو، والتنفس، والتغذية، وتكثير النسل.

وعلى ضوء هذا التعريف: لايمكن التعبير عن الربّ الحىّ القيوم بالكائن الحىّ!! لأنه يفتقد كافة الخصائص المذكورة، لكن فسّر المتكلمون الاسلاميون «الحياة» على أنها «الإدراک» و«القدرة». وعلى هذا: فالكائن الحىّ هو الكائن الذى يمتلک شعوراً وقدرة فى الاستيعاب والمعرفة والتصرف.

وعلى ضوء على هذا التعريف «للحياة»، سيكون هناك تصانيف مراتب أخرى للكائنات الحيّة، بأن يكون هناك كائن «حيّ»، وكائن آخر أكثر حياة، إلى أن نصل إلى الكائن الحيّ الذى يمتلك إدراكا لكلّ شيء، وقدرة على فعل كل شيء. فالحيّ القيوم:«هو العالم بكلّ شيء والقادرعلى كلّ شيء».

وعلى هذا، فكلما ازداد علم الإنسان وقدرته، فسيكون أقرب إلى مبدأ البعث والحياة يعنى الى الله الحيّ القيوم.

وإذا كانت درجة حياة كائن ما ضعيفة جدّا، فسيلحق هذا الكائن بعداد الأموات، أو الصمّ البكم العمى، لأنه محروم عن معنى الحياة بـ«قليل من التسامح»، ومن الأفضل لهذا الإنسان أن لايرى نفسه حيّا، لأنه ميّت أكثر من أن يكون حيّاً!.

لقد حمل الأنبياء شعاراً للبشرية تحت عنوان: «أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الاخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الاخِرَةِ الا قَلِيلٌ»[1].

إن كلّ من يرفض الاستجابة لدعوات الأنبياء والرسل فهو فى الحقيقة أعمى وأصمّ وأبكم.

قال تعالى: «صم بكم عمى»،و قال أيضاً: «إنک لاتسمع الموتى». كمال الإنسان فى الحياة الطيبة، وقد دعا الأنبياء والرسل شعوب العالم والأمم كلها إلى الحياة الطيبة، فهى أبعد وأسمى من عالم المادة الدنىء الحقير. الإنسان الكامل هو الذى يتجافى عن عالم المادة، ويتجه نحو عالم الباطن، وقد تمثلت الحياة المعنوية الإلهية والأخروية فى هذه الحياة الدنيا المحدودة.

ورد فى الدعاء عنه(ع) قال: «اللهم ارزقنى التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود».

ويصوّر القرآن الكريم عالم الآخرة أيضاً فى باطن هذه الدنيا، ويصف حالنا فيها: بأننا فيها غافلون.

قال تعالى: «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الاخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ»[2]. فتصورنا الابتدائى هو: أن الحياة الأخروية تبدأ بعد انتهاء الحياة الدنيوية. فعند ما تفارق أرواحنا أبداننا ونموت، حينئذ تبدأ مرحلة أخرى جديدة، فيؤذن لنا بالدخول إلى عالم الآخرة. لكن القرآن الكريم لايضع حدّاً معينا يفصل بين الحياة الدنيا والآخرة، ولايرى الانتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر يرتبط بنهاية الحياة الدنيوية، بل أن الآخرة هى مرتبة مستبطنة فى هذه الحياة الدنيا، وهو عالم فى طول هذا العالم وليس فى عرضه.

الإنسان الكامل هو الذى ينمو من خلال ما يمتلک من قدرات وقابليات يعمل على تطويرها وتنميتها فى الحياة الدنيا، نظراً لاستعداد قواه الإدراكية وتكاملها. قال تعالى: «قَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنکَ غِطَاءکَ فَبَصَرُکَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»[3]. فالجنين فى رحم أمه يعيش فى عالم المادة، لكن بما أنه لا ارتباط له بأىّ نوع من الإدراک، ولايتعامل مع العالم

---

[1] الأنفال: ٢٤.

[2] الروم: ٧.

[3] ق: ٢٢.

الخارجی، فحیاته لیست شبیهة بحیاتنا، لأنه لو قدر علی الکلام وهو فی غیاهب الرحم، واستطاع التصرّف فی العالم، لصارمثلنا فی عالمنا، وإن کان فی غرفة صغیرة أخری مغلقة!.

إن حیاة الجنین بالنسبة لحیاتنا نحن البشر محدودة لا قیمة لها، باعتبار أن دائرة إدراکه وسلوکه ضیّقة ومحدودة جداً. وقد عانینا نحن البشر أیضاً من أسر رحم الطبیعة، فلو لم یکن لنا فی هذا المکان وحده أیّ ارتباط بعالم الوجود والعالم الآخر، فمعنی ذلک: أن لیس هناک حیاة طیبة ؛ لأن کمال الإنسان هو أن یستیقظ ویفیق من عالم الغفلة والنوم والسبات العمیق، فیبدأ مرحلة النمو والتکامل، إلی أن یفتح نوافذ وآفاقاً من المعارف والعلوم نحو حقائق العوالم الأخری، فینظر إلی بواطن العالم، ویرتبط هذا الإنسان بعوالم أفضل بعد هذا العالم، وانقطاع الحیاة والموت، بسبب قطع التعلّق الجبری عن عالم المادة والتراب، فتظهر له الحیاة الطیبة وتتجلّی له کثیراً من الحقائق.

قال رسول الله(ص): «الناس نیّام، فإذا ماتوا انتبهوا»[1]. والموت هو انتقال من عالم ضیّق إلی عالم أوسع. فلو کانت حقیقة وجود البشر وجوهره هو هذا الجسم الترابی العنصری، فإن انتقال جسمه من البیت إلی مقبرته بعد موته ووفاته، سیکون عبارة عن نقلة مکانیة.

أما إذا کان حقیقة الإنسان هی أبعد وأسمی من ذلک الجسم الترابی والعنصری، فالموت وهو انتقال هذا الشیء إلی عالم آخر، هو لیس انتقالاً مکانیاً قطعاً، بل هو حضور علمی فی وسط جدید، ومعرفة للحقائق الأسمی، والارتباط بها. قال تعالی: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِی غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ»[2].

---

[1] عوالی اللئالی: ج ۴، ص ۷۲. إذا استیقظ الإنسان النائم من نومه، فسیدخل فی عالم آخر، لأن قواه الإدراکیة قادرة علی إیجاد الارتباط مع حقائق هذا الوسط الجدید والعالم الآخر. وهی الحقائق التی کانت کلها قبل استیقاظه، لکنها وبسبب ضعف القوی الإدراکیة، لم تکن عارفة بها، أو مطلعة علیها أبداً. أما الآن، وبعد أن استیقظ، فسوف یری أن العالم کان منذ الأزل، إلا أنه لم یکن من أهل ذلک العالم. ولم یسمح له بالحضور العلمی فیه. وعلی هذا الاساس، لو استطاع الإنسان إکمال مدرکاته العلمیة قبل موته، فقد استیقظ من نوم عمیق، ومات قبل أن یموت. روی عنه (ع) أنه قال: «موتوا قبل أن تموتوا» (شرح الاسماء الحسنی، الملا هادی السبزواری، ص ۱۴۸).

إن ما یشاهده الإنسان بعد موته سیتجسّم أمامه، فیصبح أمراً حقیقیا وواقعیاً فی نظره، وسیکون من أهل القیامة. فالوصیة بالموت قبل الموت، وإقامة الارتباط مع عوالم أخری یطلق علیه فی المصطلح العرفانی وفهم العرفاء بـ«الموت الاختیاری».

روی عن رسول الله(ص) أنه قال: «من مات فقد قامت قیامته» (مستدرک سفینة البحار، ص ۶۳۰). وقال إمام العارفین وسید الموحدین علی بن أبی طالب (ع): «لو کشف لی الغطاء ما ازددت یقینا» (المناقب، ص ۳۱۷). وقصة حارثة الصحابی معروفة ومشهورة، ذلک الشاب الواعی، الذی کان من أهل البصیرة، وما قال له النبی(ص) هو فی الحقیقة إشارة إلی هذا المعنی. فعندما سأله رسول الله (ص): «کیف أصبحت»؟ أجاب ذلک الشاب قائلاً: «أصبحت مؤمناً حقّاً»! فقال له النبی (ص): «و ما علامة إیمانک؟»، فقال الشاب: «کأنی بأهل الجنة یتراودون، وأهل النار فیها معذبون» (بحار الانوار، ج ۶۷ ص ۱۷۴).

[2] الأنبیاء:۱.

وعلى هذا، فالإنسان ومن خلال حياته الطبيعية هذه، ووجود هذا الجسم المادى، إن أمكنه أن يقيم ارتباطاً مع ذلك الوسط، ويصل لمعرفة تلك الحقائق ويكشفها، فهو فى الحقيقة يعيش فى ذلك العالم، وقيامته قائمة.

قال تعالى: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ»[١].

وقال أمير المؤمنين (ع) فى وصفه للمتقين: «هم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون»[٢]. فالاخلاق الحميدة والحسنة هى التى تكون فى خدمة الوصول إلى هذه المرتبة السامية.

مقصد نمو الإنسان وقيمته فى الحياة الاجتماعية

إن قيمة الإنسان فى الحياة الاجتماعية العامة هى بما يقدمه من خدمات ذات طابع اجتماعى عام. فكلما ازداد حجم وسعة تلك الخدمات المفيدة والشاملة فى كافة المجالات وفى مختلف الأصعدة، ازداد وبشكل طردى تأثير وجود هذا الفرد فى المجتمع، وسيكون ناجحاً ومتفوقاً فى الصعيد الاجتماعى. ويلزم على هذا الأساس ما يلى:

١. أن يكون كل فرد فى المجتمع دقيقاً فى مرحلة الاختيار، ليتعرّف على كثير من الخدمات الاجتماعية وأكثرها تأثيراً فى المجتمع، التى تتناسب مع كفاءته واستعداده، فيكون فى صنف المنتجين الناجحين، ومن له عطاء ومساهمة فى هذا الاتجاه.

٢. بعد مرحلة الاختيار، عليه أن يقوم برفع مستوى قدراته وكفاءاته الإنمائية والخدمية. فالمفهوم الدينى يقول: إن من يمتلك كفاءات وقابليات أكثر، ومستوى فائق من الطموح والأداء، و: «من هو ذو كفائة أكثر» فهو الأجدر بإناطته المسئوليات، وهو الاكثر لياقة فى هذا الاتجاه.

ويتجسد هنا هدفان وقيمتان حقيقيتان هما:

أولا: قيمة «الإيمان، المعرفة، القرب، الاخلاق والتقوى»

وثانيا: قيمة «الكفاءة والتجربة والخبرة».

قال تعالى: «إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الامِينُ»[٣].

فالإيمان والمعرفة هما قيمة البعد الفردى فى وجود الإنسان. والكفاءة والخبرة هما قيمة بعده الاجتماعى.

وبهذا الترتيب: فإن أنموذج الإنسان الملتزم والمتديّن الواعى هو: «المؤمن الخدوم» أو المؤمن الذى يسعى فى قضاء حوائج الآخرين. فإذا امتلك «المؤمن الخدوم» صفة الإيمان، فإنه يقترب فى هذه الحال من آفاق الكمال، ويتحرك نحو خدمة الجمع منطلقاً باتجاه الكمال[١].

---

[١] التكاثر: ٥ و ٦.

[٢] نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

[٣] القصص: ٢٦.

نشاهد بين عمّال الحكومة العلوية ثلاث شخصيات متفاوتة:

١. شخصية مالک الأشتر النخعی...

وهی کما ترى شخصية تمتلک استعداداً خارقاً فی الادارة وکذلک قدرات عالية فی الجسم والفکر والروح، هذا من جهة. ومن جهة أخرى: فإنها تصدرت أعلى مراتب الإيمان والولاء، والقيم والمبادئ والأخلاق المعنوية السامية والعالية. وبهذا السبب، نالت إعجاب ورضا الامام على (ع)، فی حياته الفردية والاجتماعية بشکل کامل، وکان الامام (ع) فرحاً ومسروراً بامتلاک هذا الصحابی وواثقاً من نفسه فی إناطته المسؤوليات وإدارة زمام الأمور ودفة الحکم، اليه[٢].

٢. شخصية عارفة ککميل بن زياد، صاحب اسرار أمير المؤمنين(ع) ووعاء لحمل المعارف والعلوم العلوية التی يصعب حملها، فهو الى جانب امتلاکه صفة الإيمان والفضائل والکمالات الأخلاقية والمعنوية، فإن له الفخر أيضاً فی مجالسة حجة الحق أمير المؤمنين (ع) وأنسه به [٣].

عيّنه (ع) عاملا له على «هيت» وهی مدينة فی العراق محايدة للشام، وذلک لصدّ جيوش العدو، بعد غزوهم واحتلالهم لهذه البلدة، وعبثهم بأموال المسلمين وأمن البلاد. إلا أن کميلا لم يقدر على دفع جيوش العدو وإخراجهم من «هيت»، فاعترض عليه الإمام(ع) لضعفه، وأنّبه برسالة بعثها إليه، وعزله عن مسؤولياته [١].

---

[١] الحث على السعی فی قضاء حوائج المؤمنين فی معناه الأوسع يعنی: تسهيل الخدمات الاجتماعية والتکافل الاجتماعی، والاهتمام بها ورعايتها. قال رسول الله (ص): «من أصبح لايهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم» (وسائل الشيعة، ج ١۶، ص ٣٣۶). وقال على(ع): «أفضل الناس أنفعهم للناس» (غرر الحکم: ١٠٣٠٠). وهی إشارات واضحة، ودلائل وبراهين قاطعة على أفضلية الإنسان وارجحيته على غيره فی الحياة الاجتماعية.

[٢]. روى عن على(ع) فی حقّه أنه قال: «فإنه ممن لايخاف وهنه، ولاسقطته، ولابطؤه، عما الإسراع إليه أحزم، ولاإسراعه إلى ما البطؤ عنه أمثل» (نهج البلاغة، الرسالة ١٣).

وقال (ع)أيضاً فی وصف مالک : «عبداً من عباد الله، لاينام أيّام الخوف، ولاينکل عن الأعداء ساعات الروع. أشدّ على الفجّار من حريق النار، وهو مالک بن الحارث، أخو مذحج، فإنه سيف من سيوف الله، لا کليل الضبّة، ولانابی الضريبة... فانه لايقدم ولايحجم، ولايؤخر ولايقدم إلا عن أمرى، وقد آثرتکم به على نفسی، لنصيحته لکم، وشدّة شکيمته على عدوّکم» (نهج البلاغة، الرساله ١٣).

وقال(ع): «مالک، وما مالک!!؟، لو کان جبلاً لکان فنداً، ولو کان حجراً لکان صلداً،لا يرتقيه الحافر، ولايوفى عليه الطائر» (نهج البلاغة، الحکمة ۴۴٣).

وقد أسف له الامام على(ع)، وثار وضج وعجّ وتأوّه لخبر مقتل مالک الاشتر، فقال(ع): «على مثل مالک فلتبک البواکی، وهل مرجوّ کمالک!!؟ وهل موجود کمالک!!؟» (بحار الانوار، ج ٣٣، ص ۵۵۶).

وقال(ع) أيضا عنه: «و هل قامت النساء عن مثل مالک!!؟ لاأرى مثله بعده أبداً» (بحار الانوار، ج ٣٣، ص ۵٩١).

[٣]. کان الإمام(ع) يصحبه إلى البرارى والقفار، ويسرّ إليه من علومه ويقول: «إن هاهنا لعلما جمّا، لو أصبت له حملة» (نهج البلاغة، الحکمة ١۴٧).

٣. الأنموذج الثالث من عمّال الحكومة العلوية، شخصية زياد بن سميّة.

لم يعرف من أبوه؟ وكان ممن ولد سفاحا فى الجاهلية. اشتهر بابن سمية، (و هى أمة للحارث بن كلدة الثقفى، طبيب مشهور عند العرب).

لما استلم معاوية الحكم، ذكر له نسبا، واستلحقه بنسبه، وادعاه أخا له، وابنا لأبى سفيان[٢].

استخلف (ع) زياداً بعد ابن عباس على ولاية البصرة وفارس، وكانت حدودهما تضم مدناً كبيرة: كالبصرة والأهواز وكرمان وفارس....

فهو وأن كان قوياً ونشطاً فى حكمه،ضبط تلك الولايات ضبطا جيداً، وجبى خراجها وحماها من التعرّض والهجموم، إلا أن السياسات المخادعة والشريرة التى صدرت منه، سلبت منه ثقة الإمام واعتماده، بعد أن حذّره (ع) كثيرا من مغبّة تلك الأفعال، وما يؤول إليه أمره، فى صدور مثل هذه الأعمال الطائشة والمشينة منه، وما تجلبه من فساد وإفساد، وأنّبه ولامه على أفعاله، وعزله عن الحكم[٣].

هذه نماذج ومصاديق عملية فى إدارة المجتمعات، لكن لا شك فى أن العمل لم يكن منحصراً فى قدرة الإدارة فحسب، بل يعم ويشمل كل الخدمات المؤثرة والمفيدة فى هذا الاتجاه.

ويظهر من دراسة وتحليل هذه الشخصيات: أن بعض الأشخاص ممن تتمثل فيهم صفات الإيمان والتقوى والأخلاص والأخلاق الفاضلة والقيم والمبادئ المعنوية العالية فى أبعادهم الفردية، غير قادرين على التغيير والإدارة، أو القيام

---

[١]. بعث الامام على(ع) برسالة إلى كميل بن زياد محتجاً عليه، ومؤنبا له ومحذرا، جاء فيها: «أما بعد، فإن تضييع المرء ما ولّى، وتكلّفه ما كفى، تعجز حاضر، ورأى متبر.... فقد صرت جسرا لمن أراد الغارة من أعدائک على أوليائک، غير شديد المنكب، ولامهيب الجانب، ولاسادّ ثغرة، ولاكاسر لعدو شوكة، ولامغن عن أهل مصره، ولامجز عن أميره» (نهج البلاغة، الرسالة ٦١).

[٢]. روى أن عمر بن الخطاب بعث زيادا فى إصلاح فساد واقع باليمن، فلما رجع من وجهه، خطب عند عمر خطبة لم يسمع مثلها، وكان الامام على (ع) وعمرو بن العاص وأبو سفيان حاضرون، فقال عمرو بن العاص: لله درّ هذا الغلام، لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه! فقال أبو سفيان: إنه لقرشىّ!! وإنى لأعرف الذى وضعه فى رحم أمه!! فقال على(ع): ومن هو؟ قال: أنا والله!! أتيت أمه فى الجاهلية سفاحاً، فوضعته فى رحم أمه.

وغرّره معاوية فى حكومته باصرار المغيرة بن شعبة، فاستقدمه معاوية إلى الشام، ورتب له مجلسا، قد جمع الناس فيه، واستشهد الناس أن زيادا هو ابن لأبى سفيان، فشهدوا له بذلک. وادعى معاوية أن زيادا بعيد الهمة، ذو رأى ونظر، استلحقه بأبيه، وصيره أخاه. راجع رسائل الامام على(ع)، الرسالة ٤٤، ٢١، ٢٠، وكذا الحكمة ٤٧٦ فى نهج البلاغة. ذكر ابن ابى الحديد أحوال زياد فى ذيل الرسالة (٤٤) لأمير المؤمنين(ع) فراجع.

[٣]. «و إنى أقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغنى أنک خنت من فىء المسلمين شيئا صغيرا أو كبيرا، لأشدن شدّة تدعک قليل الوفر، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر» (نهج البلاغة، الرسالة ٢٠).

وقال (ع) أيضا: «استعمل العدل، واحذر العسف والحيف، فإن العسف يعود بالجلاء، والحيف يدعو إلى السيف» (نهج البلاغة، الحكمة ٤٧٦).

بمسؤولياتهم الاجتماعية المناطة بهم من قبل الحاكم العادل، لتقديم الخدمات والتسهيلات اللازمة والضرورية إلى المجتمع، وإيجاد التوازن والتكافل الاجتماعى، إلا أنهم ملتزمين بصفات التقوى والورع والإيمان وتمسكهم بالقيم والمبادئ والصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة. لكن كلا الفريقين لم يكونا محل ثقة الإمام(ع) واعتماده، والذراع الضاربة بيد من حديد بوجه الأعداء فى مواجهة التحديات.

إن من يمتلك فهما يسيراً عن المبانى الأولية فى فن الإدارة فى عصرنا الراهن يعلم جيداً أن أهم عنصر فى نجاح مؤسسة من المؤسسات الخدمية التى تقدم التسهيلات والدعم للمواطنين وأىّ دائرة حكومية، هو: توفر مصادرها ومنابعها الإنسانية والبشرية وعليها أن تمتلك هذه الخصائص فى كافة المجالات وهى: «التدين والاختصاص» «القدرة والأمانة»، «التقوى والكفاءة» «الشجاعة والسلامة». وعدم توفر هذه الخصائص، سيؤدى الى التحليق الناقص نحو الهدف، وسيكون الاعتماد والحركة أمراً مستحيلاً وغير ممكن.

إن من ينتحل صفات الأخلاق والإخلاص، وسلامة النفس بالمستوى المطلوب، لكنه لايمتلك الكفائة والقدرة فى العمل على إدارة عجلة التغيير والتحول الاجتماعى، ويعجز عن عرض وتقديم أىّ أثر ونموذج راقى فى الإصلاح، أو تقديم خدمات ومساهمات فاعلة ونشطة، فهى قوى فاشلة، وغير ناجحة فى تقوية وتثبيت دعائم الإسلام، وتطوير المشروع الإسلامى الدينى، وتحقيق أهدافه وطموحاته، والمضى والسير بها قدماً نحو الأمام.. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: إن من يمتلك طموحات عالية وعزم واسع النطاق، ويسعى أيضاً الى تطوير مهاراته، وتنمية كفاءاته وقابلياته ومجهوده العلمى والارتقاء بها، من خلال مضاعفة الجهود، وبذل المساعى الحثيثة والمضنية، ويمتلك قابليات وقدرات ممتازة فى إناطة المسئوليات الاجتماعية الكبرى به، إلا أنه بقى أسير المطامع والأهواء، والأغراض الشخصية والشهوات الدنيئة البهيمية والحيوانية، وينقصه فى ذلك الإيمان والأخلاق الإنسانية والفضائل الحميدة، فهو غير قادر على إرضاء إمام العصر والزمان الإمام المهدى (ع)، وإن أبدى عن استعداده لخدمة أهداف الدين، وقام ببعض الأعمال التى تصبّ فى صالح المسلمين، ولكن ينبغى مراقبته والإشراف الكامل عليه، للأمن من عدم فساده وإفساده، وعبثه بالأموال والأنفس.

إن مقارنة هذين القسمين وضمّ كل منهما إلى الجانب الآخر هو خطأ كبير وفاحش، وعدّهما فى عرض واحد، ينبغى أن لايوهم أن قيمتهما واعتبارهما واحد أيضاً.

ليس معنى هذا، التساوى بين قيمة «الإنسانية» وقيمة «الكفائة»، ولايعقل المقارنة بين كميل بن زياد النخعى وزياد بن أبيه، لأن إنسانية الإنسان تدلّ على قيمة وجوده التكوينية والأساسية، وهى باقية مستمرة إلى الأبد، وممتدة بامتداد حياة الإنسان، بينما أن الكفائة والقدرة هما فى المرتبة الثانية من القيمة والأهمية، حيث إنهما يرتبطان بحياته الاجتماعية إلى حين الانتقال إلى العالم الأبدى، ثم تترك بعد ذلك دون استخدام، ويتوقف فيها عن العمل. فالإيمان والإنسانية هما قيمتان ثمينتان أيضاً، وإن افتقدنا القدرة والقابلية، وإنهما يؤمّنان سعادة الإنسان، أما إذا كانت القدرة والقابلية متوفرتان، لكنهما

يفتقدان إلى الإيمان والإنسانية، فلاقيمة إنسانية لهما، ولايرتسمان فى لوح سعادته. تعود ثمار الإيمان والعبودية منذ البدء على شخص نفسه، أما ثمار القدرة والقابلية، فستكون ناظرة إلى حاجة الآخرين. وعلى هذا الأساس: إذا دار الأمر بين هاتين الخصوصتين، وذلک عند ما يكون الاختيار لأحدهما ممكناً فقط، فعلى الإنسان أن يختار القيم والمبادئ الفردية السامية، ولايخاف فى الله لومة لائم!.

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»[1].

وقال على(ع): «و إنى لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم، ولكنّى لاأرى إصلاحكم بافساد نفسى»[2].

قال الشاعر ما معناه: العمر معلّق بشعرة، فاحذر وانتبه، وكن مهموماً مغموماً على نفسک، ولاتغتم على الدهر ۲!.

وينبغى التأكيد والإشارة إلى: أن الظروف الاعتيادية التى يمكن فيها طلب وتحصيل كل من هاتين القيمتين الثمينتين، لايؤدى إلى الوهن والضعف، أو التقصير فى الأداء والعمل، أو التقاعس عن القدرة والقابلية معاً، بحجة الأخلاق والتقوى والقيم والمبادئ المعنوية، أو التخلف والتراجع عن تهذيب الفردى للنفس بحجة الحضور والتواجد الاجتماعى وتسهيل الخدمات.

إن الاهتمام والتأكيد على المسؤوليات الاجتماعية والعمل بها، له أهمية بالغة ومنزلة خاصة لايمكن استبدالها بالعبادات الفردية، ولايمكن التراجع عنها بحجة الانشغال بعبادة الله.

لقد كان الإمام الكاظم(ع) سجيناً فى سجن هارون الرشيد وظلم المطامير المخيفة، وزنزاناته الرهيبة، وكان(ع) ممنوعاً عن إقامة أية علاقة وصلة أو ارتباط خارجى واحتكاک بالناس، فكان يناجى ربّه فى تلک الظُلم قائلا: «اللهم إنّک تعلم أنى كنت أسألک أن تفرغنى لعبادتک، اللهم وقد فعلت، فلک الحمد»[3].

ويفهم من هذا، أنه لايجوز للإنسان إتلاف وقته وإضاعته، وهدر قواه وطاقاته فى المجتمع بأمور العبادة وحدها، فما دام هذا الإنسان قادراً على اختيار العمل الاجتماعى، والتأثير على المحيط والبيئة التى حوله، فإن عليه مهام ووظائف خطيرة ومسئوليات شاقة ومحن وابتلاءات ملقاة على عاتقه، تصدّه عن العبادة الفردية الفارغة عن العمل، والرهبانية والعزلة المحضة، والأنس والتفرّغ وحده بالله تعالى[4].

---

[1] المائدة: ۱۰۵.

[2] نهج البلاغة، الخطبة ,۶۹

۲پيوند عمر بسته به مويى است هوش دار غمخوار خويش باش غم روزگار چيست؟

[3] الإرشاد، ج ۲، ص ۲۴۰.

[4]. ينبغى تصور وجود هذا النوع من التزاحم بين التكامل والتكاليف الاجتماعية، لأن تكامل الإنسان إنما هو فى عبوديته، وتتحقق عبودية الله فى أداء مهامه ومسؤولياته، فلو امتلک الإنسان مسؤوليتين،هما: المسؤولية الفردية والمسؤولية الاجتماعية، وموازاة كل منهما للأخرى، فسيكون نموه حاصلاً فى كلا الجانبيين، وينبغى أن لايكون أحدهما مانعاً عن تحقيق الأخرى. قال تعالى: «إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْکَ قَوْلًا ثَقِيلًا»

الإنسان المؤمن كما يسعى لتحقيق شعار «الإنسان المثالى الإسلامى الكامل» على صعيد كيانه الفردى، يسعى أيضا لتحقيق «المجتمع النموذجى المثالى الإسلامى المتكامل» وهذا يفرض عليه أن يمتلک مهارات وكفاءات لازمة وعالية فى هذا المضمار.

إن المطالبة بزيادة القابليات والقدرات، وتوفر الكفاءات اللازمة للقيام بإنجازات كبرى على مستوى الطموح، والاستعداد والتهيؤ لإيجاد تحوّل وتغيير عظيم فى المجتمع، أو عرض خدمات نموذجية وتسهيلات شاملة فى أوسع نطاق... هى كلّها لاتعنى التظاهر المزدوج فى التعامل، بل التعاليم الإسلامية توصى بها.

ويسعى شيعة على(ع) فى مرحلة انتظار الفرج – الذى يعدّ من أفضل الأعمال والعبادات – إلى التحضير والتمهيد لإقامة دولة الحق المهدوية العالمية الكبرى، ليكون منهم قادة مثاليون عند حضور الامام المعصوم وظهوره(ع)، والذراع القوية والنشطة فى تطبيق العدالة ونشر التوحيد. وسيكون مثل هؤلاء القادة المثاليين، وتناسباً مع أبعاد التأثير الاجتماعى، ومستوى الخدمات التى يقدمونها فى المجتمع، محلاً لاهتمام ونظر الإمام المهدى «ع» ورضاه. روى عن فاطمة الزهراء (ع) أنها قالت: «سمعت أبى رسول الله(ص) يقول: إن علماء شيعتنا يحشرون، فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم، وجدّهم فى إرشاد عباد الله»[1].

ولتوضيح أكثر نذكر هنا مثالا من حكومة غير المعصوم:

كان الامام الخمينى (قدّس سرّه) راضياً عن الشعب الإيرانى فى ثورته المباركة، بعد بزوغ فجر الثورة الإسلامية فى إيران، وكان يعتزّ ويفتخر بهم على العالم بأجمعه، إلا أن رضاه عن بعض الشخصيات كالشهيد بهشتى ومطهرى لايمكن مقارنته برضاه عن آحاد الشعب الإيرانى وعوام الناس!. فقد كان افتقاده للشهيد بهشتى ومطهرى هو بمستوى افتقاده الأمة بأسرها! كم كان وقعه حزيناً وموجعاً لقلبه!!. ربما تقع حادثة مروعة فى العالم، يموت فيها آلاف البشر الأبرياء العاديين، إلا أن استشهاد هذه الشخصيات العظيمة والخالدة كبهشتى ومطهرى كان له وقعاً كبيراً، مؤثراً وعنيفاً جداً على الثورة الاسلامية فى ايران. فلايقدر فيها حجم الخسارة والألم والأسى والحزن الذى ألّم بقلب إمام الأمة–الإمام الخمينى قدّس سرّه –!!.

لقد أوصى الإسلام الأمة الإسلامية بالحذر الشديد من مؤامرات الأعداء، وضرورة رصّ صفوفها، واستعدادها لمواجهة الكفار وأعداء الإسلام، الذين يتربصون بها الدوائرللإساءة إليها، وللإسلام وقيمه السامية، قال تعالى: «وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ»[2].

(المزمل: ۵ –۷). فلو تم تنظيم أوقات الإنسان وبرمجة حياته ومشاريعه، بطريقة تصدّ عن العطاء والكمال الاجتماعى، أو عن أداء المسؤولية والوظائف فى المجتمع، فهذا مما لايأمر به الدين، وهوغير مطلوب أبدا.

[1] بحار الانوار، ج ۲، ص۳.

[2]. الأنفال:۶۰.

تؤكد هذه الآية على ضرورة الاستعداد والتجهيز العسكرى، وكذا الاستعداد والتحضير للحرب وتطوير الآلة العسكرية ؛ لمواجهة كافة التحديات.

ويشمل الإعداد العسكرى المذكور فى الآية مفاهيم كثيرة أخرى: كالقدرة والتسلّح، والكفاءة العلمية، والإدارة، والقدرة الثقافية، وأنواع المهارات، والتسلّط على البيان وفنّ الخطابة، والقدرة على التـأليف والكتابـة، والـتكهن والفطنـة، وصـنع القرارات....

ولاتتحقق هذه كلّها إلا ببذل الجهود والمساعى الحثيثة والمضاعفة، والتضحية بالراحة وحياة الرغد والعيش الهنىء.

إن استعمال مصطلح «الجهاد» فى القرآن، الذى يرتبط غالباً بلفظة «فى سبيل الله»، ويتقيد بـ«الأمـوال» و«الأنفـس» تصريح بضرورة تحمّل الصعاب، وبذل الغالى والرخيص، والتضحية بالاستقرار والراحة لتحقيق الأهداف[1].

---

[1]. ينبغى الإشارة هنا إلى أن نظام القيم والمبادئ فى الإسلام عدّ قيمة «الشهادة» بمعنى معاملـة الـنفس برضـا الله، ونبـذ المـال والممتلكـات والأحبة والولدان للقاء المحبوب، وتحصيل رضاه. وهذا فى نفسه نوع من التكافل الاجتماعى وتقديم الخدمات. وليس «الشهادة» بمعنى إتلاف الأموال والأنفس والثمرات، وإلقائها فى التهلكة، أو خسارتها!، فدم «الشهيد» يتكفّل بضمان عمل وإنجاز عظيم فى المجتمع الإسلامى، ويتبعـه فوائد وإنجازات كثيرة. إن دم «الشهيد» صيانة وضمان للقيم والمبادئ الإلهية، وإبقاء دين الله، فالطريق المغلق والمسدود لايفتحه إلا اسـتنزاف الدم، وسينتصر الدم على السيف أخيراً. فاذا لم تترتب النتائج والآثار والإنجازات على الدم، ولم تكن هناك فوائد وثمار مترتبة –كما يليق به –، ولم يتحقق من إراقه الدماء والقتل سوى أهدار الوقت وإضاعة ثواب العمل (كما حصل ذلك مع الامام الحسن المجتبى(ع) فى صـلحه مـع معاوية والظروف التى مرّ بها الامام(ع) فى تلك الفترة)، فسيكون طلب الشهادة هنا غير مطلوب هنا وغير نافع.

ومن جهة أخرى: كلما كانت الشهادة مطلوبة، فعلى المجاهد فى سبيل الله قبل بذل نفسه والتضحية، أن يدبّر ويقـدّر ويبـرمج بـأىّ نحـو مـن الأنحاء، ليكون هناك ثمار وبركات أكثر، كما حصل فى كربلاء، عند أخذ الإمام الحسين أهله وذريته معه، وتضحيته بطفله الرضيع فداء لثورته، ولم يبلغ من العمر سوى سته أشهر، عطشاناً ضمآناً بشفاه ذابلات، واستشهاد الامام الحسين(ع)، فبقيت هذه الثورة خالدة فـى ضـمير التـاريخ للأجيال القادمة لكافة أحرار العالم.

الفصل الثانى: كيف؟

ذكرنا فى البحث السابق ملامح، وصورا واضحة عن المقصد النهائى لحركة الإنسان وعرضنا تقريراً موجزاً عن قيمة الإنسان ورتبته التكاملية، وأهميته ودوره فى الحياة فى مجالات مختلفة.

أما فى هذا الفصل، فهنا تساؤل يطرح نفسه، هو:

هل الوصول إلى الكمال الإنسانى أمر ممكن لنا؟

«فالجهة» التى شخصت لنا على أنها مقصد ومنتهى لحركة الإنسان، بعيدة جداً، لايمكن العثور عليها، أو الوصول لها.

ولاشک أن مشاهدة القمم الشاهقة فى النظرة الاولى تزرع فينا حالة من اليأس والقنوط، وتجعل الوصول إليها منذ البداية أمراً مستحيلاً، فتصدنا عن الحركة باتجاهها، وتمنعنا عن السير فى هذا الطريق.

فما هو أقصر طريق للصعود إلى تلک القمم الشاهقة، والوصول إليها؟!.

لقد أثبتت التجارب العديدة والاختبارات المتنوعة فشل الإنسان وضعفه، بل عجزه فى تحدّى ومواجهة هوى النفس، وقد أدّى به ذلک إلى الانحراف والسقوط فى مواطن الفساد والفتنة.

فما هى البرامج والآليات، والخطط المتبعة فى هذه المرحلة للحركة لإنقاذ الإنسان وانتشاله من هذا الوحل النتن والمستنقع العفن؟! والارتقاء به وإيصاله إلى الهدف المنشود! بأقصى سرعة، وأقل وقت ممكن، دون عناء وكلفة باهضة؟!

كلّنا يعلم أن الأوساط والأجواء الروحية، وظروف الحياة والبيئة التى يعيشها الإنسان بتنوع طقسها، هى مختلفة ومتنوعة جداً، ولهذا يستحيل فيها عرض مشروع منسجم ومتكامل، مفيد ومشترک بهذا الحجم الواسع والكثافة، ليعمّ ويشمل كل مراحل الحياة، وتمام الأجزاء وصغار الأمور فى الحياة، لتكون فى متناول البشرية وخدمتها.

إلا أنه يمكن عرض فهارس ونماذج توضح بعض الأصول فى برامج متعددة هى أكثر تأثيراً على حركة الإنسان باتجاه تحقيق الأهداف. فالاتجاه نحو هذه الأصول ورعايتها، له دور هام وأساسى فى حركة الإنسان فى الحياة ؛ لأن البرمجة السهلة والواضحة، واختيار الأساليب والقوالب المناسبة ستساعدنا كثيراً فى إدارة النفس وترويضها وتربيتها.

تقدم فى الفصل السابق «هدف» هذه الحركة، والإجابة عن هذا السؤال وهو:

الى أين الاتجاه؟ وأين ينبغى الذهاب؟

أما فى هذا الفصل، فسنحلل «أساليب» الحركة، ونكشف عن سرّ «السعادة» للإجابة عن سؤال:

«كيف نتجه؟» أو «كيف يمكن الذهاب؟».

ونحاول من خلال بذل هذا الجهد، العثور على «طريق السعادة» هنا، ومعرفة المسير الموصل لها.

لقد عرضنا فى ذلک الفصل تصويراً متكاملاً عن أبعاد وجوانب الكمال لدى الإنسان، أما فى هذا الفصل، فسنعثرعلى هذا المسير المؤدّى لتلک القلل الشاهقة والقمم العالية، وسفوحها البعيدة واللامتناهية، لكن لايمكن رسم هذا المسير بصورة

جزئية، خطوة بخطوة!!، إلا أنه يمكن التعرف على الخطوط الرئيسية المتسعة التى تشكّل عصب الحياة، وتمثّل الشواخص الأصلية لهذا المسير بعدّة أصول، وهى كلّها مفيدة ومؤثرة فى المضى والاستمرار على هذا النهج، وهى:

الأصل الأول: الاستعانة والاعتصام

ليست المسافة بين الله والعبد هى مسافة بعيدة، فقد ورد فى الدعاء المروى عن أبى حمزة الثمالى عنه(ع) أنه قال: «إن الراحل إليک قريب المسافة»[1]. وإن الطريق الذى يسار فيه هذه المسافة هو أقصر طريق بين هذين الاتجاهين، وهو طريق واضح المعالم وقصير. روى فى دعاء الجوشن الكبير عنه(ع) أنه قال: «يا من سبيله واضح للمنيبين»[2]، وهو الصراط المستقيم.

إلا أن المضى فى هذا الطريق شاق وصعب للغاية، لأن الصراط المستقيم هو «أحدّ من السيف، وأدقّ من الشعرة» كما روى ذلک عنه(ع)[3]. والحركة فى الصراط المستقيم تستلزم المضى فى مثل هذا المسير، والإصرار والثبات فيه، والتمسک به، وقد عبّروا عنه بجهاد «النفس والهوى»، وفى لسان الأخبار والروايات بـ«الجهاد الأكبر»[4]. فالجهاد الأكبر يعنى الحضور والتواجد فى الساحات والميادين العامة، والمشاركة فى كافة المجالات.

ويعنى تعريض النفس لضربات السيوف، والعيارات النارية، وألهبة النيران والبارود والدخان، وإطلاقات الرصاص، وقذائف المدافع والهاونات، وخطر العبوات الناسفة، والأفخاخ المصطنعة، كما يعنى مواجهة عدو شرس هو أخطر بكثير من مواجهة عدو بحشود وأعداد بشرية، وذلک هو العدو الجبار القهّار المخادع المكّار[5].

وفى هذه الظروف والأجواء المضطربة. ماذا على الإنسان أن يفعل؟ ومن القادر على احتمال هذا العدو ومواجهته ولو لحظة واحدة، ويداوم عليه؟! وهل هناک أصل فى الخلاص، عدا الامداد الغيبى، والتشبّث بالقدرة الإلهية؟!

قال تعالى: «وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»[6]، وقال(ع): «فإنه لاينال ذلک إلا بفضلک»[1]، وقد صرّح سبحانه وتعالى بذلک فقال: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا»[2].

---

[1] من دعاء لأبى حمزة الثمالى، إقبال الأعمال ، ص٦٧.

[2]. من دعاء الجوشن الكبير، مصباح الكفعمى، ص ٢٥٧، وكذا مفاتيح الجنان.

[3] الكافى، ج ٨، ص٣١٢.

[4] روى عن النبى(ص) أنه بعث سرية، فلما رجعوا قال: «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقى عليهم الجهاد الاكبر. فقيل له: يا رسول الله، ما الجهاد الأكبر؟ قال(ص): جهاد النفس». وسائل الشيعة ، ج ١٥، ص١٦.

[5] روى عنه النبى(ص) أنه قال: «أعدى عدوک نفسک التى بين جنبيک» (ميزان الحكمة، الحديث ١٢٥٧). وقال تعالى: «هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين» القصص: ١٥.

[6] آل عمران: ١٠١. وقال تعالى: «وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا» (آل عمران: ١٠٨). وقال أيضاً: «يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا» (البقرة: ٢٥٦).

وبهذا البيان، يمكن رفع شبهة من يدعون لأنفسهم الطهارة والنزاهة! وأنهم قادرين على هداية الإنسان لوحدهم!، فالله برحمته وفضله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم، فبدون رعاية الله وإرادته، ليس لأحد من الخلق – حتى النبى (ص) دون استثناء – القدرة على هداية الإنسان. فهذا النبى(ص) المبعوث رحمة للناس أجمعين وهو أكرمها وأفضلها، وحبيب الله، ومن أراد ربّ العالمين إرضائه وإكرامه، الذى قال عنه سبحانه وتعالى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»[٣] وقوله أيضاً: «فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا»[٤]، فإن هذا النبى الذى له هذه الصلاحيات، تراه يسمع خطاب ربّه بقوله: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء»[٥]، وقوله أيضاً: «لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء»[٦]، وقول سبحانه: «إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ»[٧].

فينبغى التأوّه والاعتذار هنا من أعماق القلب والوجدان، والدعاء بلسان المعرفة، والقول بصدق: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ» [٨].

وعلينا الاستغاثة بهذا الدعاء: «يا مقلب القلوب والأبصار.. يا محول الحول والأحوال، حوّل حالنا إلى أحسن الحال».

ومن ثمّ الشكوى إلى الله الرحمن من ضعف أنفسنا ووهنها، وقوة عدونا ونفوذه، والاعتراف له سبحانه بهذه الحقيقة، وهى قولنا: «من أين لى الخير يا رب، ولايوجد إلا من عندك، ومن أين لى النجاة ولايستطاع إلا بك»[٩]، وقولنا: «إلهى إليك أشكو نفساً بالسوء أمّارة، وبالخطيئة مبادرة»[١٠].

فكمال الإنسان هو فى شعوره بالعجز، وإظهار الضعف والوهن أمام الخالق البارئ المصوّر. وما دام أن هذا الإنسان لم يتوجه نحو الله!، ولم يتضرع إليه، ولايتوسل به سبحانه، ولايضع جبهته على الأرض ساجداً له!، فليس عليه أن يدعى أنه عبداً لله!.

---

[١] مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

[٢] النور: ٢١.

[٣] الضحى: ٥.

[٤] البقرة: ١٤٤.

[٥] القصص: ٥٦.

[٦] البقرة: ٢٧٢.

[٧] النحل: ٣٧.

[٨]. الحمد: ٦.

[٩]. دعاء أبى حمزة الثمالى المروى عن الإمام السجاد(ع)، مفاتيح الجنان.

[١٠] مناجاة الشاكرين، المناجاة الخامسة عشر للإمام السجاد(ع)، مفاتيح الجنان.

إن من يغتر بنفسه، ويرى أنه قادر على كلّ شيء، وأن كلّ شيء يخضع لإرادته وسيطرته، ونفوذه وأمواله واستثماراته، ولايرى أيّ تدخل ليد القدرة الإلهية المدبرة القادرة فى الأمور، فقد صيّر نفسه شريكا للبارى، ومعبوداً آخر ليعبد!!. ومن يرى قيمة لقواه وكفاءته من دون الله، ويظن أنه قادر بهمته وإرادته لوحده مستقلاً على الرقى والسمو بنفسه من دون استعانة بالله، وأنه قادر على صنع المستحيل والإعجاز!، فهو مخطئ مخرّق، ومختلّ العقل.

وهذا الإنسان المغرور بعيد فراسخ وأميال ومسافات شاسعة عن «العبودية»، وعليه أن يعود ثانية لرشده، ويرجو من الله، ويدعوه بفنون الدعوات، والإكثار فى الطلب منه سبحانه، وعليه أن يبطل ما حاكه لنفسه، ويخيّب رجاءه وظنّه، ليعرف أن أمور العالم هى ليست فى قبضته ونفوذه وسيطرته!، بل عليه أن يواجه الأمور الصعاب، ويواجه المشاكل والآلام، والعراقيل الجسام، ليخرج عن حالات الغرور والأنانية، ويتجه نحو الله، داعياً له، خالصاً له فى نيّته، متضرعاً ومتوسلاً إليه[1].

وإن عليه أن يجرّب كافة السبل والأساليب التى تؤدى به إلى الهزيمة والفشل والضياع ؛ ليرى قدرة الخالق المطلق، والحاكم المتصرّف بهذا العالم حقّاً، فيعقد عليه آماله وعزائم أموره.[2]

وعليه أن يتعب نفسه، ويتحمّل المشاق، ويقطع أمله ورجاه بنفسه، ويعترف من أعماق وجوده وضميره: بأن قيامه وقعوده وركوعه وسجوده، هو كلّه بحول من الله وقوته[3].

أليس كمال الإنسان محصوراً فى هذه المعرفة، وليس عداها شيء؟! هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: علينا أن نعلم أنّ هداية الإنسان لاتكون إلا بفضل الله ورحمته، وقد أوجبت عطفه ورحمته[4]، وضمن لعبده الإجابة[5]، فمن أصدق من الله قيلاً، وأوفى عهداً.

إن هذه المتاعب والصعاب التى يواجهها الإنسان فى مسيرة حياته، هى كلّها من كرم الله ولطفه بالإنسان. ليسوقه إلى الأمام، ويوصله إلى الكمال، من خلال هذه التجارب، فالتضرع والاستكانة هى عين الإجابة، لأن المناجاة وعرض الشكوى على الله، ناتج عن المعرفة بقدرة الله عز وجل، وحاجة الإنسان إليه.

وهذا الطلب والتوسل هو عين «العبودية»، وإن هذا الانفتاح والتحاور مع الله هو غذاء مكمل لأرواحنا، كما أنه منعش لصدورنا، ومزيد لإنسانيتنا، وفى نفس الوقت يقلّل من نفوذ الشيطان وسيطرته على نفوسنا، وتسخيره لأرواحنا[6]. وأما

---

[1] قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ الا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ» (الاعراف: ۹۴).

[2] قال على(ع): «عرفت الله بفسخ العزائم، وحلّ العقود، ونقض الهمم» (نهج البلاغة، الكلمة ۲۵۰). وقال (ع): «العبد يدبّر، والله يقدّر».

[3]. قال تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى» (الانفال: ۱۷)، و «بحول الله وقوته أقوم وأقعد».

[4] قال تعالى: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» (الانعام: ۵۴).

[5] قال تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (غافر: ۶۰).

[6] قال تعالى: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءامَنواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (النحل: ۹۹).

الفشل والهزائم التى واجهها الإنسان فى حياته، فهى من شأنها أن تكون منصّة لانطلاق الإنسان، وتحرره من أغلال الشرك وقيود الانحراف، وتساعده على تهيئة وإيجاد أجواء الحركة والسير إلى الله.

الأصل الثانى: الهمة والعزيمة العالية

معنى أن يكون الإنسان ذا همة عالية هو: كونه بإمعانه النظر إلى القلل الشاهقة، يأمل فى الوصول إليها، ويسعى على إبقاء هذا الأمل حيّاً ومتوهجاً فى القلب.

والهمة العالية تعنى: عدم الرضا بالقليل! وطلب المزيد من الحركة والفاعلية والنشاط!.

والهمة العالية والعزيمة تعنى: بذل كافة الجهود والمساعى للوصول إلى أبعد نقطة فى تلك القمم الشاهقة، والمرتفعات العالية وسفوح الجبال.

أى: رفض الاستكانة، وعدم الرضا بالوضع الراهن، بل البحث عن وضع أفضل، فمن يرضى ويزهد بالقليل، سرعان ما يتوقف عن الحركة، وهذا يتنافى مع أصل الخلقة والكون، كما يتنافى مع ما طلب منا، وهو: الوصول إلى أعلى الأهداف وتحقيق الطموحات والغايات فى الحياة، وعدم القناعة بالوضع الموجود، فنكون عند ذلک «الأفضل»، من خلال الاستعانة على الله والعزم الراسخ[1].

وقد وصف القرآن الكريم «عباد الله» فأثنى عليهم فى آيات عديدة ومواضع كثيرة، فقال: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ....اَلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا»[2]. فليس رغبة عباد الله هى: فى طلبهم عدم الدخول فى جهنم، أو عدم الاحتراق والصلىّ بها، أو الخلاص من عذاب الله وحده!، فلايرضى العبد أن يكون متقياً فحسب، بل همته وعزمه هو: أن يكون أسوة وقدوة صالحة للآخرين، وعبرة للمتقين الأحرار، ويكون بحالة يغبطها عليه الصلحاء وأهل الصدق والأمانة والوفاء، لتتجه أنظارهم إليه.

إن الخلاص من غضب الله وعذابه، ومن سخطه ونار جهنم وحده، لايتطلب همة عالية لأن الأطفال غير البالغين والمجانين والبهائم أيضاً لايمسّها غضب الله وسخطه.

إن «الإنسان» يمتلک استعداداً قوياً، وقابليات عالية فى أن يكون خليفة لله، ويكون قادراً على الوصول إلى قرب الله ورضوانه، فلماذا يكون قصير النظر، وذو أفق ضيّق ومحدود؟!، بل ذو همم دنيئة؟!.

---

[1] ذكر القرآن الكريم من بين الانبياء، إبراهيم(ع) ومحمد(ص) كأسوة وقدوة. قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (الاحزاب ٢١:٣٣). وقال أيضاً: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ» (الممتحنة: ٤). ونهى عن اتخاذ يونس النبى(ع) أسوة وقدوة، لأن الأسوة والقدوة يجب أن يكون الأفضل من غيره. قال تعالى: «وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ» (القلم: ٤٨).

[2] الفرقان: ٧٤.

ورد فی زیارة الأئمة المعصومین(ع) الجامعة: «و اجعلنی ممّن یقتص آثارکم، ویسلک سبیلکم، ویهتدی بهداکم، ویحشرفی زمرتکم، ویکرّ فی رجعتکم، ویملّک فی دولتکم، ویشرّف فی عافیتکم، ویمکّن فی أیّامکم، وتقرّ عینه غداً برؤیتکم، بأبی أنتم وأمّی ونفسی وأهلی ومالی».

ونتعلّم من خلال مقتطفات هذه الزیارة وفقراتها دروساً فی شحذ الهمة وقوة العزیمة. فما نطلبه نحن من الله هو لیس الأمان من غضب الله، ورضا الأئمة(ع) عنا، أو اللقاء بهم، فهذا لیس کافیاً ومرضیاً لنا، ولانقتنع برضاهم عنّا وحده، بل هممنا وعزائمنا هی أن نکون من أنصارهم وأعوانهم، وأشیاعهم المخلصین لهم، ومن خواصّهم [1]، وأن نملّک فی دولتهم، وتعمّنا رعایة الإمام المهدی(ع)، فنختص بها بنظرته الرحیمة، ونتشرف فی عافیته، ونمکّن فی أیّامه(ع)، لتتحقق القضایا العادلة والمثل العلیا، فیحلّ العدل والمساواة والسلام فی کافة مجتمعات وشعوب العالم، ونستظل بدولته العالمیة الکبری، ونحلّ مشاکلنا بأیدینا، ونعالج همومنا وقضایانا المستعصیة، کما کان ذلک لمالک الأشتر مع أمیرالمؤمنین(ع).

ولو قمنا بمقارنة موجزة للشهید بهشتی والإمام الخمینی(قدس سرهما)، کما قارنا مالک الأشتر مع الإمام علی (ع)، فنقول بإیجاز:

لقد کان الإمام الخمینی راضیاً عن الشعب الإیرانی، وکان یفتخر بهم علی شعوب العالم، لکن استشهاد بهشتی کان یعنی له «قدس سرّه» فقدان الأمة بأسرها، لثقل المصیبة وهول الفاجعة التی ألمّت علی قلبه الشریف.

نعم، کانت حادثة استشهاد بهشتی ومطهری أمراً مؤسفاً ومحزناً للغایة، فرضا الإمام الخمینی (قدّس سرّه) عنهما، یختلف تماماً عن رضاه عن عامة الشعب.

وکذلک الامام المهدی(ع) بعد ظهوره، فإنه بحاجة فی رتق وفتق لأمور المجتمع وإدارة شوؤنه العامة بسواعد قویة، وطاقات جبّارة، وکفاءات فکریة واعیة ومتدینة، وقوی تنفیذیة، ومدراء أکّفاء! لیکونوا للإمام المهدی الطلیعة الواعیة فی هذه المسیرة، وعناصر تشکیل حکومته وکادره الفنّی فی ثورته العالمیة الکبری، فظهوره (عج)متوقف علی حضورهم وتواجدهم.

إذن دعاؤنا فی تلک الزیارة هو: الاستعانة بالله، لنکون فی عداد العظماء، ومن عمال دولته العالمیة، ولنا شأناً ومکانة فی قلبه وبصره، فنتشرّف فی عافیته، ونمکّن فی أیّامه ودولته.

وبعد التقدم بهذه الطلبات والرجاء، نتمنی مشاهدة ذلک الوجه المشرق، والضیاء اللامع، والطلعة البهیة، الآخذة بمجامع القلوب والأبصار، فنخاطبه کما جاء فی زیارة الأئمة المعصومین(ع): «و تقرّ عینه غداً برؤیتکم». ونحن نعلم أن الوصول إلی تلک الرتب والدرجات العالیة، لاینالها الا من له حظّ عظیم، ممن لایهمه جمع المال، وإبقاء النفس، بل علیه التضحیته

---

[1] روی فی زیارة الجامعة قوله (ع): «من خیار مواليکم»

بكل ما يملک، وأعزّ الخلق لديه: أبيه وأمه، وأسرته وولده، وقد جرّد قلبه من حبّ الدنيا، وأسر الشهوات، وكلّ التعلّقات المادية، فيخاطبهم: «بأبى أنتم وأمى وأهلى ومالى».

فلو اتخذنا الرسول الأعظم (ص) كما جاء ذكره فى القرآن أسوة وقدوة[1]، وكذلک اتخذنا الأئمة المعصومين(ع) قادة لنا فى حركتنا، فسوف لن نرضى حينئذ بما نحن فيه أبداً، ولن نشعر بالاستغناء، بل نسعى دوماً نحو الأفضل، ونبذل جهوداً مضاعفة وحثيثة بهذا الاتجاه، للوصول إلى الأهداف المرجوة.

وهذا الاعتقاد ألا وهو: كون المناط وميزان الأعمال يوم القيامة هو عمل على بن أبى طالب(ع)، سيضطرنا إلى إكمال العمل كمّا ونوعاً، فنبذل جهوداً، ونشحذ هماً أكثر فى السير بهذا الاتجاه، ولانرضى بما نحن عليه من واقعنا الراهن، ولانغترّ بأفعالنا.

روى كميل بن زياد عن أميرالمؤمنين(ع) أنه قال: «و اجعلنى من أحسن عبيدک نصيبا عندک، وأقربهم منزلة منک، وأخصّهم زلفة لديک»[2]، وروى عنه(ع) أيضاً: «إلهى هب لى كمال الانقطاع إليک»[3].

سؤال: هل يكون اختيار الهدف الأسمى، البعيد المدى والمترامى الأطراف، مانعاً عن العمل به، والإقدام نحوه أم لا؟

فنقول: إن من يتجه الى جهة بعيدة، لايمكنه الوصول إليها، فليس له أمنية وأمل فى الوصول، وسيقف عن الحركة والسير بذلک الاتجاه.

لكن ألا يكون من الأنسب للإنسان أن ينسى التفكير فى الوصول إلى تلک الدرجات العلى، والصعود على تلک القلل الشاهقة والمرتفعات العالية، ويرضى ويقنع بالحلول الوسطى والراهنة؟!

الجواب: ليس المراد بالتوجه نحو القلل الشاهقة والمرتفعات العالية هو الصعود عليها والتواجد فوقها ؛ لأن المتسلّق الماهر الناجح هو الذى يطمح فى الوصول إلى القمم الشاهقة والمرتفعات العالية، لكنه فى كل لحظة يخطو خطوة واحدة فقط الى الأمام!، فكذلک هى معرفة الإنسان الكامل، والإسراع للقرب من هذه المعرفة والوصول إليها، فهى تشابه هذا النظر إلى القلل الشاهقة والمرتفعات العالية. إلا أن التواجد فوق سفوح الجبال والقمم الشاهقة والمرتفعات العالية بغتة دون سابق مقدمات!، هو مجرد أضغاث أحلام جميلة، لايمكن تفسيره، بل أمنية بعيدة لايمكن تحقيقها!!.

فمن الضرورى هنا: وضع برامج وخطط فنية وعلمية دقيقة للوصول إلى الأهداف المرجوة والمطلوبة، والمثل العالية والمبادئ السامية والقيم الراقية، التى تتناسب مع الكفاءة والقدرة، ورعاية الأصول والقرارات تدريجياً.

---

[1] قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (الأحزاب:٢١).

[2] انظر مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

[3].انظر مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية.

ولا شک أن معرفة حجم مسئولیاتنا ومستوی قابلیاتنا فی کل مرحلة هی «خطوة نحو الأمام فی هذا المسیر». فمن أراد أن یرفع الاثقال وهو فی بدایة الطریق دون أی تمارین مسبقة، سیؤدی به ذلک فی النتیجة إلی أضرار وخیمة، وخسائر فادحة، وتعرضه لإصابات فی عموده الفقری، وفقدان قوته وتوازنه، وهدر قدرته ونشاطه، فیلزم فی هذه الحرکة هنا أمران هما:

١- النظرة المثالیة أی: اختیار المثل الأعلی.

٢- البحث والمطالبة بالمثالیة أی: الانشداد الی المثل العلیا فی مقام النظر، والواقعیة فی مقام العمل.

والملاحظ أن الانشداد الی المثل الأعلی من شأنه أن یصحح جهة حرکتنا، ویضمن استمرار مسیرتنا، لانه یقضی علی روح الرضا والقناعة بالوضع الموجود، وحالة الشعور بالاستغناء، والنظرة الواقعیة ومعرفة القیود والأحجام أیضا تمنع عن ظهور حالات الیأس والقنوط والفشل.

الأصل الثالث: العمل

المعرفة للعمل

الإنسان المتألم الذی واجه کثیراً من حالات الإبهام والغموض والرموز المجهولة، وانتظر صدور الکثیر من القرارات والقوانین فی إطار العمل، کیف یرید أن یستفید منها ویستثمرها؟

ألم یکن یبحث عن الطریق، لیتحرک باتجاهه بعد ذلک، وبعد استلامه لتلک الأوامر والقوانین، ینفذها؟

فإن لم یکن کذلک، ولم یکن بصدد العمل بها، فإن معرفته بالأمور بهذه الکیفیة تضحی عبثاً ولغواً.

فمن لاینوی العمل والحرکة، لماذا یهدر کثیراً من وقته وفکره ونشاطه فی البحث عن خارطة الطریق؟! بل کان الأحری بذلک: أن یبقی فی نومه وسباته، وجهله وغفلته؛ لان العلم مقدمة للعمل، والعمل نتیجة للعلم. قال علی(ع): «ثمرة العلم العمل به»[١].

«یتعاطی ویتفاعل بعض الناس مع الوعظ والخطابة التی هی مقدمة العمل الصالح، معاملة ذی المقدمة، فیکون الأمر الصادر هو: یقولون، ویسمعون، لأجل أن یقولوا ویسمعوا!! وهذا خطأ واضح، فالتعلیم والتعلّم مناسب للعمل، ولیس مستقلاً»[٢]. والهدف من هذا التحذیر: حتی لایظن الإنسان أن «العلم» وحده کاف، فطلب العلم ومعرفة خارطة الطریق هو بدایة المسیر ولیس نهایته، فعلی کل أحد حینئذ اتخاذ هذا القرار وهو: «أن ما یتعلمه، علیه أن یعمل به» ویبقی ثابتاً ومصراً علی هذا القرار وموقفه، صادقا فی وعده وتطبیقه.

---

[١] غرر الحکم: ۴۶۲۴.

[٢] العلامة العارف آیة الله العظمی بهجت (رحمه الله)، به سوی محبوب،ص ٣٥.

إذا علمت فاعمل

إن من ينوى من خلال العثور على ضوابط العمل، لينظم برنامج حياته على ضوئه، والمضى الى الأمام، سيواجه هذا السؤال وهو:

عندما حصل لک القطع بالوظيفة ومعرفة التكليف، وعلمت يقيناً وبالتحديد: الباعث الذى يسوقک إلى الكمال، هل عملت به، لتفكّر فى أمر جديد آخر؟

إن مفاهيمنا ومعتقداتنا اليقينية هى كافية للبدء بالحركة والسير، وأن العمل بهذه المفاهيم والمعتقدات يوضّح مدى ثقتنا وصدقنا فى ادعائنا وقراراتنا.

روى أنه نقش على خاتم الإمام الحسين(ع) قوله: «إذا علمت فاعمل»[1].

وقال الإمام على(ع): «على العالم أن يعمل بما علم، ثم يطلب تعلّم ما لم يعلم»[2].

وقال أيضاً: «إنكم إلى العمل بما علمتم أحوج منكم إلى تعلّم ما لم تكونوا تعلمون»[3].

«نسأل السادة الذين يطلبون منا المواعظ: هل عملتم بالمواعظ والنصائح التى سمعتم بها لحدّ الآن؟ فإن لم يعملوا بالمعلومات – اختياراً – فهل من اللائق توقع زيادة المعلومات؟!»[4].

«إن من قرّر لنفسه فى المستقبل: أن كلّ ما يتعلّمه يعمل به، فليعد إلى الماضى ليرى ماذا تعلّم؟ وعليه أن يعمل بمقدار ما تعلّمه.

وكلّ من اعترف أن العلم مقدمة للعمل، والعمل هونتيجة للعلم، فعليه أن يتم هذا الحجم الكبير من تلک المقدمات التى جمعها، ولم يصل بها إلى النتائج المطلوبة، فيوصلها إلى نتيجة، ثم يبدأ بعمل جديد آخر.

إن طريق الله واضح وقويم، قال (ع):«يا من سبيله واضح للمنيبين»[5]. لذا علينا أن لاننتظر مجيء أستاذ خبير ليصدر إلينا وصايا خاصة لم يكن قد بيّنها نبىّ أو إمام أو عالم ربّانى من قبل، ولم يسبق له نظير وذكر فى قرطاس أو كتاب»!!.

اعمل كل ما تعلمه، ولاتعمل ما لم تعلم

أوصى كبار أهل العلم والعمل الناس بأن يختاروا فى حركتهم مسيراً آمناً مطمئناً، قوياً وراسخاً، وينظموا كافة أعمالهم وأنشطتهم على ضوء «العلم واليقين».

---

[1] إرشاد القلوب، ص١٥١.

[2] غرر الحكم: ٦١٩٦.

[3] غرر الحكم: ٣٨٢٦.

[4] به سوى محبوب: للعارف الربانى آية الله العظمى بهجت، ص٣٩.

[5]. دعاء الجوشن الكبير، مصباح الكفعمى، ص ٢٥٧، وانظر مفاتيح الجنان.

فما داموا لم يثقوا ويطمئنوا بـ«صحة» و«فائدة» لزوم العمل فلايهمّوا بفعله!، لأن عدم توفر الإيمان عند العـزم علـى القيام بعمل ما دون ثقة واطمئنان بأهميته وضرورته، سيؤدى إلى إثـارة حـالات مـن الشـكوك والترديـد فـى أعماقنـا ووجودنا. فكل ما نعرفه إذن هو صحيح ومفيد، وعلينا أن نقوم بأداء كل ما هو صحيح ومفيد.

قال الإمام الصادق(ع): «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق، فلايزيده سـرعة السـير إلا بعـداً»[١]. وقـال رسول الله(ص): «من عمل على غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[٢].

«فما علمناه علينا أن نعمل به، وما لم نعلم، علينا أن نتوقف فيه ونحتاط، إلى أن يحصل العلم به، وليس فى ذلک أیّ ندم أو خسارة أبداً. فلو حصل هذا العزم والقصد عند العبد، ورسخ فى قلبه، فالله هو أولى بالعون والتسديد»[٣]. «إن كل ما يعلمه الإنسان عليه أن يعمل به، وما لايعلمه فعليه التوقف والاحتياط»[٤]. «إن كل ما تعلموه، فاعملوا به، وكل ما لاتعلموه، فقفوا فيه واحتاطوا حتّى تعلموا»[٥]. «إن كل ما تعلموه، فاعملوا به، وكل ما لاتعلموه، فقفوا فيه واحتاطوا حتى يتبين لكـم، ولايؤدى هذا الطريق إلى الندم أبدا»[٦]. «نسأل الله التوفيق والسداد بأن لانطأ بأقدامنا كل ما نعلم، وأن نتوقف ونحتاط فى كل ما لانعلم حتى نعلمه، ولانكون كما قال الشاعر:

«زينوا المجالس لأجل المصلحة، جلسوا وقالوا ثم قاموا»[٧].

«إن العارف بالله ينبغى أن يكون مطيعا لله، وعلى صلة وارتباط به، فهو يتوقف ويعرض عن كل ما لايعلم حتى يعلـم، فيستعلم هذا بهذا، ثم يعمل أو يتوقف ويحتاط... ويكون عمله بدليل، وتوقفه واحتياطه لعدم الدليل»[٨]، «فلا تخرجوا عـن القطعيات واليقينيات»[٩] «انتبهوا! وعليكم بالاحتياط كثيرا!! فاحتياطكم هو فى هذا فقـط، وعلـيكم أن لاتجتـازوا مرحلـة اليقين»[١٠]. «الأمور والأشياء التى تعلموها، اعملوا بها، وأما التى تجهلوها ولاتعلموها، فتوقفوا فيها حالاً! واحتـاطوا حتـى تعلموا، وتتضح لكم الأمور»[١١].

---

[١] أمالى الصدوق، ص ٣٤٣.

[٢] المحاسن ، ج ١، ص٣١۴.

[٣] به سوى محبوب: للعارف الربانى آية الله العظمى بهجت، ص٢٣.

[۴] المصدر السابق،ص٢۵.

[۵] المصدر السابق،ص ٢٨.

[۶] المصدر السابق، ص٣٧.

[٧] المصدر السابق، ص۴٠. والشعر هو:.دنتساخرب و دنتفگ و دنتسشن دنتسارآ سلجم تحلصم ىپ

[٨] المصدر السابق، ص ۴۶.

[٩] المصدر السابق، ص۵١.

[١٠] المصدر السابق، ص٧٢.

[١١] المصدر السابق، ص٧٨.

اعمل، تجد

مما لاشک فیه أن «العمل بمفاد العلم» له آثار عجیبة ومهمة للغایة، منها: «وضوح صورة المجهولات والمشتبهات» عندنا. فکما أن المطالعة والحضور فی حلقات الدرس هی من أسالیب طلب العلم، فکذلک من الأسالیب الأخری فی طلب العلم واستزادته هو «العمل بالمعلومات». وقد ورد التأکید علی هذا المفهوم فی النصوص القرآنیة والروائیة المستفیضة بهذا المعنی وهو: أن العمل نور ساطع جدید، یشع بألوانه المتلألئة الزاهیة علی الإنسان، ویضیء أمامه طریق مسیرته.

قال الله تعالی: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ یَجْعَل لَّکُمْ فُرْقَاناً»[1].

وقال سبحانه: «وَالَّذِینَ جَاهَدُوا فِینَا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنَا»[2].

وقال أیضا: «وَاتَّقُواْ اللّهَ وَیُعَلِّمُکُمُ اللّهُ»[3]، وقال عز وجل: «وَإِن تُطِیعُوهُ تَهْتَدُوا»[4].

وهناک آیات أخری وردت الإشارة فیها الی هذا المضمون:

مثل: قوله تعالی: «وَمَن یُؤْمِن بِاللَّهِ یَهْدِ قَلْبَهُ»[5]، وقوله سبحانه: «ذَلِکَ الْکِتَابُ لاَ رَیْبَ فِیهِ هُدًی لِّلْمُتَّقِینَ»[6]، وقوله أیضا: «وَاعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ»[7]، وقوله تعالی: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَی وَاتَّقَی (۵) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَی (۶) فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْیُسْرَی (۷) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَی (۸) وَکَذَّبَ بِالْحُسْنَی (۹) فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْرَی (۱۰) وَمَا یُغْنِی عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّی (۱۱) إِنَّ عَلَیْنَا لَلْهُدَی»[8]. وقوله عز وجل: «لَئِن شَکَرْتُمْ لأَزِیدَنَّکُمْ»[9]، وقوله سبحانه: «وَمَن یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ❊ وَیَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لَا یَحْتَسِبُ»[10]. وقوله أیضاً: «وَالَّذِینَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًی»[11]. وقوله عزوجل: «اتَّقُوا اللَّهَ وَءامَنوا بِرَسُولِهِ یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَیَجْعَل لَّکُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ»[12]. وقوله تعالی: «فَلْیَسْتَجِیبُواْ لِی وَلْیُؤْمِنُواْ بِی لَعَلَّهُمْ یَرْشُدُونَ»[1].

---

[1]. الأنفال: ۲۹.

[2] العنکبوت:۶۹.

[3] البقرة:۲۸۲.

[4] النور: ۵۴.

[5] التغابن: ۶.

[6] البقرة: ۲.

[7] الحجر: ۹۹.

[8] اللیل: ۵ – ۱۲.

[9] إبراهیم: ۷.

[10] الطلاق: ۲و ۳.

[11] محمد: ۱۷.

[12] الحدید: ۲۸.

أما الروايات والنصوص المستفيضة الواردة عن النبى(ص) والأئمة المعصومين(ع)، فقد صرّحت أيضاً بهذه الحقائق والبراهين الجلية الواضحة... وإليک مقتطفات منها:

روى عن الامام الصادق(ع) قال: «العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم»[٢].

وقال رسول الله(ص): «من عمل بما يعلم، ورثه (علّمه) الله علم ما لم يعلم»[٣].

وروى عن الإمام الصادق(ع) قال: «من عمل بما علم، كفى ما لم يعلم»[٤].

وعن رسول الله(ص) قال: «ما أخلص عبد لله عز وجل أربعين صباحاً، إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٥].

وأكد العارف الربانى آية الله العظمى بهجت (رحمه الله) فى توصياته لطلاب الحقيقة والباحثين عن هذا القانون الإلهى فقال: «هل تدرون أن من عمل بمعلوماته، فسيعلمه الله مجهولاته»[٦]، «فإن عمل بالأشياء التى يعلمها، فسيفهم الأشياء التى لايعلمها... وستتضح له إن عمل بها، وبنفس الدليل الذى اتضحت له تلک المعلومات، فستتضح له الأخرى أيضاً»[٧]. «لوعمل بمعلوماته فستتضح له الأخرى، فلايتوقف أو يحتاط بعد ذلک»[٨]. «أستاذک علمک، فاعمل بكل ما تعلمه، وما لاتعلمه، يكفى أن تقف عنده وتحتاط»[٩]. «الأستاذ هو العلم، والمعلم واسطة، فاعمل بالمعلومات ولاتسحقها باقدامک، فهذا يكفى»[١٠].

ونفسّر هذه الحقائق المدهشة والغريبة من نوعها، بهذا المثال لتقريب المعنى إلى الأذهان وهو:

لو أراد سائق السفر بسيارته فى ظلام الليل، وكانت أضوية السيارة تنير عشرين متراً فقط أمامه ومن حوله، ولايقدر السائق مشاهدة أبعد من ذلک، فاوقف السائق سيارته بحجة أنه لايرى أبعد من ذلک! ألا يحتجّ عليه العقلاء ويستنكرون فعله؟!. فالمنطق العقلائى يحتّم على هذا السائق أن يسير بهذا الاتجاه، مستخدماً كل ما عنده من أضوية، ويمضى قدماً إلى

---

[١] البقرة: ١٨۶.

[٢] منية المريد، ص١٨١.

[٣] حلية الأولياء، ج ١٠،ص١۵، وإعلام الدين، ص٣٠١.

[٤] التوحيد، ص ۴١۶، وثواب الاعمال، ص ١۶١.

[٥] ميزان الحكمة، الحديث ۴٨٠۵.

[٦] به سوى محبوب، ص٣٩.

[٧]. المصدر نفسه، ص٧٨.

[٨] المصدر نفسه، ص٧٧.

[٩]. المصدر نفسه، ص۵۵.

[١٠]. المصدر نفسه، ص ۵۶.

الأمام، فهو بمسيره هذا وإنارته تلک، سينير أمامه عشرين متراً أخرى أمامه، بعد الانتهاء من تلـک، ويسـتمر هکـذا فـی المسير. وعليه أن لايتوقع منذ البدء أن أضوية السيارة ستنير أمامه كلّ الطريق، ليمضی فيه ويكمل الرحلة!!، إذن ليس من الصحيح إيقاف السيارة عن السير والحركة بمثل هذه الاعذار والحجج الواهية!!.

وكذا من يسأل عن عنوان حیّ من الأحياء أو منطقة بعيدة ونائية، فإن عليه أن لايتوقع منـذ البدايـة أن يرسـموا لـه جزئيات الطريق من البداية وحتى النهاية، بل يشيروا إليه ابتداء الطريق ويقولون له: «انطلق بهذا الاتجاه، فإذا وصلت إلى تقاطع ومفترق طريق، فاسئل.. فقد وضعت أمامک علامات المرور على واجهة الطريق، وعند التقاطع العـام، ليعـيّن لـک اتجاهک فی المستقبل».

وعلى أی حال، ينبغی عليک المضی فی هذا المسير فی المرحلة الأولى حتی تعثر على المرحلة الثانيـة، ثـم تطـوی المرحلة الثانية، فتصل إلی المرحلة الثالثة وهكذا تستمر مرحلة بعد أخرى. فإذا لم يكن لـديک معلومـات منـذ البدايـة، وترددت فی أن هذا الطريق يوصلک إلی هدفک أم لا؟! فلايجب عليک متابعة المسير. أما إذا قطعت أن هذا الطريق هـو الذی يوصلک إلى الهدف، وهو الذی يجب المضی والسير فيه، إلا أنک لاتعلم ماذا عليک أن تفعل إن وصلت إلى مفترق الطريق؟!، فعليک الاستمرار بالسير، والمضی بهذا الاتجاه إلی أن تصل إلى التقاطع، فعندها سيتضح لک باقی المسير.

إن مجهولاتنا وإن كانت كثيرة ومثيرة للاهتمام، وهی بمنزلة نصف الإناء الخالی، إلا أنه لاينبغـی أن نشـغل اهتمامنـا وأذهاننا بهذا المقدار، بل ينبغی النظر الی النصف الآخر المملوء.. وهذا هو المفتاح الذهبی للخلاص من الحيـرة والضـياع، فالشک والترديد يولّد التوقف، وفی مقابله الايمان، فإنه يولّد الحركة والنشاط.

إن التعرف على الحقائق الواضحة والمشهورة تحملنا علـی ضـرورة الاهتمـام بتراثنـا العلمـی وذخائرنـا ومعارفنـا، ومشاهدة اليقين الموجود فی حقائقنا وأعماقنا، وتجعلنا نخطو بأقصی رتب الإيمان بثقة وعزيمة نحو الأمـام، لا أن نقـف خائفين وجلين ومبهوتين فی تركيزنا على المجهولات والمشتبهات.

ويمكن للإنسان من خلال استعانته بذخائره العلمية وتراثـه وقابلياتـه، التسـلّق إلـی القلـل الشـاهقة والصـعود إلـی المرتفعات العالية، ولايتوقف لحظة واحدة، ولايتردد آناما عن المسير، بشرط ان يستخدم كل مخزوناته وذخـائره العلميـة وكفاءاته.

العلم ١ ⟸ العمل ١ ⟸ العلم ٢ ⟸ العمل ٢ ⟸ العلم ٣ ⟸ العمل ٣ ⟸ ...

إذا لم تعمل، فلن تجد

ثمة نقطة أساسية ينبغی الإشارة اليها وهی أن من لايملک مبنی للعمل، فهو غير مستعد للهداية، ولن يهتدی أبداً. ومن يمتنع عن السير، فهو لايفهم خارطة الطريق بأكملها، فالعلم والمعرفة لايحصلان دفعة واحدة، ولايمكن الإصرار عبثاً على

تعلّم كل المجهولات، لأن تربية الإنسان وتكامله يتم تدريجياً بالعمل. فمن خلال العمل ومواصلة السير نحو الأمام يـزداد الإنسان فهماً ووعياً وبصيرة [1]. روى عن الإمام الصادق(ع) قال: «العمل وعاء الفهم»[2].

وعلى كل حال، وبعبارة أخرى نقول: أن من لايعمل، عليه أن لايتوقع حصول الفهم والهداية ما لم يقرن العلم بالعمل،و ذلک لأنه لم يوفر لنفسه بعد الامكانية اللازمة للتقبيل والاستيعاب[3]. «اعملوا بكلّ مـا تعلمـوا، واحتـاطوا وتوقفـوا فيمـا لاتعلموا، الى أن تتضح لكم الأمور، فإن لم تتضح، فاعلموا أنكم سحقتم بأقدامكم بعض المعارف، ودنّستم بأرجلكم بعض المعلومات!. إن طلب الموعظة من غير العامل هو محلّ اعتراض وموضع نقاش، فأنتم سمعتم المواعظ قطعاً، وتعلمون أنكم لم تعملوا، وإلا لكنتم عارفون وواعون»[4] «لا تطأوا على المعارف والمعلومات بأقدامكم، وهذا كـاف. روى فـى الحـديث الشريف عنه(ع) قال: «من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لايعلم...فإن رأيتم أنه غير ممكن، فاعلموا أنكم لم تعملوا»[5]. «و إذا رأى الإنسان أنه توقف مرّة أخرى، فاعلموا – يقيناً– أنه وطأ بأقدامه على بعض المعلومات، وفى نعليه حصـى تمنعـه عن السير – كما قيل فى المثل – وهو لايدقق جيداً فى إخراج تلک الحصى عن نعليه، ليسـتمر فـى مسـيره»[6]. فقاعـدة «الهداية الإلهية» إذن هى: أن من يعمل يهتدى، أما من لايملک مبنى للعمل، فلايهدى.

خطر افتقاد المعلومات

الى جانب ما يلحق الانسان غير العامل من حرمان المزيد من العلم، فإنه سيواجه خطراً آخر فى حياته أيضـاً وهـو: ضياع المعلومات التى حصل عليها، فكما أن العمل باليقينات يجعل الأمور المشـتبهة يقينيـة: بمعنـى أن الرؤيـة تضـحى واضحة والالتباس يرتفع، فكذلک العمل بالمشتبهات، يجعل الأمور اليقينية مشتبهة: أى أنه سيفقد بصيرته شيئاً فشيئاً.

فالذى يحصل على حقيقة ما، عليه أ ن يشكر هذه النعمة، من خلال العمل بتلک الحقيقة، وإلا فإنه سيحرم من هـذه النعمة، إن من يترک العمل، سيكرّس فى وجوده الغموض والإبهام والظلمانية وينتابه الشک والترديد فى صحة ذاک العمل بعد أن كان على يقين من صحته أو حقانيته أو جدوائيته.

---

[1] يوجد نظير هذا القانون فى تعلم الفنون والحرف المهنية، فما دامت تلک التعاليم النظرية غير مجرّبة، فلايحصل فهم واستيعاب تام وكامل لها.

[2] اعلام الدين،ص۹۶.

[3] يحاول علماء التربية الكبار من خلال هذه القاعدة، القيام تدريجياً بتربية وتطوير قابليات الإنسان وثقافته، فـالبعض يريـدون تعلـيم المعلـم «لكى» يتعلموا كيف يتعلموا من المتعلمين» (به سوى محبوب، ص۳۵). «فهل يجب علينا أن نتعلم طريقة التعليم» به سوى محبوب، ص۳۹.

[4] به سوى محبوب،ص ۲۸.

[5] به سوى محبوب،ص ۵۶.

[6] المصدر نفسه، ص۷۸.

وببيان آخرنقول: إن الانسان إذا علم وعمل خلاف ما علم، فقد اتبع هوى نفسه، وسار خلف شهواته، وهو فى الحقيقة غير قادر على اجتناب هوى النفس ومخالفتها، فلايقدر فى أن يميز بين الغثّ والسمين، ويرجح الجيد على الحسن!. ولايمكنه توجيه وبيان هذا الضعف والعجز فى مخالفة هوى النفس، لأنه مرفوض فى اعتقاده دون أدنى شک أو ريب.

ولكى يتخلص هذا الإنسان من تبعات هذا الانعطاف، وشعوره بأنه مدان، فإنه يسعى دائماً إلى توجيه حركته بأساليب عديمة الجدوى، ويختلق لنفسه أعذاراً وحجج واهية، وفلسفة مصطنعة، واستدلالات ضعيفة، سعياً منه لتبرير مواقفه وأفعاله، وبيان أحقية قراراته وسلوكه، لينجو من عذاب الضمير، وتأنيب الوجدان.

وهذا الجهد اللامبارک المبذول من شأنه أن يعتّم على الحقيقة شيئاً فشيئاً، ويوجد حالات الشک والترديد فى نفسه تجاه تلک الحقيقة من خلال أفعاله وتصرفاته، وفى مثل هذه الحالة سيصدّق كل ما اصطنعه لنفسه من خيال زائف، وأوهام منحرفة ومضلّلة، ويفقد كلّ ما حصل عليه من حقائق ومعلومات صحيحة ويقينية، وما نسجه من خيال وأوهام، فيضل عن مسير الهداية والصواب.

قال تعالى: «و لاتتبع الهوى فيضلک عن سبيل الله»[1].

وقال على(ع): «من اتبع هواه، أعماه وأصمّه، وأذلّه وأضلّه»[2].

وقال(ع) أيضاً: «آفة العقل الهوى»[3].

وعلى ضوء هذه الروايات والأخبار[4]، فإن اتباع الهوى، وترک العمل بالحقّ سيؤدى إلى الخلل فى آليات الفهم والإدراک، وقدرة التمييز والتشخيص والوعى لدى الإنسان.

وقد تجلى هذا التحذير والوعيد واضحاً ودقيقاً فى كلام الامام على(ع): روى فى نهج البلاغة عنه(ع) أنه قال: «لا تجعلوا علمكم جهلاً، ويقينكم شكّاً، إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فاقدموا»[5].

فعلم الإنسان وعدم عمله به يعدّ نوعاً من النفاق ويؤدى إلى فقدان الاعتقاد. وإذا فقد الإنسان عقيدته، ستطال حياته نوبة من حالات الشک والترديد، وسيؤدى هذا إلى زعزعة الثقة والاطمئنان بنفسه وبالآخرين فى الحياة، وسيبقى هذا الإنسان يعيش فى أوساط مليئة بأجواء الحيرة والضلال والدهشة، ويلفها التساؤل والغموض والظلام واللااستقرار، قال تعالى: «ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ»[6]، وقال سبحانه وتعالى: «يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»[1].

---

[1]. ص: ۲۶.

[2] غرر الحكم: ۹۱۱۶۸.

[3] غرر الحكم: ۳۹۲۵.

[4] راجع ميزان الحكمة، الباب ۵۳۷، الهوى.

[5] نهج البلاغة، الحكمة ۲۷۴.

[6] البقرة: ۱۷.

ملاحظة هامة

إن التركيز الشديد على معرفة المجهولات، والتأكيد على القضايا والمفاهيم المتأرجحة، والتكبير من أحجامها، ينشأ فى الأعم الأغلب عن العجز والتقصير فى أداء الوظائف والتكاليف الواضحة، والمسئوليات القطعية. فمن لايلتزم بوظائفه ومسئولياته، يبحث عن حجج وأعذار واهية لتبرير ضعفه وتقصيره فى أداء وظائفه ومسئولياته. ومن أفضل أساليب الاعتذار أن يدعى عدم العلم، ويتمسک بقوله بملأ فيه: «لا أعلم»!!. ليتسنى له بذلک أن يقنع نفسه ومجتمعه، ويحافظ على موقعه الاجتماعى ولو لفترة قصيرة بسبب قوله لاأعلم!!.

كتب سيد شهداء الثورة الاسلامية الايرانية آية الله بهشتى فى مذكراته فقال: «إن الميل الى التحلل وحياة الانفلات والتفسخ، ورفض القوانين وعدم الانصياع لها،أضعف فينا إمكانية الأخذ والتسليم بكل أمر جادّ – مهما واضحاً ومبرهناً –، وكأننا نحبّ البقاء رهن الشک دائماً، لئلا نقع فى أسر الوظيفة والمسئولية، ولانريد الخروج من الحيرة والضلال!!. فلانفضّل حمل المسئولية، ونتهرب من التكليف، والقيام بالواجب! وقد أدى شيوع هذا المرض المسرى إلى رواج السفسطة، وكثرة الوساوس فى داخل المجتمع، والذى نتج عنه مباشرة زيادة الشكوک والأوهام غير الهادفة والمدروسة، بل اللامسئولة، فعرّضت المجتمعات إلى مداهمة أخطار فادحة وخطيرة!. فخطر ضياع السلوک فى مثل هذه المجتمعات يجعل العثور على أربعة أشخاص على نمط واحد من السلوک والتفكير أمراً عسيراً وصعباً للغاية! فإذا جالس الأشخاص الأربعة أحدهم الآخر، فستساورهم الشكوک والأوهام والسفسطة، وتتوغل إلى أوهامهم وتفكيرهم، وتؤثر فى تصوراتهم وأذهانهم من هنا وهناک، وتسيطر عليهم من كل جهة، وتمسكهم من كل حدب وصوب، وتتجاذبهم هذه الأفكار فى كل اتجاه. وفى مثل هذه المجتمعات، لن تتحقق وحدة حقيقية، ولايقام فيها نهج. فإذا افتقدت هذه المجتمعات نهجها وفكرها، فستتحول بسهولة إلى لقمة سائغة، ويصبح أفرادها عبيداً للآخرين دون مقاومة!. ولهذا فإن من أهم برامج وخطط المستعمرين فى البلدان المستعمرة هى: إشاعة وبثّ الشكوک والأوهام، ومحاربة الإيمان بمختلف الأشكال والأساليب الخلّاقة والمؤثرة[٢].» إذاً استقبال هذه الشكوک والاستفسارات أكثر من تناول المعارف والاعتقادات، غالباً ما تكون للتخلص عن قيود التعهد والالتزام، والهروب عن أعباء المسئوليات.

إن من ينوى القيام بالمسئولية والتكليف، فإنه يبدأ بالمسلّمات، ويتشبّث فى مهب عواصف الشكوک والترديد المسمومة، بـ«المفاهيم والمبادئ اليقينية».

الإنسان دائماً فى حال التكليف ، وإن عاش فى وسط ملىء بالمجهولات. ولايستطيع الخروج من دائرة التكاليف والمسئوليات، وإن أحيط بقيود والتزامات عديدة، فهذه الأمانة باقية على عاتقه، لأن الله خلق الإنسان حرّا طليقاً ذا إرادة

---

[١] البقرة: ٢٥٧.

[٢] السيد محمد الحسينى البهشتى، ايدئولوژى اسلامى، ص١٣.

واختيار. «نحن لانخرج عن عهدة التكليف، بل علينا أن نستلهم العبر والنتائج من عملنا وسلوكنا، فإنه يستحيل أن يكون عملنا غير مثمر، وإن تحصل النتيجة من غير العمل»[1].

«العلم» و«القدرة» و«التوجه والالتفات» هى ثلاثة شروط أساسية فى التكليف. فمن لايعلم ولايقدر ولايلتفت، فقد سقط عنه التكليف[2]، إلا أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان فى صورة لايمكنه فيها استساغة الأعذار والحجج الواهية لنفسه للهروب من المسئولية والتكليف.

ونفصّل الحديث فى هذه الشروط الثلاثة وهى:

الشرط الأول فى التكليف: العلم

لا يخلو الإنسان عن العلم ولو قليلاً رغم تكاثر الأسئلة، وما يلفّ به من غموض وأسرار مدهشة ومحيّرة فى عالم الخلقة والكون.

ونتوهم أحياناً أن أهم إشكال نعانى منه فى مسيرتنا وحركتنا فى الحياة نحو الكمال هو «الجهل»، فينبغى فى هذه الحالات إزالة الحيرة والجهل وعدم المعرفة والغموض لتنتظم فيه مسيرة الحياة!

وليس هذا صحيحاً ؛ لأننا نمتلك معرفة ووعياً كافياً للسير والحركة والنهوض دائماً وهذه المفاهيم والأساليب اليقينية تكفينا فى بداية المسيرة والرحلة، ولايقبل الاعتذار وإعطاء الحجج والمبرّرات الواهية بـ«نقصان العلم» وقصورنا عنه، لأن الإنسان فى أىّ موقع كان، وفى شتى الظروف، عارف بأولويات مسئولياته ووظائفه، قال تعالى: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»[3]، وقال سبحانه: «قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»[4].

لقد ألهم الله عز وجل الإنسان خيره وشرّه، وبيّن له سبيل الرشد والهداية، وضمن لكل من يعمل بعلمه، أن يوسّع له من آفاق علمه ومعرفته، فأى عذر ومبرّر سيبقى للإنسان فى تركه العمل؟!

قال على(ع): «إن لكم علماً فاهتدوا بعلمكم»[5].

---

[1]. آية الله العظمى بهجت، به سوى محبوب،ص٣٧.

[2] قال رسول الله(ص): «وضع عن أمتى.. الخطأ والنسيان، وما لايعلمون، وما لايطيقون، وما اضطروا إليه، وما استكرهوا عليه» (الكافى، ج ٣، ص٤٦٣). العنوان الأول للشرطية فى هذا الحديث هو: «التوجه». والعنوان الثانى والثالث هما: «العلم» و«القدرة». وتعنى القدرة: إمكان الفعل أو الترك، فمن لا قدرة له على العمل فهو «العاجز»، ومن لم يكن قادرا على تركه فهو «المضطر والمكره» ليس له قدرة.

[3] الشمس: ٨.

[4] البقرة: ٢٥٦.

[5]. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

فلايدعى أحد– عدا المعصومين(ع) – أنه عالم بكل شيء؟ أو يرى كل شيء منكشفا أمامه بحقيقته؟!، ولايقول أحد أيضاً: إننى أجهل بكلّ شيء!!، وأن كلّ شيء أمامى غامض ومجهول؟!، بل كل عامل بسيط يعلم ببعض الأشياء وعليه أن يتحرك باتجاهها، ولايتوقف فى حركته»[1].«وليس لأحد أن يقول: إنى لاأعلم شيئاً!، فإن قال ذلک، فهو كاذب. فكلّ أحد – عدا المعصومين(ع) – يعرف بعض الأشياء، ويجهل أشياء أخرى!، وهذا أمر طبيعى، لا حاجة له إلى استدلال وبرهان.

فأما الأشياء التى يعلمها، إن عمل بها، فستنكشف له الأشياء الأخرى التى لايعلمها لاحقاً، ويعلمها بعد ذلک أيضاً، ولو بعد حين»[2].

الشرط الثانى فى التكليف: القدرة والاختيار

ومن شرائط التكليف أيضاً: القدرة والاختيار. فمن لا قدرة له على القيام بعمل ما، فلايمكن إيصائه أو تكليفه بفعل من الأفعال، لأن التكليف يسقط بذهاب القدرة.

وبناء على هذا، فإن مسئوليتنا تجاهه تنحصر دائماً فى نطاق «القدرة»، والمراد بها: هو ليس القوى والعضلات الجسمانية والبدنية وحدها، بل تشمل القوى الفكرية أيضا، والقدرات الروحية والاستعدادات النفسية، واستخدام الأدوات والوسائل، والمساعدات، ومماشاة ودعم (القوى الإنسانية) والقوانين والثقافات العامة.

وبإيجاز: كافة الامكانات والاستعدادات المادية والمعنوية التى وضعها الله عز وجل فى «اختيارنا وتصرفنا»، فإن لها تاثيراً مباشراً بنسبتها فى العمل.

لكن المؤسف هنا: هو أننا نواجه دائماً محدودية فى العمل، فكثير من الأعمال التى نعتقد أنها لازمة، لايمكننا القيام بها، بسبب عدم توفر القدرة المالية والثروة والاستطاعة البدنية وأمور أخرى من هذا القبيل، أو عدم توفر الوسائل المتاحة، والإمكانات والاستعدادات اللازمة والمطلوبة، أو تمنعنا العادات والتقاليد الاجتماعية والأعراف الموجودة فى المجتمعات التقليدية أحياناً عن القيام بعمل من الأعمال، أو لاتسمح لنا الثقافات العامة والظروف الاجتماعية أحياناً عن الحركة والقيام بعمل ما، فنحتاج أحياناً إلى دعم الآخرين ورعايتهم الخاصة، أو لاتبقى فرصاً كافية أحياناً للعمل، أو أن عتب الآخرين وتقريعهم باستمرار يعبث بعواطفنا ومشاعرنا، ويضعف مقاصدنا وأهدافنا، وأو يصيبنا حالات من التعب والإرهاق المفرط والشديد أحياناً، فتصدّنا عن القيام بالعمل، وربما تشوش علينا أصوات البيئة وضجيجها، فتشتت أفكارنا وتبعثر تركيزنا.

وعلى كل حال: فإن الصراع ضد كافة الضغوطات والقيود والتحديدات والإكراه، يخرجنا عن هدوئنا وحالاتنا الاعتيادية، ويثير فينا شعوراً بالرفض وبعض التداعيات كالقلق والتوتر، فماذا علينا أن نعمل فى مثل هذه الظروف؟!.

أنت قادر

---

[1] به سوى محبوب، ص۸۳.

[2] المصدر السابق، ص۷۸.

صحيح أن الإنسان محاط بكثير من القيود والالتزامات والضغوط، ومعرض للفشل والهزيمة من كل جهة وناحية، وقد سلب منه السماح فى القيام بكل نشاط وعمل!. إلا أنه لايكون فارغاً وخاليا عن قدرة واختيار، ومسؤولية وتكليف وهو فى أسوأ الحالات والظروف التى يعيشها، مع وجود هذا الزخم الكبير من القيود والإفرازات أو المضايقات فى بيئته الاجتماعية، يبقى له القدرة والاختيار والتحكم دائماً وإن كان ضيئلاً، والسماح له للقيام بأى عمل ونشاط وإن لم يكن بالمستوى المطلوب، وهذه القدرة والاختيار الضئيل هو الذى يحدّد مسئولياتنا تجاهها. فنحن دائماً قادرون! على إنجاز أىّ عمل، وفى أى زمان ومكان، وبنفس هذه القدرة والاختيارو الطاقة والقابلية، وإن علينا مسئوليات ووظائف أخرى أيضاً، بمقدار تلك القدرة والاختيارو الطاقة، فلايبقى الإنسان دون مسئولية أو تكليف أبداً!.

ولو سألنا أحد: من هو الكافر الحقيقى والمثالى؟ ومن هو أسمى وأعلى مثل فى الكفر؟

فسنحدد فى الجواب فى أقوى المحتملات، أحد أئمة الكفر«كأبى سفيان» مثلا!

إلا أن القرآن الكريم حدد نموذجين منهم وهما: امرأة نوح وامرأة لوط وعدهما نموذجين حقيقيان لأعلام وأئمة الكفر؛ لأنهما كانتا تحت عبدين صالحين ونبيين من أنبياء الله، الذين هم أعلى نموذج فى التكامل والسمو المعنوى والاقتداء، لكن امرأة نوح وامرأة لوط لم تستفيدا أبداً من تلك الذخائر والمكنونات الإلهية ولو قليلاً! فاضاعتا باختيارهما كل هذه الإمكانات، وهدرتا كل هذه الثروات.

أما فى الضفة الأخرى، فيقابلهما نموذجاً آخر فى الورع والتقوى، والكمال والإيمان الراقى كـ«آسية بنت مزاحم» زوجة فرعون، وهى المرأة الصالحة، وقمة الفضائل والخصال الحميدة ؛ لأنها حافظت على ارتباطها وعلاقتها بالله عز وجل، ولم تفقد هذا الارتباط وهى فى أقسى الظروف وأحلكها وفى مسير نموها وتكاملها المعنوى، مع النقص الهائل فى توفير الإمكانات المطلوبة والمحدودة، إلا أنها هيئت لنفسها أفضل الوسائل والسبل المعنوية فى السير بهذا الاتجاه الصحيح. وقد بيّن سبحانه وتعالى هاتين الحالتين المتعاكستين من الحالات السائدة فى المجتمع، واصفاً أروع نماذج الكفر والإيمان، فقال سبحانه وتعالى:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءامَنوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»[1]. وقد وصف القرآن الكريم فرعون، فقال سبحانه: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ»[2].

---

[1] التحريم:١٠ و ١١.

[2] الزخرف:٥٤.

وبعد ذكره سبحانه لهذه الجملة، فقد ذم قومه واستنكر عليهم أفعالهم بدل أن يعاتب فرعون ويؤنبه ويذمه على أفعاله، فقال سبحانه:«إنهم كانوا قوماً فاسقين».

أى أن قدرة الشعب واختياره ومسئولياته لم تسقط وهم فى أصعب الظروف والمحن التى يعانون منها، والظلم والسخط الذى تعرض له هذا الشعب من ممارسات فرعون، وقد صبّ عليهم ألوان العذاب والقتل والإبادة وتقطيع الأوصال والتشريد. فلاينبغى خلق الاعذار والحجج الواهية والضعيفة للتخلّى والهروب عن ثقل المسئوليات والوظائف والتكاليف وحمل الأمانة، بحجة صعوبة الزمان والسيف يقطر دماً كما قيل، وقساوة الظروف الاجتماعية وصعوبتها، لأن الإنسان قادر على صنع المستحيل، رغم ازدياد حجم المعاناة وتراكم المشاكل والصعوبات، وثقل القيود والضغوطات، وكثرة الالتزامات والمحدوديات.

لذا، فإنه «ينبغى» على الإنسان القيام بدوره، وممارسة أعماله ولو بحجم تلك القدرة والاختيار. فالتركيز الدائم على نصف الإناء الملىء (القدرات) والاعتقاد الراسخ بـ«إمكان الحركة»، سيبعث فى نفوسنا شعوراً بالإيمان والأمل، ويصنع الحركة فى وجداننا. ولو كان هذا الاعتقاد الراسخ ملوّثاً بالآثام والشبهات والوساوس، والتوجه نحو النقائص والقيود والضغوطات المحدّدة، وتكرار تلاوة آيات اليأس والقنوط، فسيسبب أضراراً فادحة وخسائر كبيرة للإنسان فى هذه الحياة، وسيتحول الإيمان والأمل والأمانى إلى شكوك وترديدات، وسيؤدى إلى إيقاف الحركة والمسير أيضاً. فمادمنا فى هذه الحياة واستمرت الحياة كما هى عليه، فسنعانى من نقص حادّ وشديد، وقيود والتزامات، وهزائم وفشل، وسنمر بتجارب مريرة، فلانقدر على تحضير كافة الاستعدادات أو نمهد لكلّ الإمكانات المطلوبة، وعلينا أن نعتقد ونقبل أننا لن نقدر على تحقيق ظروف وأجواء مثالية ونموذجية متكاملة، وإيجاد أوضاع مرضية من كافة الجهات فى هذه الحياة!! ولن تتحقق كل أمانينا وأمنياتنا، وشعاراتنا المثالية أبداً، بل ستبقى بعيدة فراسخ وأميال عن الحقائق والوقائع المحيطة بالإنسان، وما تعيشه المجتمعات العالمية فى هذا الفراغ الموجود، لأن الطبع البشرى اللامحدود، والسقف الزمنى لمطالبات الإنسان، لايرضى أبداً فى أن يقف عند حد معين!، ولايقبل بما هو موجود ومحدود، بل يطلب أكثر من ذلك، ويقول هل من مزيد؟!.

وعلى كل حال، فلو توقعنا ورجونا أن كافة الاستعدادات والإمكانات مهيئة، والظروف كلها معدّة وجاهزة للانطلاق والحركة، إلا أننا لانتطلق ولانتحرك من مكاننا أبداً!! علينا أن نستخدم الإمكانات والاستعدادات الموجودة، ونقوم بمسئولياتنا ووظائفنا تجاهها فى مجال اختياراتنا وتفويضاتنا.

إن توفير وتهيئة الظروف والأجواء المثالية والإمكانات والاستعدادات المتكاملة والعالية هى أمانى وآمال لن تتحقق، وهى مجرد تصورات وأوهام ساذجة، وفارغة عن المحتوى، وبعيدة عن الحقائق.

إلا أنه مع ذلك، لايجوز الركون والدعة فى زاوية من زوايا البيت واختيار العزلة والاستجمام، إلى أن تتحقق تلك الأمانى والآمال، فتؤجل الأعمال ولو إلى حين!، «و لات حين مناص»!، بل ينبغى التفكير دائماً للعمل فى الحاضر

والمستقبل، وإمعان النظر بدقة، فنقول هكذا: «نحن قادرون على القيام بأى عمل فى مجال قدراتنا وقابلياتنا، وعلى حمل المسئوليات، وأداء التكليف، والقيام بالوظائف».

الشرط الثالث للتكليف: التوجه والالتفات

إن من أهم شروط التكليف هو «التوجه والالتفات»، فالإنسان الغافل غير مكلف، ولن يحاسب على أفعاله الصادرة منه سهواً وخطئاً، لكنه ليس دائماً فى الغفلة. فـ«التوجه» و«الذكر» متوفر فى بعض الموارد، وفيها يجد الإنسان نفسه مسؤولاً، له وظائف وتكاليف فى الحياة.

ولو استبدلت الغفلة إلى الانتباه والوعى ولو آناماً، فسيكون الإنسان مكلفاً ومسئولا عن سلوكه وأفعاله فى هذه الآنات ولحظات الوعى وعدم الغفلة، قال تعالى: «وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالمِينَ»[1]، وقال سبحانه: « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الا اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»[2]. فلايحق لأحد أن يخلو عن حمل أعباء المسئولية، ويتوقف عن العطاء والانتاج فى المجتمع فى كل الظروف، مختلقاً لنفسه أعذار ومبررات واهية بحجة أنه فى غفلة فى خصوص هذا المورد مثلاً.

لكنه سيكون مكلّفاً بمجرد ارتفاع عارض الغفلة هذا عنه، ويقوم بوظائفه ومسئولياته فى حالة التوجه والانتباه.

قال آية الله العظمى بهجت(رحمه الله): «لو وجدت نفسك لحظة واحدة فى ذكر الله وطاعته، فلاتصرف نفسك عنه اختياراً، ولاتهتم بالانصراف والغفلة غير الاختيارية»[3]. وطلب من سماحته أن يبيّن ذلك فقيل له: «ماذا على الإنسان أن يفعل ليحضر قلبه ويتوجه فى الصلاة؟»

فأجاب(رحمه الله): «لحفظ حضور القلب، لاتنصرف اختياراً فى اللحظة التى حصل فيها التوجه والتعلّق».[4]

ويتضح مما ذكرنا: أن طريق حركة الإنسان مفتوح منذ الخطوة الأولى، فهو يمتلك فى تلك اللحظة كافة الامكانات والقابليات الكافية والاستعدادات اللازمة والمطلوبة، وهى تضم هذه عناصر: «المعرفة»، «القدرة»، و«التوجه والقصد»، وهذه الامكانات والاستعدادات هى فى الحقيقة أعلى من حدّ النصاب، وهى تسلب منه كل الأعذار الواهية والحجج الضعيفة التى يستخدمها كمبررات له فى توجيه أفعاله، فالمشكلة الأصلية والأساسية فى طريق العمل هى ليس الجهل أو عدم القدرة، بل مشكلتنا الأساسية هى الضعف وعدم الوعى، أما العجز والغفلة، فهما غطاء يستخدم لإخفاء صيانته وحفظه.

---

[1] الأنعام: ۶۸.

[2] آل عمران: ۱۳۵.

[3] به سوى محبوب، ص ۵۷.

[4]. المصدر السابق.

معطيات الاستثمار وثماره

لو استثمر الإنسان فرص العلم وقدراته وتوجهاته بشكل صحيح ومطلوب، لأدى ذلك إلى ثرائه العلمي، وزيادة محاور اختياراته وتفويضاته. هذه هى وعود وضمانات إلهية للإنسان، وقانون نظام الكون وعالم الوجود.

فلو عمل الإنسان كل ما يعلم، وكل ما قدر عليه، وتفطّن له، فستضاعف له ثمرة علمه وقدرته وقصده وتوجهه. قال تعالى: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا»[1]. التقوى هى أداء للتكليف والعمل بالوظيفة، والقيام بأعباء المسئولية، بشرط العلم والقدرة والقصد أو التوجه.

التقوى تعنى إذن: العمل بكل ما تعلمه وتقدر عليه، وقصدته ونويته. فلو فعلت ذلك على ضوء الآية المتقدمة، فسيزيدك الله ثروة العلم والمعرفة، والقدرة، والقصد والتوجه، لتخرج من الطرق الضيقة والمسالك الوعرة المسدودة والملتوية ومغاليقها، فتنزع القيود والضغوط عن نفسك، وترفع الأغلال والتحديدات عن روحك.

قال تعالى: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»[2].

وقال سبحانه أيضاً: «إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»[3].

إن كل ما يبدو للإنسان أنه حدث صدفة، فهو قائم على نظام دقيق وبرمجة وتخطيط إلهى، والله هو المسؤول عن إيجاد ذلك كلّه، وهذه البرمجة والتخطيط والنظام الالهى هو دعم وإسناد لأفعال الإنسان الاختيارية.

أى أن كل من يعلم وظائفه وتكاليفه، وماذا عليه أن يفعل، أو كان قادراً وقاصداً ومتوجهاً لأفعاله، فعليه أن يحدد موقفه من أن عمله هذا خير له أم شر قبل القيام به وفعله، وهذا العمل الذى ينوى القيام به، مرّة يقوده إلى الخلاص والنجاة من مخاطر عديدة، ومشاكل كثيرة، وتضمن له مستقبله، ونحن نسمّى هذه الظاهرة بـ«الحظّ» أو «الصدفة»، لكن هذه المقدرات مرهونة بـ«أعمالنا الاختيارية» ومرتبطة بسلوكنا، وناتجة عن تصرفاتنا.

وفى المقابل، ربما يكون وجود الإنسان فى مكان ما أحياناً، أو التعرف على صديق، أو الاستمتاع بمشاهدة مشهد أو منظر جميل، يسبب له مضايقات وإزعاجات عديدة، وأضرار فادحة وحرجاً كبيراً عليه.

فليس شمولنا لكلّ هذه النعم الإلهية، أو النجاحات الباهرة، والهزائم والفشل، وكثير من المقدرات، صدفة واتفاقا دون سابق مقدمات، ودون سبب ومحاسبة وتخطيط دقيق وبرنامج منظّم، فالحوادث مهما كانت عظيمة أو صغيرة فى الكون والوجود، لاتخرج عن صانع مدبر حكيم، بل إن هذه الظواهر والأحداث التى تبدو أنها تقع صدفة فى العالم... انما هى تتبع

---

[1] الطلاق: ۴.

[2] الطلاق: ۲و۳.

[3] محمد: ۷.

خطط وبرامج منظّمة ودقيقة لايمكن مشاهدتها بالحواس الخمس المجردة، وإنما تحصل من خلف الكواليس، وفى عالم الغيب والتجرد تناسباً منها مع أعمالنا، قال تعالى: «إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ»[1].

الأصل الرابع: الذكر

نحن البشر لانقوم بأعمال جيدة، جهلاً منا بها أحيانا، وبعضاً منها عجزاً. فلانعلم مثلاً أن العمل الفلانى هو مفيد ومطلوب، فندبر عنه ونولّى. وأحياناً نعلم ذلک، إلا أننا لانمتلک القدرة على فعله. وفى كلا الفرضين، فإن عذرنا ومبرّرنا هو «الجهل» أو «العجز». ولكن هل هذه الأعذار والتبريرات موجّهة ومعقولة أم لا؟

وهذا بحث آخر بحاجة إلى دراسة وتحليل فى محلّ آخر.

أما موضوع بحثنا هنا فهو: ان هناک أمور نقطع فيها: على أننا على «علم» بصلاحية أو عدم صلاحية هذا العمل، وأننا «قادرون» على فعله بشكل جيد ومطلوب، إلا أننا مع كل ذلک لانفعله!.

وهناک أمثلة كثيرة فى حياتنا توضح هذه الحقيقة والواقع الذى يمرّ به الإنسان، ويعانى منه يومياً فى وضعه الحاضر.

فلو قام الإنسان بتخليل أسنانه بالسواک، وخلد الى النوم، فيتساءل هنا مع نفسه: هل أن السواک أكثر فائدة له أم الإخلاد إلى النوم دون عمل السواک؟ فيجيب عن سؤاله بلا شک: بأولوية السواک، ويعترف بفائدته وأهميته.

ولو فرضنا أن الإرهاق والنصب الشديد والتعب المفرط فى اليوم كلّه لم يكن بالمقدار الذى يمنعه ويصدّه عن الحركة، بحيث يخلد إلى النوم مباشرة لا إرادياً لكنه لايقوم للسواک ويرجح النوم على السواک عمليّاً.

ولو بثّ التلفاز القناة الأولى: برنامجاً علمياً، والقناة الثانية: فيلماً كارتونياً للاطفال والرسوم المتحركة، والقناة الثالثة: فيلماً سينمائياً، فسنحكم قطعا بفائدة البرامج العلمية أكثر من البرنامجين الآخرين لو أردنا المقارنة بينها، وليس لدينا أدنى شک وريب فى صحة ذلک الحكم أبداً. أما لو افترضنا أن الإرهاق الذهنى أو عوامل أخرى لاتمنع من الاستمتاع بالبرنامج العلمى، فلماذا لانولى أهمية واعتباراً إذن فى مقام العمل لمعلوماتنا هذه؟! ونتخذ مواقف سلبية ومخالفة لاعتقادنا ومعارفنا اليقينية؟!. فكلنا يعلم من قريب أو بعيد فوائد صلاة الجماعة وما يترتب عليها من آثار وخيرات، وكذا الصلاة فى أول وقتها، وصلاة الجمعة!، وسائر الصلوات والعبادات المستحبة، فعلمنا هنا من نوع القطع والجزم واليقين. ولكن تهاوننا وضعفنا فى موارد أخرى لايقبل الأعذار والمبررات، فليس فيها أعذار موجّهة ومعقولة يمكن الدفاع عنها والاستدلال عليها!، بل نحرم عن بركاتها وخيراتها، وآثارها الكثيرة. فلماذا يحدث هذا؟ ولماذا نحن قليلوا الهمة، وعديموا الإرادة؟!.

الإجابة عن هذا السؤال هو: إن علينا تفسير وتحليل اختيارنا وإرادتنا للموارد التى ننوى القيام بها، كتناولنا للطعام مثلاً، أو إنشغالنا بقراءة كتاب ما، أو استمتاعنا بمشاهدة برنامج إذاعىّ أو حلقة تلفزيونية وحوار خاص مع شخصية علمية، أو فنية، أو سياسية...

---

[1] الرعد: ١١.

فما هو عامل اختيارنا وإرادتنا هنا؟ وما هو الباعث على عمل ذلک؟

إن الكشف عن هذا «العامل» يساهم كثيراً فى تفعيل وتنشيط العمل والإرادة فـى مجـالات ومـوارد أخـرى أيضـاً، ويسهلّ لنا تلک العملية.

ونستنتج بعد دراسة وتحليل الأساليب الإرادية بأنّ أىّ عمل اختيارى ناتج عن الرغبة والارتباط النفسـى والبـاطنى، فإننا سنختاره دائماً فى حياتنا، بمعنى أن ما نراه مناسباً ومرضياً لنا، ومحبّباً ومرغّباً، فإننا نتجه له ونطلبه، أى نتحرک إليه، لغرض الوصول إليه وتحقيقه. فمنشأ الإرادة والعمل فى ذاتنا هو الرغبة المفرطة والعلاقة الشديدة، وقد عبّر عنها الحكمـاء بـ«الشوق الأكيد».

فلو فرضنا وجود ميول ورغبات عديدة فى ذاتنا فى آن واحد، فالاقوى فيها والأشد هو الذى سيكون منشأ للعمل! ثم تسلّط الأضواء بعد ذلک على الأمور الأخرى المتبقية. فمن يقرأ كتاباً ويستمتع فى نفس الوقت بمتابعـة إحـدى البـرامج التلفزيونية مثلاً، فهو مشتاق متلهف ومنجذب لجمال وسحر الأفلام السينمائية، وقد انساقت ميوله ورغبته الباطنية بـذلک الاتجاه. فهذا القارئ للكتاب وإن حصلت له كل تلک الرغبة والشوق الشديد فى قراءة الكتب ومطالعتها فى نفس الوقت، ويكون فطناً وحذراً فى استخراج بعض معانى الكتاب ومعانيه، ومشغوفاً ومتلهفاً فى قراءتـه لـذلک الكتـاب، إلا أن هـذا الشوق وتلک الرغبة فى تلک اللحظة إنما هو فى ظل انشداده وجذبه لسحر الفيلم السينمائى الذى استمتع بمشاهدته فـى نفس وقت قراءته للكتاب! فلايوجد أىّ أثر لتلک المطالعة للكتاب!!. يشيرهذا الأنموذج الى ذلک:

الميل ← الميل الشديد ← الإرادة والحركة.

لم تتحدد الإجابة لحدّ الآن عن السؤال الأول الذى طرحناه فى بدء البحث، لأننا وإن عرفنا أن الإرادة هى ناتجة عن الرغبة المفرطة والميول الشديدة وعلاقتنا الوافرة، إلا أن هذا السؤال لايزال باقياً وهو: كيف يمكن تقوية ميولنـا ورغباتنـا بالنسبة للأمور وعزمنا على فعلها وإرادتها، واتجاهنا نحوها؟

وكيف أن الأمور التى نعلم أنها راجحة، ونعرف ضرورتها، إلا أننا لانفعلها فى مقام العمـل؟ ولانضـعها فـى أولويـات لائحة أعمالنا اليومية؟

إن ميولنا ورغباتنا هى غالبا ناتجة عن «معرفتنا» بالنسبة إلى حسنها وجودتها.[1] فعندما نشعر بحلاوة الطعـام، ولـذة ركوب الخيل، وأهمية المطالعة، والاستمتاع بقراءة الكتـب، والإحسـاس بضـرورة الرياضـة الصـباحية، وفوائـد البرمجـة والتخطيط فى الحياة، وتنفيذ المشاريع، ومعرفة ثواب صلاة الليل، والاطلاع على محاسن استنساخ الكتابة، وغيرهـا مـن الأمور، فستبعث فينا دواعى الشوق والرغبة فى القيام بتلک الأعمال.

[1] اذا نشأ عمل من الغريزة فقط، وافتقد الدعم والإسناد العلمى،«كرضاعة الطفل من محالب أمه فى بدء ولادته»، فهو لايعدّ فعلاً إراديـاً، وهـذا خارج عن محل بحثنا هنا.

إن تصويرنا الذهنى فى الحقيقة حول محاسن الأشياء، يولّد رغبة وشوقاً فى أعماقنا، فإذا اشتدت تلك الرغبة وقوى ذلک الشوق، فسينتهى أخيراً إلى الحركة والعمل.

يشير هذا الأنموذج إلى ذلک:

معرفة محاسن شيء ما ⟸ الميل والرغبة نحو ذلک الشيء.

ونشير هنا إلى أهمية هذا الأمر أيضاً وهو: إن علومنا ومعارفنا – هى كميولنا ورغباتنا وارتباطنا – لها شدة وضعف دائماً[1]، فصورنا الذهنية مرّة ذو معالم واضحة ومميزة فاعلة ونشطة، وأخرى عديمة اللون وكئيبة بائسة غير فاعلة ونشطة.

إن معارفنا وعلومنا هى ليست كلّها بمستوى واحد ولامتساوية، ولايكون تأثيرها متساوياً أيضاً! فبعضها فاعل ونشط، وحىّ ومؤثر. وبعضها الآخر عديم الحياة وفاقد للتأثير والأهمية، والقسم الثالث منها انمحى واختفى فى حوادث الدهر والزمان عن الأذهان وصفحات التاريخ. ويقال لعدم المعرفة: «الجهل»، ولمحو المعرفة: «النسيان»، ولموت المعرفة: «الغفلة». فـ«الجهل» هو عدم العلم والمعرفة، و«النسيان» هو ذهاب المعرفة الموجودة. أما «الغفلة» فهى وجود بارد وغير متحرک للمعرفة، وهى وجود شبيه بالعدم، وساكنة هادئة وعديمة اللون والروح، دون أدنى تأثير. وكلما كانت معارفنا وعلومنا أكثر صبغة ونشاطا وفاعلية وحيوية، فستوجد ميولاً ورغبة أشد وأكثر فى هذا الاتجاه، أما إذا كانت أقلّ صبغة وأكثر نحافة، فستعجز عن إيجاد الدواعى والأغراض.

ويشير الأنموذج المذكور إلى ذلک:

المعرفة الواضحة والمميزة الشديدة ⟸ الميل والرغبة الشديدة ⟸ الارادة

والآمر الآخر هو: شمول قاعدة «مرور الزمان» لمعارفنا وعلومنا وصورنا الذهنية أى أنها لو تركت لوحدها وحالها، فستفقد لونها تدريجياً، وتخلد إلى النوم، كاللهب المتأجج المتصاعد من وهج النيران، فإن لم تصبّ عليه مقداراً من الزيت، فسرعان ما ستنطفئ هذه النيران فى العاجل أو الآجل القريب، وإن صببنا عليه الوقود، فستتصاعد أعمدة النيران وتزداد أواراً واستعاراً.

إن الباعث على الوعى واليقظة وزيادة المعرفة هو «القصد والتوجه». فلو أجلنا النظر فى علومنا ومعارفنا، وسمحنا لها بالدخول والجولان فى مجال الذهن، فقد أجّجنا لهيبها، وأزدنا من شدة وهجها واستعارها، وجعلناها بارزة ومميزة.

«التوجه» و«الذكر» هما علاج الغفلة، حيث تنشط وتنمو المعارف والعلوم الخفية والباطنية أو الميتة.

---

[1] المراد بالمعرفة والعلم فى هذا البحث هى المعرفة القطعية واليقينية، ومعنى «شدة وضعف المعرفة» فى هذه العبارة هو تصنيف لدرجة تاثيرها فى العمل، وليس لغرض تقسيم المعرفة إلى: اليقين، الثقة والاطمئنان، الظن، الشک والوهم. وعلى هذا، فان المعرفة الضعيفة، هى معرفة قطعية، لاتتوفق فى بعث الإنسان نحو العمل، وليست المعرفة المرددة او الموهومة.

و«عدم العمل» و«عدم الإقدام» يبتنى على «الجهل وعدم المعرفة»، والذى ينبغى معالجته بالدراسة هو «طلب التعلّم» و«التحصيل»، وأحيانا بسبب «الغفلة وعدم التوجه» ينبغى علاجه بـ«التذكير والموعظة»[1].

وهى تتخذ صوراً وأشكال عديدة هى:

١ـ التفكر

قد يقوم الإنسان نفسه أحياناً بالتذكير، فينشّط كثيراً من معارفه وعلومه ويحييها، ويمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة «التذكر»، و«التدبر»، أو «تلقين النفس»[2]. فلو خلدنا إلى النوم وذقنا لذّة الراحة فى تلك اللحظات، ثم فكّرنا قليلاً، وتذكرنا فوائد السواك، تزداد ميولنا ورغبتنا فى القيام بعمل السواك، وتجعلنا نقوم من مكاننا، فننبعث نحو فعل السواك. أو أننا عندما نفتح أبصارنا ونقوم من الفراش من نوم عذب ودافئ وقت الفجر، فلو حاورنا أنفسنا لحظات وكنا صادقين معها، وتذكرنا ثواب صلاة الليل وبركاتها، فسيستعر فينا لهب الشوق والرغبة المفرطة والشديدة، ويرجح فينا عندئذ القيام لعبادة الليل على النوم الهنيء ولذّة الفراش. أما لو أخذنا بنظر الاعتبار فى تلك اللحظات، لذّة النوم وحلاوته، وتصورنا مشقة القيام، وصعوبة التوضأ بالماء البارد، وغيرها من الأمور، وامتلأت أذهاننا بلذة الراحة والاستجمام، فسنخلد إلى النوم مباشرة، ونأوى إلى الفراش مرة أخرى. وهكذا لو أردنا إشباع رغباتنا وأحاسيسنا بضرورة الاستمتاع بمشاهدة أحد الأفلام السينمائية الشيّقة، ثم ألقينا نظرة أخرى على جانب من وظائفنا ومسئولياتنا، وساعات عملنا، وأردنا استقراء ومحاسبة الفوائد المترتبة على الفعل أو الترك فى الذهن، فسيكون العمل بالمسئولية والوظيفة أكثر نجاحاً فى موافقة العقل واتخاذ القرار ثم العمل به. وفى هذه الاثناء، لو شغلنا أذهاننا بالالتذاذ والاستمتاع بمشاهدة الأفلام السينمائية الممتعة، أو النظر إلى مشاهد جميلة ومثيرة، أو مشاهدة الابداع الفنى المستخدم فى هذا الفيلم، فسيزداد أحساسنا ورغبتنا فى متابعة المشاهدة، وتتقوى إرادتنا فى هذا الاتجاه.

قال على(ع): «إن التفكّر يدعو إلى البرّ والعمل به، وإن الندم على الشرّ يدعو إلى تركه»[3].

وعلى ضوء هذا، يمكن القول: بأن التفكر بما أنه يؤدى إلى حلّ المسألة ورفع الجهل، بل القضاء عليه، فهو مؤثر أيضاً فى إيقاظ القلب وتوعية الوجدان، وإيجاد الدواعى والقصود، ومتابعة الأهداف، قال(ع): «نبّه بالتفكر قلبك»[4].

---

[1] الغفلة لها مراتب عديدة: فمنها ما لاتمحى بالتذكر أو التوجه العادى نحو قضية ما، وهى بحاجة إلى قوة ومحرك قوى لتهيج معلوماتنا ومعارفنا الضعيفة، لترتقى وتعلو على سائر المعارف والعلوم.

[2] روى عن الإمام زين العابدين(ع) أنه قال: «يا ابن آدم، إنک لاتزال بخير ما كان لک واعظ من نفسک، وما كانت المحاسبة من همّک و...» (ميزان الحكمة: ٢٢١٧٣)

[3] مشكاة الانوار، ص٣٦.

[4] ميزان الحكمة: ٢٤٦٣.

٢ـ الموعظة

يتعرّض الإنسان أحياناً إلى تذكير الآخرين. فلو أوجد كلام الآخرين تحوّلاً ومعرفة جديدة فى نفوسنا فهو «الإرشاد» و«التعليم»، وإن أدى إلى إحياء علومنا ومعارفنا الموجودة فينا، فهو «التذكير» أو «الموعظة». فالإنسان قبل أن يكون محتاجاً إلى الإرشاد والتعليم، هو بحاجة إلى الموعظة والتذكير. فالعمل الذى يقوم به المعلّم فى قاعة الدرس هو إيجاد مفاهيم جديدة فى ذهن الإنسان. أما مهمّة الخطيب ووظيفته على المنبر فهى تفعيل الإرادة وتأجيج الحركة، فمخاطب المعلم هو ذهن الإنسان، أما مخاطب الواعظ الخطيب فهو «روح الإنسان وفكره».

إن المعلم الماهر هو الذى يقوم بنقل معلومات أكثر ببيان واضح وعذب إلى المخاطبين، أما الواعظ والخطيب الناجح والماهر فهو الخطيب الذى إذا انتهى حديثه، باشر مخاطبه العمل، وقطع بذلك.

فربما لايبيّن الواعظ الخطيب أىّ مفهوم جديد على منبر الوعظ والخطابة، وليس لديه أىّ موضوع يتناوله فى بحثه لكى يعلّمه للمخاطب، إلا أن تكراره وإعادته للمعلومات، وتحريكه المعارف الثابتة والجامدة فى ذهن السامعين لرفع الغفلة عن الأذهان، سيمهّد أجواء التحضير للإرادة.

ولهذه الجهة، علينا أن لاننزعج من ذكر المعلومات المكررة، بل ينبغى أن ندرج فى برامج حياتنا المشاركة فى مجالس الذكر والوعظ، والاهتمام بهذه الحاجة الفطرية والمستلزمات الذاتية والمطالبات الضرورية، ومن هنا ورد فى الحديث عن أئمة أهل البيت (ع): «عليک بمجالس الذكر»[١]، وأيضاً:«سامع ذكر الله ذاكر»[٢]. وقوله تعالى: «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ»[٣]، وقوله أيضاً: «يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»[٤].

٣ـ المشاهدة

إن مشاهدة عمل الآخرين مفيد ومؤثر فى إستثارة العواطف والمشاعر، والخواطر الذهنية، وإحياء المعارف والعلوم، بل إن هذا العمل هو أكثر بقاء واستمراراً من القول، وهو نوع من «الذكر غير المباشر». قال(ع): «كونوا دعاة الناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلک داعية»[٥].

وقال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ»[١]. فلو التزم أحد أصدقائنا وإخواننا بصلاة الجماعة مثلاً، وترک عمله وأغلق حانوته عند سماعه الأذان والنداء للصلاة، وحلّ نفسه عن كل قيد والتزام وتبعية دنيوية، فأىّ تحوّل

---

[١] بحار الانوار، ج ٧٥،ص ٤٦٥.

[٢] غرر الحكم: ٥٥٧٩.

[٣] الذاريات: ٥٥.

[٤] النحل: ٩٠.

[٥] الكافى، ج ٢، ص ٧٨.

وتغيّر سيحدث فعله هذا فينا؟ ستجدد معرفتنا، ونستعيد ذاكرتنا فی فضل وثواب صلاة الجماعة، والآثار والبركات الناجمة عنها، والخيرات المترتبة على الحضور فی المساجد، فهو يسهل الإقدام على هذا العمل، ويزيد الشوق والرغبة الشديدة فی أعماقنا ووجودنا، ويعيد جسور الثقة بأنفسنا، ويدعونا للحركة والذهاب إلى المسجد.

ولو كان هناک من ينظر إلينا بعين الحسد والشرّ، ويلتذ بالنظر الينا بنظرات مليئة بالحقد، فينتفقد أفعالنا ومعارفنا لغرض الإيقاع بنا، فيغيّر من نظرتنا حول دور وأهمية العمل وعظمته الى نظرة سلبية، فهذه المعرفة الملتهبة الحاصلة ستثير فينا شوقاً ورغبة فی الاتجاه نحو الحرام، ولو قويت هذه الميول والرغبات فستؤدی إلى ارتكاب الحرام.

۴ـ التجربة

تخلق التجربة المباشرة لفوائد شیءما صوراً خالدة وثابتة، ذات طابع مؤثر فی الذهن، وتذكير قوی وفاعل. فلو أردنا أن نتناول طعاماً لذيذاً مثلاً، فسنختبر فی البدء جودة هذا الطعام بعلمنا الحضوری، فالمعرفة والتصوير اللذان يوجدان بعد ذلک فی أذهاننا هو أكثر وضوحاً من سماعنا «وصف» رائحة الفواكه، أو طعام بمذاق ونكهة لذيذة، وستنبعث فی هذه الحالة رغبتنا وميولنا فی الكشف عن الأطعمة الجيدة واللذيذة ومعرفتها، وكيفية الالتذاذ بها. لكن الأثر ينبع عن تجربة شخصية هو أسمى من السماع بها. وبعد تبلور هذه المعرفة المميزة، فستحدث ميولاً ورغبات شديدة فی عمق وجودنا وروحنا، وتركيزاً لارادتنا، لتفعليها فی طلب المعارف وتحصيلها.

قال الإمام الخمينی(قدس سره) فی خصوص هذا الموضوع: «اعلم أن النفس كلما تمتعت فی هذا العالم، يؤثر ذلک فی القلب، وهذا التأثر ناتج عن الملک والطبيعة، ويكون بسبب تعلّقها بالدنيا. فكلما ازداد التذاذها، فسيزداد تعلق القلب وحبّه لها أكثر، إلى أن يصبّ ذلک التوجه كله فی زخارف الدنيا ولذائذها وشهواتها، وسيؤدی ذلک إلى حصول مفاسد كثيرة، وظهور أخطاء الإنسان، والابتلاء بالمحن، والمعاصی والسيئات، وسببها هو هذه الحب والتعلّق بالدنيا والرغبة إليها»[۲].

وذكر قدس سرّه فی موضع آخر: «أن التجرّی على المعاصی يسلب العزم والإرادة من الإنسان تدريجياً، ويسرق منه جوهره النضيد. قال أستاذنا – دام ظلّه – إن سماع الأغانی يسلب قبل كل شیء العزم والإرادة من الإنسان. فاحترز أيّها الأخ من ارتكاب المعاصی والذنوب، واعزم على الهجرة إلى الحقّ تعالى»[۳].

فما قيل: إن الافراط فی اللذائذ المباحة، والاستمتاع بالشهوات الدنيوية المحلّلة – كالتملّی من الطعام وكثرة النوم – يضعف الإرادة والعزيمة فی الإنسان، هو بمعنی: كون تجربة هذه اللذائذ سيؤدی إلى ظهور نزعات وميول ورغبات شديدة

---

[۱] الصف: ۲.

[۲] چهل حديث، ص۱۰۵، الحديث السادس.

[۳] چهل حديث، ص۸، الحديث الأول.

فی وجود الإنسان بالنسبة لهذه الأمور، وستجعله یحصر إرادته فی صرفها بهذا الاتجاه، وستحرمه من الاهتمام بکمالات أخری.

إن کثرة الالتذاذ والاستمتاع باللذائذ الدنيوية المباحة لن یرضی الإنسان ولن یشبعه، بل ستزید فیه حالات الحرص والطمع والطلب تماما کشرب ماء البحر[1].

ولو جرّب الإنسان هذه اللذائذ والشهوات، فستتقوی معرفته وإرادته، وقواه الادراكية، وستتجه نحو الرقی والکمالات العالية. ومن جرّب لذة طلب العلم أو مناجاة الله، فبما أن نفسه لم تتأثر بالصفات الرذيلة التی تنقص من شأنها، فستثیر فیه دواعی ومقاصد عدیدة للقیام بهذه الأعمال من جدید. ومن عاش مرحلة جدیدة من الثقة والطمأنینة، وو أحسّ بالارتیاح فی مجلس الدعاء أو التوسل مثلاً، فللمرة الثانیة له استعداد وتهیؤ أکثر»[2].

٥ـ تداعی المعانی

یمکن عدّ تداعی المعانی من مصادیق الذکر غیر المباشر، فهو یربط ذهن الإنسان بأشیاء ومفاهیم عدیدة ومتنوعة، فینتقل من أحد تلک المفاهیم والمعانی إلی مفاهیم ومعانی أخری غالباً، وهذا ما یحدث کثیراً فی حیاتنا، فتنشغل أذهاننا وتتأثر بشدة مثلا عند سماعها کلمة، أو حکایة، أو قصة، أو مشاهدة علامة، أو کتابة، أو تصویر، أو شیء آخر، وتتداعی وتنتظم صوراً جیدة أو سیئة فی لوحة ذهنه. وهذه الخصائص هی سبب فی أن تکون کثیراً من معارفنا وعلومنا غیر النشطة مؤثرة وفاعلة فی مواجهة ظواهر غیر مرجوة أو متوقعة!، فتمنح لعزمنا وإرادتنا جهة خاصة ومحدّدة[3].

ویشیر هذا الأنموذج إلی ذلک:

(التذکر، الموعظة التجربة، المشاهدة، التلقی) ⟸ الرؤیه ⟸ المعرفة الشدیدة ⟸ المیل الشدید الارادة.

إن ما ذکرناه هنا هو قاعدة عامة فی وجود الإنسان، یمکن الاستفادة منها فی إطار تحقیق الأهداف الحسنة أو السیئة – کالبرامج التربویة والدینیة – التی هی فی الحقیقة عرض ثقافی إلهی لنمو الإنسان وکماله، فمن خلال استخدام هذه الأصول والقواعد، یمکن تقویة إرادة الإنسان وتطویرها وتنمیتها فی مسیر الهدایة.

وقد استخدم الشیاطین والمنحرفون هذه الأصول والقواعد لأجل الوصول إلی أهدافهم الشریرة، لإضلال الإنسان وحرفه عن مسیر الهدایة الحقیقی. فمن خلال وسوستهم (أی تعریضهم له بذکر المعارف السیئة والقبیحة دائماً) یحاولون أن تتناغم وتنسجم أذهاننا وإرادتنا مع أمور غیر مفیدة أو مضرّة ومستهجنة – کتوزیع المخدرات أو الصور الخلیعة وعرضها

---

[1] روی عن الإمام السجاد(ع) أنه قال: «إن قسوة البطن... مما یثبط ویبطئ عن العمل، وینسئ الذکر» (المیزان الحکمة: ۶۴۸۵).

[2] روی عن الإمام السجاد(ع) فی مناجاته قال: «و اجعلنا من الذین اشتغلوا بالذکر عن الشهوات». (بحارالانوار، ج ۹۴، ص۱۲۷).

[3] راجع التفاصیل حول هذا الموضوع فی: کتاب «لباس روحانیت، چراها وبایدها»، ص ۹– ۲۴.

بمظاهر مختلفة ومتنوعة فى المجتمع، فهى تحاول تحريک غرائز الإنسان فى البداية وإثارتها، لإيجاد اللذة والشهوة، ومن ثم نسبتها لأمور وأشياء أخرى. وبعد حصول هذا القصد للتوجه نحو اللذائذ والشهوات، وبعد المعرفة الواضحة بهذه الميول والرغبات، تتكون الحركة والإرادة الدنيئة والمذمومة لتسير فى الاتجاه الأدنى.

وفى مقابل ذلک: فإن هناک قوانين وضوابط أخلاقية وتربوية دينية مخالفة تماماً لذلک الاتجاه المتقدم، فالصلاة مثلاً هى عنوان لأهم البرامج التربوية والدينية، حيث تقام خمس مرات فى اليوم والليلة، فتذكّر الإنسان بمبدأ العالم وانتهائه، قال تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى».[1]

إن أداء هذه الطقوس العبادية يحرک فينا كثيرا من معارفنا، ويوجد فينا دواعى وبواعث جديدة كمعرفة حقيقة الوجود، وصغر الإنسان فى هذا الكون الشاسع، وحاجته الماسة والشديدة إلى الله، ومعرفة النعم الإلهية التى لاتحصى، ومن ثم معرفة وظائفنا ومسؤولياتنا فى هذا العالم... فهذه المعارف الفاعلة والنشطة تطوّر ميولاً وأفكاراً ورغبات جديدة فى وجودنا، فتنتج وتولّد إرادات ورغبات جديدة تساهم فى تربية الإنسان وتثقيفه وتوعيته، شريطة الإتيان بالصلاة مع القصد وحضور القلب.

أما فريضة «الصيام» فإنها «تذكّر» بحالات البؤساء والمحتاجين والمحرومين، وبجوع وعطش يوم القيامة، وبهذا الطريق توجّه ميول الانسان ورغباته فى الاتجاه الصحيح، مضافاً إلى عدّها نوعاً من تمارين السيطرة والتحكم بهوى النفس، واختبار لذائذها العديدة، وطبيعى أن تؤدى هذه التمارين إلى إيجاد وترسيخ «ملكة التقوى» فى الإنسان.[2]

وتوجد هذه التجربة والاختيار المباشر معرفة واضحة ومميزة، وميول ورغبات شديدة وإرادة راسخة وعزائم قوية. والابتعاد عن اللذائذ الدنيوية النازلة فى حال الصيام يؤدى نوعاً ما إلى الغفلة عن تلک اللذائذ وتناسيها، وتنتهى فى النتيجة إلى عدم صرف الإرادة فى تلک اللذائذ.

أما تأثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو تابع لتلک القاعدة المذكورة أيضاً. فإذا اغتاب الإنسان أخاه المؤمن أو سخر بالآخرين واستخف بهم، فإنه يستفزّ الآخرين ويثير اهتمامهم، فتراه يظهر نفسه أمامهم بالمظهر اللائق!، فهذا هو فى الحقيقة اختبار لقدرته على تحقيق رغباته، وإرضاء ميوله وشهواته، وهوى نفسه.

النهى عن المنكر وبيان الآثار المضرة لذلک العمل، وتذكر عظمة الذنب وعقوبته، هى حقائق وأمور أخرى تلهب وتستعر فى الذهن والوجدان أيضاً، فإن علت هذه المعارف والحقائق على المعارف والحقائق السابقة وعلتها، فسيتبعها ترک للمعصية والذنب.

---

[1] طه: ١٤.

[2] قال تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة: ١٨٣).

إن أدنى رتبة النهى عن المنكر هى: الانكار القلبى. فلو أن الإنسان عجز عن التذكير، فعلى الأقل عليه أن ينوى فى ذهنه استنكار ورفض هذا العمل القبيح، واستعراض مراتب وجهات قبحه ودواعى رفضه. أى تفعيل معارفه الإيجابية مباشرة وشحنها واثاراتها فى عمق وجوده، لكى لايترک مشاهدة هذا العمل القبيح أثراً سلبياً على نفسه وروحه. ولهذا تتحدد وصايا علمائنا الربانيين فى ثقافتنا الدينية على ضرورة رعاية الدقة والحذر الشديد فى اختيار الصديق أو معاشرة العلماء الربانيين. قال تعالى: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ»[1].

وقال رسول الله(ص): «قالت الحواريون لعيسى بن مريم(ع): يا روح الله من نجالس؟ قال: من يذكّركم الله رؤيته، ويزيد فى علمكم منطقه، ويرغبّكم فى الآخرة عمله»[2].

وما قيل من أن تصور الإنسان للمعصية يضره أو أن نية الخير، فيها أجر وثواب جزيل، فبسبب تأثيرها فى تنشيط المعارف وتفعيلها، وإيجاد والميول والرغبات الإيجابية أو السلبية فى نفس الإنسان.

قال على(ع): «الفكر فى الخير يدعو إلى العمل به»[3]. وقال أيضا: «فكرک فى المعصية يحدوک على الوقوع فيها»[4]. ومن أجمل ما عرضه الدين للإنسان هو: تقديس الأزمنة والأمكنة وتشريفها، وأشياء معينة أخرى، حيث يذكر الانسان بطريق تداعى المعانى بحقائق هامة وراسخة فى حياة الإنسان، كتقديس المساجد، وتفضيل شهر رمضان على سائر الأشهر، واحترام تربة الإمام الحسين(ع)، وانتساب أيام الاسبوع إلى الائمة المعصومين(ع)... قال تعالى: « وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ»[5].

ومن هذا القبيل أيضاً الوصايا الواردة عنه (ص) فى ذكر فضائل الأئمة المعصومين (ع) وتعظيمهم، وزيارة قبورهم (ع)، وإقامة مجالس الذكر، والمشاركة فى تشييع الجنائز، والذهاب إلى مقابر المسلمين، وقراءة الفاتحة والترحم عليهم، واستحباب التلفظ باسم لفظ الجلالة «الله» فى بداية كل عمل، وقراءة الأدعية الخاصة فى كل الأزمنة والأمكنة، أو فى مختلف الظروف والحالات وشتى المناسبات، وتكرار الأذكار المستحبة، وتعظيم شعائر الله، واختيار أحب الأسماء وأفضلها فى تسمية الأبناء....

إن «للذكر» أهمية كبيرة وواسعة، وأبعاد تربوية وأخلاقية فى حياة الإنسان وهدايته، وقد أطلق القرآن الكريم على نفسه أسماء مثل: «الذكر»، «الموعظة»، وسمّى الأنبياء بـ«المذكّر»، قال تعالى: «وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَکٌ أَنزَلْنَاهُ»[6]، وقال سبحانه:

---

[1] الفرقان: ۲۸.

[2] الكافى، ج ۱، ص۳۹.

[3] تصنيف غرر الحكم: ص۵۴۰.

[4] تصنيف غرر الحكم: ص ۵۵۸.

[5] إبراهيم: ۵.

[6] الأنبياء: ۵۰.

«وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ»[1]، وقال عز وجل: «فذكّر إنما أنت مذكّر»[2]، وقال أيضاً: «وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَـقُّ وَمَوْعِظَـةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»[3].

والحث على تلاوة القرآن والتهجّد به باستمرار، هو فى الحقيقة توصية بتحريك وإثارة دائمة ومستمرة لبعض المعارف الحياتية، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك فى كتابه المجيد، فقال: «فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ»[4]. وتكرر هذا المعنى فى آيات عديدة أيضاً من الخطاب الإلهى فى القرآن الكريم.

نتائج ومطالب

١. يمكن بمعونة الأبحاث الماضية تحليل ودراسة «مستوى تـأثير البيئـة والوسـط الاجتمـاعى فـى إرادة الإنسان»، وذلك من خلال مشاهدة أساليب الآخرين، أو الأمور التى تحيط بهم، حيث يـتم فيهـا العثـور علـى المعارف الفاعلة والنشطة المميزة. وهذه المعارف فيها استعداد وقابلية واقتضاء لإيجاد الميـول والرغبـات، التـى تسهم فى تحصيل الإرادة فى الإنسان.

فمن كان قادراً مختاراً، فإنه «يتذكر» مباشرة، وبذا يمنع عن تطور هذه المراحل.

و«التذكر» معناه: أن يقلل الإنسان من صبغة المعارف وقابليتها وقدرتها النشطة والفاعلـة الموجـودة، والخاضـعة لسيطرة وتحكم المعارف الإيجابية الأخرى، والضغط عليها لسوق ميولها ورغباتها باختيارها وإشـرافها إلـى جهـات أخرى.

فعند ما يشاهد الإنسان تصرفات الآخرين الوقحة وشرذمة أفعالهم القبيحة مـثلاً، فإنـه يلحـظ مباشـرة سـوءها وقبحها وعقوباتها أولاً، فيحذّر نفسه من مغبة الوقوع فى مثل هذه الأفعال المشينة، ويعاهد نفسه بلزوم القضـاء علـى لذة مظاهرها الابتدائية وهى فى نطفتها، وبداية تكوينها، لكى لاتترك فى قلبه أثرا سيئا وغيـر مطلـوب. وعلـى هـذا يمكن الوقوف أمام تأثيرات المحيط والوسط الاجتماعى، وتعلم الآداب من غير المؤدبين كما قيل، وغيـر المتخلقـين والمنحرفين عن القيم والآداب الإسلامية.

وينبغى «التذكر» لدفع الوساوس الشيطانية (أى المعارف المشاكسة التـى تشـغل فراغـات واسـعة مـن الـذهن، وتحاول ملأ فراغاته ومساماته الموجودة، ثم النفوذ والسيطرة على القلب، والتحكم به)، قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا

---

[1] القمر: ١٧.

[2]. الغاشية : ٢١.

[3] هود: ١٢٠.

[4] المزمل: ٢٠.

مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ»[1]. وفی مقابل ذلک: کلّما نضجت وتکاملت التعالیم، وتمیزت المعارف المفیدة والإیجابیة لدی الإنسان، أصبح قادراً مختاراً فی تحطیمها، والقضاء علیها، والإطاحة بها. یعنی: أنه یقوم من خلال استحضاره عدداً من المعارف غیر المطلوبة فی ذهنه باضعافها، وشلّ قدراتها أو التقلیل منها.

فلو شاهد شخصاً مثلاً یهمّ القیام بعمل نافع ومطلوب، فإنه یفکر هکذا ویقول: «ما أعجب قدرة هذا الرجل وتحمّله وقابلیته؟! کیف یحمّل نفسه کل هذه المشقة والاتعاب!! وکم یحمّل نفسه ما لاتطیق، وهو بهذا یضاعف من أتعابه وآلامه!! وغیرها من الاسئلة الثرثارة وغیر النافعة، ویقال لهذه المرحلة: «الإعراض عن الذکر»، ومعناه: التخریب الإرادی للذکر، وتوسیع نطاق الغفلة، قال تعالی: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا»[2].

فکما أن الذکری (أی إحیاء المعارف العالیة والتصور المتجدد للقیم والمبادئ الأصلیة) توجب تنویر الإنسان وتثقیفه، ووضوح نظرته، فإن الإعراض عن الذکر هو فی الحقیقة عمی الباطن، وإغماض الطرف عن الهدایة. قال تعالی: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى»[3]. وقال علی(ع): «دوام الغفلة یعمی البصیرة»[4].

۲. اتّضح من الأبحاث المتقدمة أن إیجاد «المیل والرغبة» و«الکراهیة» فی موارد عدیدة، هی إرادیة واختیاریة. فالإنسان قادر من خلال القصد والتوجه واستذکار الکمالات أو نقائص الأمور ومعایبها فی وجوده، من إیجاد حبّ شدید وتعلّق قلبی أو کراهیة شدیدة وبغض قلبی، فالحب والکراهیة یخضعان لاختیار الإنسان وقدرته، وبهما یتعلق الأمر والنهی والتکلیف.

قال رسول الله(ص): «قال الله عزوجل لداود(ع): أحببنی وحبّبنی إلی خلقی. قال: یا ربّ، نعم، أنا أحبک، فکیف أحبّبک إلی خلقک؟ قال: اذکر أیادیّ عندهم، فإنک إذا ذکرت لهم ذلک، أحبّونی»[5].

وقال رسول الله(ص): «من أحبّ أن یرکب سفینة النجاة، فلیوال علیّاً بعدی، ولیعاد عدوّه، ولیأتمّ بالأئمة الهداة من ولده»[6]. وقال(ص) أیضاً: «أحبّ ما أحب الله ورسوله، وأبغض ما أبغض الله ورسوله»[7]. وقال(ص): «أبغضوا الدنیا یحببکم الله»[1].

---

[1] الأعراف: ۲۰۱.

[2]. السجدة: ۲۲.

[3] طه: ۱۲۴.

[4] غررالحکم: ۵۱۴۶.

[5] میزان الحکمة، الحدیث ۳۱۶۹.

[6] میزان الحکمة، الحدیث ۳۲۰۸.

[7] میزان الحکمة، الحدیث۳۱۰۵.

٣. كما إن لمعارفنا وعلومنا دوراً وأهمية فى ظهور ميولنا ورغباتنا وإرادتنا، فهى مؤثرة أيضاً فى إيجاد أو إبقاء الصور الذهنية. إن شدة العلاقة والحبّ للشيء، يوجب تجسيم الإنسان له تدريجياً دائماً، وإيداعها وحشرها فى ذهنه وخياله[٢].

إن عمدة تأثير «الفن» فى أعماقنا ونفوذه فى وجداننا وروحنا هو بسبب حالة السحر والجمال والجذب الذى يمتلكه بشكل ذاتى، فإنه يترك تصويراً وانطباعاً رائعاً فى الذهن. وهذه المعرفة الخالدة والراسخة لها تفوّق وميزة فى ظهور الإرادة.

٤. على الإنسان فى هذه المرحلة بذل الجهود والمساعى الحثيثة فى المحافظة على كيانه وأهدافه الوجودية، وذلک من خلال أهمية «الذكر» و«القصد والتوجه» المؤدى الى ظهور المعارف المتميزة والواضحة، وبروز الميول والرغبات الشديدة والإرادة، وعليه اجتناب الارتباط بالمظاهر والظواهر التى تسبب له انشغالاً ذهنياً، ينتج عنه كثيراً من الوساوس إن أمكن ذلک.

فإذا أراد الإنسان قراءة كتاب ما، فعليه أن يبنى جسور الثقة المتبادلة أولاً مع هذا الكتاب، ويطمئن قبل كلّ شيء من سلامته ولو نسبياً، ولايصغى لأى كلام يقال من هنا وهناک حول ذلک! ولايحضر فى أىّ مجلس من المجالس التى تتسبب فيها الى انتقاص أحد، ولايهتمّ لأىّ عرض من العروض التى تقدم له فى ذلک، ولايعير أهمية ولايعطى آذاناً صاغية لأى شاردة وواردة فى ذهنه، وخزعبلات من هذا القبيل، قال تعالى: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِکَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً»[٣]. وقال على(ع): «ليس فى الجوارح أقلّ شكرا من العين، فلاتعطوها سؤلها فتشغلكم عن ذكر الله»[٤].

ومن جهة أخرى: يجب على الإنسان أن يسعى ويبذل جهوداً فى تقوية الارتباط مع الظواهر التى توجب انشغال الذهن بالأمور العالية وتسمو به نحو الآفاق والكمال، ولايبخل فى بذل الأموال فى هذا الطريق.

قال الإمام على(ع): «لم يذهب من مالک ما وعظک»[٥]. وهناک برامج ومشاريع مؤثرة تساهم فى تحقيق هذا الهدف كقراءة الكتب الأخلاقية المفيدة بشكل مستمر ودون انقطاع، والارتباط بالمؤسسات المعنوية ومراكز المعرفة،

---

[١] ميزان الحكمة ، الحديث٣٠٩٩.

[٢] قال على(ع): «من أحبّ شيئاً لهج بذكره» (غرر الحكم: ٧٨٥١).

[٣] الإسراء: ٣٦.

[٤] غرر الحكم: ٧٥١٩.

[٥] نهج البلاغة، الحكمة ١٩٦.

وترسيخ العلاقة والارتباط بالعلماء الربانيين، وغير ذلک، قال علی(ع): «کفی بالمرء غفلة أن یصرف همّته فی ما لایعنیه»[1].

۵. «الإیمان» هو المعرفة الناضجة والفتیّة المليئة بالحيوية والنشاط، والفاعلة التی تعدّ منشئاً للعمل. فالاعتقاد القلبی المتمیز والواضح یتغلب علی سائر المعارف، فیتحکم بإرادتنا، ویسیطر علی عقولنا وأفکارنا. ولاتتأثر المعارف الحیویة والنشطة – التی علت علی المعارف الأخری، ومنحت دواعی هذا الإقدام العملی – بسائر المعارف المعارضة، لأن الصورة الراسخة والخالدة التی نفذت إلی ذرات وجودنا وعمق نفوسنا، ودخلت بأدنی مناسبة بکل هیبة وسطوة، فهیمنت علی أجواء الذهن، لتطرد معارضیها عن تلک الأوساط، لایمکن تناسیها أو التغاضی عنها أبداً تلک الأوامر الصادرة فی مقام العمل، وهی ناجحة دائماً وموفقة فی إیجاد الدواعی والأهداف. فإن کانت هذه الخصائص کثیرة فی أمر ما، فسیزداد إیماننا بها أکثر، مثلا مع عدم وجود المانع، نستقبل أکل الفواکهً، لأننا نؤمن بفوائدها، ونلتذّ بنکهتها

کلنا نعلم بأن الله قادر علی کلّ شیء فی الوجود. فما هومنشأ هذا العلم الحاصل عندنا؟ وکلّنا نعلم أن الله مراقب لأعمالنا، وعالم بنوایانا، ومطلع علی سرنا وخفایانا. فما عمق هذه المعرفة فی وجداننا وأرواحنا وأجسامنا؟ وما حجم وميزان هذا الحضور والتواجد والشهود الإلهی فی أذهاننا؟ وکلنا نعلم أن الله تعالی تکفّل بأرزاقنا، وضمن ذلک لعباده، وهو سبحانه کاف عبده، کما جاء ذکره فی الکتاب والسنة وأقوال المعصومین (ع). فإلی أیّ مستوی نلتزم بهذا الاعتقاد ونعمل به؟ وکلّنا نعلم أن الله عارف بصلاحنا، خیرنا وشرنا، وقد وضع خططاً مدروسة ومتکاملة للوجود، وللإنسان تحدیداً.

فکم نحن متعبدون ومقیّدون بتطبیق الأحکام الإلهیة والعمل بها؟!.

ولماذا عندما لاینسجم حکم الله أحیاناً مع نظرتنا وتوجهاتنا المستقبلیة نسعی جاهدین لأن نتحرر من طاعة أوامر الله، ونقوم دائماً بتحکیم رغباتنا، والعمل بإرادتنا، من خلال عرض قراءات جدیدة لأحکام الله، أو تأویل هذه الأحکام الالهی. وملخص الکلام: نحن لا «نؤمن» ولانثق بمعلوماتنا ومعارفنا، أو نؤمن ونثق بها قلیلا! لأن إیماننا کلما کثر وازداد، فسیکون عملنا أسهل، وکلّما قلّ إیماننا، ازدادت الغفلة، وصعب العمل أکثر.

ومن جهة أخری: کلّما ابتنی عملنا أکثر علی أساس معرفتنا، فستفتح آفاق اعتقادنا القلبی، ویکون إیماننا أکثر نمواً وازدهاراً.

أما إذا خالفنا معرفتنا، فسیکون إیماننا أکثر وهنا وضعفاً، لأننا أشبعنا وأنضجنا معارفنا ومعلوماتنا الأخری بالتجربة والعمل، إلا أن معرفتنا التی ینبغی الاعتقاد بها اعتقاداً راسخاً، ظلت تتراوح فی مکانها بنفس المستوی.

---

[1] غرر الحکم: ۷۰۷۴.

ويشير هذا الأنموذج إلى ذلک:

الايمان ⇐ العمل ⇐ الايمان ⇐ العمل ٢.

إن مستوى إيماننا بكل مفهوم هو بميزان تبلوره واشتهاره فی وجودنا، فكلما ظهر هذا المفهوم أكثر وضوحاً ونمواً وتميزاً، كان أكثر نجاحاً وتوفيقاً فی تحريک وانبعاث الإرادة، وتشديد الدواعی وتحقيق الأهداف، وأكثر قربا إلى العزم والإقدام على العمل.

فلو نهضنا مثلا فی منتصف الليل، وتركنا دفء الفراش والالتذاذ به، شوقاً للقيام بعمل ما، فهو بسبب إيماننا وثقتنا بفوائد ذلک العمل. وإن لم نمتلک القدرة الكافية والقابلية على أداء صلاة الليل، فهو بسبب أن إيماننا ليس بذلک المستوى العالی، وضعف فهمنا واستيعابنا للفوائد العديدة لمثل هذه العبادة، وما وعد الله من الأجر والثواب.

٦- إذا ربطنا تعاليم ومنهجية هذا البحث بنتائج بحث كمال الإنسان، فسنعثر على حقائق جديدة فی هذا المضمار.

لقد عرفنا أن كمالنا نحن البشر يتحقق فی إطار «العبودية» ومعرفة الخالق. لذا فإن هدفنا ومطلوبنا هو الوصول إلى هذه المرتبة، وأن تكون إرادتنا منصبّة فی هذه الاتجاه.

إن أهم مشروع وبرنامج عملی، يستوعب مساحات كبيرة من حياتنا هو: مشروع وبرنامج التكامل الإنسانی، الذی يتحقق فی ظل «العبودية» وحدها. فإذا كان كذلک، فينبغی صرف كثير من قوانا وأوقاتنا فی هذا الهدف. ولهذا السبب، يعدّ ذكر الله وصفاته أمراً لازماً ومهماً، بل وحيوياً للإنسان، فی كافی الحالات والظروف.

إن ذكر الله والتأكيد على صفاته وأسمائه يغيّر كثيراً من معارفنا وعلومنا التی امتزجت بوجودنا وواقعنا فی الحياة، وسيبعث على إيجاد كثير من الميول والرغبات الفاعلة والنشطة، والدوافع القوية والصلبة لطلب رضا الله والتقرب إليه، والتشبّه به، كما ورد ذلک فی الحديث القدسی[١]، والاتصاف بصفاته، وستنتهی هذه الرغبة الشديدة بعد توجيه إرادتنا الى السعادة، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا»[٢]، وقال رسول الله(ص): «أكثر ذكر الله، تكن أخصّ العباد إلى الله تعالى»[٣].

٧- تتعلق الإرادة بأمر كلّی. فاتخاذ الإنسان قراراً للقيام بأمر ما إنما يكون عمليا بهذا الشرط وحده وهو: أن يتم التركيز على أمر محدود جزئی، فلو تقول مثلاً: «سأقرأ الكتاب فی المستقبل» فهو أمركلّی، لاتتعلق به الإرادة، إلا إذا تحدّد فرداً معيناً منه، فتقول: «سأقرأ هذا الكتاب غداً صباحاً» أو «أقرأ هذا الكتاب مباشرة فور وصولی إلى البيت».

---

[١] إشارة إلى الحديث القدسی وهو قوله عز وجل: «عبدنی أطعنی تكن مثلی، تقل للشیء كن فيكون».

[٢] الأحزاب: ٤١.

[٣] كنز العمال: ٤١٥٤٠. وقد ورد فی المناجاة الشعبانية عنه(ع) قال: «و اجعلنی ممن يديم ذكرک»، وفی دعاء كميل: «أن تجعل أوقاتی من الليل الليل والنهار بذكرک معمورة».

ومن شواهد هذه القضية: أن البشر يشرعون بالعمل فى آخر فرصة ممكنة دائماً، أى العمل فى اللحظات الأخيرة، لأنهم قبل وصولهم إلى آخر آنات الوقت إن قسمناه إلى آنات، فهناک موارد أخرى تتعلق بها إرادة الإنسان. أما الآن الأخير من تلک الآنات المتقطعة من الزمان، فليس أمامه الا مورداً واحداً متعيّناً عليه أن يختاره وحده.

////وقوله: «سأفعله بعد ذلک» يضاهى من الناحية العملية قوله «لن أفعل أبداً»، لأن لفظة «بعد ذلک» لها مصاديق عديدة، ولاتتعلق بها الإرادة. ومن هنا: يلزم الأخذ بنظر الاعتبار عند القيام بأىّ عمل، أن يكون هناک مصداقا محدداً ومعيناً له. فإذا أردت فهرسة الأعمال ووضع برامج وخطط منظّمة ودقيقة للعمل مثلا، فينبغى تثبيت وكتابة ساعة وتاريخ البتّ به وإلانتهاء منه.

وفيما يتعلق بتقديم النصائح سواء للنفس أو للغير، من المناسب أن تكون هناک توصيات ونصائح جزئية ومحددة الى جانب النصائح العامة، ليكون إنجازها سهلاً ومستساغاً.

ومن جهة أخرى: إذا أردنا أن لانفعل شيئا فعلينا أن نؤخره. مثلا إذا طلب أحد منا طلباً غير مناسب، ولانحب ردّه مباشرة، يكفى أن نقول له: «سأفكر فى الموضوع فيما بعد»! أو تقول له: «لا أستطيع فى الوقت الحاضر، راجعنى فى يوم آخر».

إن من أهم خدع الشيطان وألاعيبه هو: استخدام الأساليب المخادعة والمضللة لإضعاف عزائم الإنسان وهممه وإرادته، ومنها ما اصطلح عليها فى الروايات والأخبار عن المعصومين(ع) بـ«التسويف». أى القول دائماً: «سوف أفعل، سوف أكتب و...، وتأجيل عمل اليوم إلى غد!! فكلما قرر الإنسان القيام بعمل صالح، يوهمه الشيطان ويوقع فى خاطره ونفسه أن يقوم به فى وقت لاحق وفرصة أخرى إن سنحت له، فهناک فرص كثيرة وواسعة أمام الإنسان! فيثبّطه عن فعله، ويضطّره إلى تأجيله.

وهذا التأخير والتأجيل يلازم عدم القيام بهذا العمل، وهو فى حكم عدم قيامه بأى عمل!. لأن مضى الوقت ومرور الزمن يضعف إرادة الإنسان ومعرفته بضرورة وأهمية هذا العمل، وستؤثر فيه آفة الغفلة، فلايبقى له أثر يذكر.

٨- إن العمل بهذه الوصايا وإن كان عسيراً وصعباً فى بدء الطريق، ومضعفاً للحيوية والطاقة البشرية وقدرة الإنسان، إلا أنه ينتج فى نهاية المطاف حالات الاستقامة والثبات، ويبنى فى وجودنا بعد مرور برهة من الزمن وإن كانت وجيزة ملكة «العزم والإصرار والإرادة وصنع القرار»، فيسهّل لنا حركتنا واتجاهنا يوماً بعد آخر.

الاصل الخامس: تجديد النية

عرفنا فى الأبحاث السابقة أن «النية» روح العمل، وأن العمل بلا نية، وإن كان صالحاً وكبيراً إذا افتقد لقصد القربة ورضا الله تعالى، ولايكون مصداقا «لعبوديته» سبحانه، فهو أبتر، وعديم التأثير فى حركة تكامل الإنسان الحقيقى.

إن «العبودية» هى الضمان الحقيقى والقيمة الواقعية للإنسان. فكلّ عمل يرفع شعار «العبودية لله» فهو عمل ناجح ومثمر، مفيد ومؤثر، فينبغى أن يكون أداء أىّ عمل مهما كان حجمه وسعته بقصد التقرب إلى الله، وأن يحمل صبغة إلهية وطابعاً توحيدياً. فمن الواضح أن النية لايمكن تحققها بدون «القصد والتوجه»، وأن الأعمال التى تفتقد الوجهة والقصد، إنما هى أعمال ناتجة عن حالات الغفلة والسهو، وليس لها قيمة حقيقة «سواء كانت صالحة أم طالحة، حسنة أم رديئة» ؛ لأن التوجه والقصد هما من مقدمات الأفعال الاختيارية.

وفى المقابل: كلما كان الانسان على درجة أكبر من «التوجه والالتفات» حين قيامه بالفعل، كان أكثر قدرة على «التوصل الى النية»و بلورتها، وسيساعد كثيراً فى التمهيد لـ«ظهور النية». ولهذا: فإن الأعمال التى تصدر عن الغريزة، وكذا الأفعال التى تصدر عن العادة، ستكون أقل فائدة وأقل أهمية، وذلک لضعف عامل «التوجه» والقصد، وعدم وضوح الرؤية.

وعلى هذا، فإن النية هى أهم من العمل نفسه. وإن إصلاح النية هو إصلاح لكيفية العمل، وإصلاح النوعية مقدم على إصلاح الكمية. وقبل أن نعرف حجم العمل ومقداره، ينبغى أن نفكّر فى نوعيته ومرغوبيته دون كميته!. قال الامام الصادق(ع): «النية أفضل من العمل»[1]. الاخلاص هو كيمياء العمل، فإنها قادرة على تحويل النية فى عملنا القليل الحجم والضئيل المقدار إلى عمل ثمين، ذى قيمة حقيقية، مثيرة للاهتمام. ورد فى الأثر: قال الله مخاطباً موسى(ع): «يا موسى، ما أريد به وجهى فكثير قليله، وما أريد به غيرى، فقليل كثيره»[2]، وقال رسول الله(ص): «أخلص قلبک، يكفک القليل من العمل»[3]. فالعمل الكثير بلا نية، متاع قليل ورخيص وفارغ عن أىّ محتوى. أما العمل القليل الخالص، فهو جوهرة ودرة ثمينة، فكلما ازدادت مراتب الإخلاص فى العمل، ازداد وزن وقيمة هذه الجوهرة الثمينة والدرّة النفيسة، ولأجل معرفة هذا السرّ المخزون، والمحافظة على هذا الإكسير الثمين، علينا القيام بما يلى:

١- بذل الجهود والمساعى الحثيثة والخالصة، وشحذ الهمم والعزائم، والقصد نحو إصلاح النوايا والخفايا، واستزادة الإخلاص.

٢- علينا أن نجسّد الروح الإلهية والنوايا الخالصة فى سلوكنا وأعمالنا كبيرها وصغيرها. قال رسول الله(ص) فى وصيته لأبى ذر الغفارى: «يا أبا ذر، ليكن لک فى كل شىء نية صالحة، حتى فى النوم والأكل»[4]. وروى عن الإمام الصادق(ع). قال: «لا بد للعبد من خالص النية فى كل حركة وسكون، لأنه إذا لم يكن هذا المعنى، يكون غافلاً»[5]. وروى عن رسول الله(ص) قال: «إذا عملت عملاً، فاعمل لله خالصاً، لأنه لايقبل من عباده الأعمال إلا

---

[1]. وسائل الشيعة، ج ١، ص٣۶.

[2] الكافى، ج ٨،ص۴۶.

[3] بحارالانوار ، ج ٧٨، ص٩٠.

[4]. مكارم الأخلاق، ج ٢، ص٣٧٠.

[5] بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٢.

إذا كان خالصاً»[1]. فكل عمل فيه نية خالصة ورضا لله عز وجل، فهو «خطوة نحو الكمال»، وكل عمل خال من الصبغة والإيقاع الإلهى، فهو هدر ومضيعة لعمر الإنسان وقواه البدنية والفكرية، وليس فيه منفعة وفائدة، ولاربح مادى أو معنوى. قال تعالى: «إِنَّ الانسَانَ لَفِى خُسْرٍ * الا الَّذِينَ ءامَنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»[2]. فالدواعى الخالصة التى تصدر هى كمال للانسان، وذات قيمة معنوية عالية. ولو تسربت هذه النوايا والقصود إلى كافة أعمال الإنسان وحركته فى الحياة، لأصبحت كلّ لحظات عمره مفيدة ومثمرة فى مختلف الأصعدة وكافة المجالات، وسيكون نومنا وأكلنا أيضاً لطلب الأرباح والمنافع المعنوية، ولاتعدّ أوقات الإنسان عديمة الفائدة.

بالنية الخالصة يمكن الانشغال بتهذيب النفس، وطلب الكمال فى كل ساعة ولحظة، والتعاطى مع القيم والمبادئ والمعارف فى كل صباح ومساء مع الواقع، وفى كلّ ليل ونهار، فى أربع وعشرين ساعة يومياً على الدوام[3]. قال على(ع) فى وصيته لمالک الأشتر: «...و إن كانت كلّه لله، إذا صلحت فيها النية»[4]. ولايتحدّد القيام بـ«تهذيب النفس» بفترة زمنية محددة، فترفيهنا وسياحتنا وتجوالنا هو عبادة أيضاً، إذا كان بقصد رضا الله سبحانه، وهو خطوة نحو الكمال والسعادة الأبدية، إذا كان له نكهة وصبغة الطاعة لله. فكلما اكتملت معرفة الإنسان، وخلصت نيته، يعتبر عمله خطوة كبرى نحو الكمال المقصود والهدف المنشود.

إن إصلاح النية بحاجة إلى الترويض الروحى والبدنى والقيام بالتمارين اليومية الصباحية والمسائية، وبذل الجهود والمساعى الحثيثة للاقتراب من «العبودية» لله عز وجل، ولايحصل هذا بلا توجه وقصد.

أما العظماء والعرفاء فهم نوادر الإخلاص والتوجه والتقرب إلى الله سبحانه، لأنهم جمعوا لأنفسهم ثروة وتراثاً مليئاً بالقيم والكنوز والذخائر الإلهية والمعارف المعنوية. كان آية الله العظمى بهجت (رحمه الله) يشرع درسه بذكر الله وحمده والثناء عليه للحظات يومياً، ولم يترک هذه السنة الحسنة والحميدة فى كلّ الظروف، وكان هذا التقيّد أيضا واضحاً على ملامح الإمام الخمينى (قدّس سرّه) فى مسيرته الثورية وحركته فى الحياة.

إن برنامج ومشروع تجديد النيّة كان سببا فى أن تكون قاعة الدرس وإلقاء المحاضرات غنية بالفوائد العلمية الثرية للتلاميذ، ولها منفعة إنسانية للأستاذ أيضاً، حيث يمكن «قبل العمل بلحظات» إحياء النية والقصد والتوجه إلى الله، ومنح صبغة وطابع أخلاقى ومعنوى إلى العمل، والمساهمة فى السمو والرقىّ فى مراحل الكمال والسعادة الأبدية، وقد علّمنا مولانا أمير المؤمنين على(ع) هذا الدرس فى قتاله لعمرو بن عبدود العامرى.

وهنا عدة أمور حاصلة فى هذه اللحظات قبل العمل، وهى:

---

[1] بحار الأنوار، ج۷۷، ص ۱۰۳.

[2] سورة العصر.

[3] ورد فى دعاء كميل عن على(ع) قال: «وهب لى الجدّ فى خشيتک، والدوام فى الاتصال بخدمتک».

[4] نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

أولاً: الاطمئنان والثقة برضا الله عز وجل عن هذا العمل.

ثانياً: طلب الإخلاص فى النية، وسلامة الهدف والداعى من الله.

ثالثاً: الاختلاء والاعتزال لمناجاة الله، وعرض العمل على ساحته المقدسة.

رابعاً: اتخاذ القرارات الجادة لطرد الدواعى والأغراض والنيّات المشاكسة وغير الصحيحة.

«العبد لله» هو الذى يفكر قبل كل شىء برضا الله، وبعد العمل، لاينسى أن الله كان من وراء القصد، وحصول التسديد فى القيام بذلك العمل منه عز وجل، فعليه أن يكون لأجل هذا شاكراً لأنعم الله فى قيامه بهذا العمل.

إن علامة الإخلاص فى العمل هى أن لايرجو إطراء الناس والثناء عليه، ومديحهم له. قال الإمام الصادق(ع): «العمل الخالص الذى لاتريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عزوجل»[1]، والأتم فى الشكر هو: إسناد القيام بهذا العمل مباشرة إلى لطف الله وتسديده ورعايته، فيكون شاكراً لتوفيقه وعنايته به. والأتم الأكثر من ذلك: هو أن لايمنّ على الله فى علمه! ولايرجو منه شيئاً آخر؛ لأن درجات الإخلاص فى النية يرتبط مباشرة بمراتب معرفتنا بالله.

ومن جهة أخرى، فإن درجات المعرفة أيضاً ترتفع وتعلوا بالجهود والمساعى فى تطهير النية.

يشير هذا الأنموذج إلى ذلك:

... [2]

ملاحظة: ليس أهمية الجهد والسعى لإصلاح النية بمعنى تعطيل العمل حتى حصول الثقة والاطمئنان بتواجد الإخلاص فيه، فقد طلب الله عز وجل منّا أداء التكاليف الشرعية، فترك العمل بتوهم أنه مشرب بعدم الإخلاص فى النية، هو معصية لله، فلايجوز ترك العمل الصالح، وإن احتمل فيه شائبة الرياء، إلا أنه ينبغى أن يشدد الانسان على نفسه فى إصلاح النية!

الأصل السادس: الإعداد لتحصيل الملكة

تبدو النفس الإنسانية فى ابتداء ولادتها وأول حالاتها ضعيفة وبسيطة وعديمة اللون، فاقدة الرمق، إلا أنها وبمرور الوقت تكسب قدرات وإمكانيات عديدة، فتتخذ لها طابعاً محدّداً ومميّزاً بعد ذلك. وتسمى هذه القدرة والقابلية الثابتة

---

[1] نهج البلاغة، الرسالة ٢٦.

[2] لاينبغى فى هذا الارتباط تصور شبهة «الدور» أو التسلسل، أو شبهة تقدم البيضة على الدجاجة أو العكس فى الذهن!. وهذا يشبه الحركة على النابض (الفنر). ففى أى نقطة بدأت هذه الحركة الدورية، فإنها بعد حركتها ٣٦٠ درجة، لاتعود ثانياً إلى نقطة البدء. بل تعود إلى نقطة مشابهة لها، لكن فى مستوى أعلى وأكمل.

وعلى هذا، فإن ما أشرنا إليه سابقاً من ارتباط الإيمان بالعمل الصالح يوضّح اختلاف النية الأولى مع النية الثانية، والمعرفة الأولى بالمعرفة الثانية.

للنفس بـ«الملكة». فكل ملكة هى صفة لنفس الإنسان، وقد ظهرت بإرادته واختياره إثر تكرار العمل فى فترة زمنية معينة. وبعد الظهور، فيمنح العمل نوعاً من السرعة والسهولة.

تقسم ملكات النفس الإنسانية إلى عدة أقسام:

الف) بعض الملكات «جسمانية» وتظهر كثيرا فى أعضاء الجسم. ويعدّ الحصول على هذا القسم من المهارات والملكات بـ«التربية البدنية»و ترويض الجسم، كمهارة المشى، وركوب الخيل والفروسية، وأنواع الرياضات الجسمانية والقوى البدنية الأخرى.

ب) بعض الملكات هى قدرات وقابليات «ذهنية»، يعتبر الحصول عليها والوصول لها «تربية ذهنية»، كملكة التركيز، الدقة، الذهن الوقاد، القدرة على الحفظ، سرعة الانتقال، القدرة على التحليل والنقد، التفكر، البرمجة والتخطيط، وأنواع الرياضات الفكرية.

ج) مجموعة أخرى من الملكات هى الصفات «القلبية» و«الروحية» لدى الإنسان. وقد تناولتها كتب الاخلاق وأشبعتها بحثا ونقداً وموضوعية جملة وتفصيلاً.

فملكات الفضيلة هى:

الشجاعة، السخاء، الحلم، التواضع، السيطرة والتحكم بهوى النفس، الصمود والصلابة، التحدى والمثابرة، والسعى والجهد.

أما ملكات الرذيلة فهى:

النفاق، المكر، الرياء، القسوة والشدة، الغلظة، والعنف، وغيرها.

ويراد من طلب وتحصيل ملكات الفضائل الأخلاقية «تربية النفس» والسعى لتحصيل القلب السليم.

د) وهناك ملكات معقدة أخرى ناتجة عن قدرات وقابليات عديدة ومختلفة موجودة فى البشر. فملكة «القراءة السريعة» مثلاً هى نتاج تركيب قدرة البصر وتركيز الذهن، ويشمل هذا القسم كثيرا من المهن والمهارات والفنون: كالخياطة، والحياكة، والطبخ، والتجارة، والحدادة، وعمل الخواتيم، وغيرها.

فوائد الملكة

إن كل ملكة لدى الإنسان هى بمنزلة أداة وآلة مفيدة ومؤثرة، وضعت فى اختياره ليستثمرها فى حياته، وأعماله الخاصة والعامة، وتعطى كلّ ملكة من خلال استثمارها ولو بجهد قليل وزمن قصير ثماراً وفوائد كثيرة مميزة ونافعة. فلو أردنا مثلاً أن نحفر حفرة صغيرة بأصابع اليد، فإن هذا يستغرق ساعة واحدة على الأقل، ويحتاج إلى بذل الجهد وتحمل الصعوبة والمشقة! أما إذا كان لديه آلة حفر «كالمسحاة» فإن حفرها يستغرق دقائق! وبذل جهد أقل، وبسهولة، بل يمكن الحفر أكثر، ببذل مجهود أقل، وبسهولة وسرعة أكثر، فى تلك الساعة التى تم بها الحفر بالأصابع!. وكلّما تطورت آلة

الحفر، يتم الحفر أكثر وبسرعة فائقة، ووقت أقلّ، فنوفّر لأنفسنا الوقت والجهد والقدرة!، ويؤدى هذا العمل إلى نتائج مرضية ومعطيات أوسع. أما إذا امتلكنا جرّافات وبلدوزرات أو كامبيوترات وأجهزة متطورة وذو تقنية عالية، فإنه يمكن إنجاز الأعمال فى أخصر وقت وأقل جهد وبأبخس الأثمان بهذه الوسائل والأدوات المتقدمة والمتطورة والتقنية الحديثة، فإنها تؤدى أعمالاً يعجز عنها الكثيرون فى هذه الفترة المحددة، ويستغرق هذا العمل أياماً وأشهراً وسنوات بدون هذه الآلات والأدوات، ويتطلّب بذل جهود مضاعفة ومساعى حثيثة وواسعة كما ذكرنا.

فكذلک ملكات النفس الإنسانية!، فصاحب الملكة يبذل أدنى جهد ودقة، وتوجه واهتمام فى فترة وجيزة ومحدّدة، فيستدرّ جراء ذلک أرباحاً طائلة وثروات هائلة.

إن كتابة وتحرير موضوع معين فى صفحة واحدة لأطفال مبتدئين فى مدرسة للناشئين يستغرق جهداً كبيراً وقوة جسمانية وفكرية واسعة، وزمان طويل، وليس فى عمله هذا فائدة علمية ومفيدة تذكر!، وليس له قيمة وأهمية عالية!.

أما من اكتسب ملكة جودة الخط والكتابة، فإنه يقدم لوحة جميلة ونفيسة بأدنى جهد، وأقل دقّة وتوجّه، وبذل وقت محدد وقصير.

وكذلک السياقة للسيارات، فإنه صعب وخطير للناشئين المبتدئين، لأنه بحاجة إلى تركيز كثير، ودقّة عالية، ويتبعها فى هذه الحال أخطار فادحة على الراكبين. لكن السائق الماهر، يمكنه القيام بأعمال أخرى تزامناً مع قيادته للسيارة أيضاً، دون أن يبال بشىء أو يخاف على نفسه!، وهو قادر على قيادة سيارته بمهارة عالية، دون أن تواجهه أيّة حادثة فى السير، وهو يطوى مسافات بعيدة فى فترة زمنية محددة.

وكذلک بالنسبة إلى حفظ المقطوعة الشعرية عن ظهر القلب للإنسان العادى والبسيط، وذلک فى مقارنته بمن يمتاز بذهن ناشط وقّاد، وقدرة وقابلية فائقة وملكة عالية فى الحفظ.

وكذلک كتابة الشاب المبتدئ بحثاً موضوعياً وأطروحة دراسية مثلاً، ومقارنته بباحث ماهر متمرّس فى كتابة البحوث والمقالات، أو المحافظة على حضور الذهن والقلب فى الصلاة[1] للبشر العاديين، فى مقارنتهم مع من لهم ممارسات عالية فى تهذيب النفس، وتحصيل ملكة الحضور والخشوع.

وعلى هذا، فإن العمل الذى يبدو صعبا فى أولى مراحله، ومشقة لاتطاق فى بداياته، أو نتصوره مستحيلاً فى كافة مراحله، لايبقى هكذا دائماً، بل يسهل بمرور الوقت، فيكون ممكناً للغاية.

«السرعة»، «السهولة»، «الكيفية»، و«السعة» هى كلها منجزات ثمينة وقيّمة، بل مباركة فى الملكة، تدعو وتشجّع كل إنسان عاقل ذى هدف إلى تحصيل قدرات وقابليات ثابتة وراسخة فى النفس، ويلفت نظره قبل القيام بالعمل والوصول

[1] حضور الذهن فى الصلاة معناه: حفظ التركيز الذهنى، والقصد والتوجه إلى معانى الألفاظ ومفاهيمها وحركات الصلاة. أما حضور القلب فمعناه: حفظ الحالات الروحية: كالانكسار والتذلل والخضوع والخشوع، والتوجه والتذلل القلبى واستذكار عظمة الله عز وجل.

إلی النتيجة، الی كيفية ونوعية العمل، واكتساب القدرات والقابليات فی إنجازه وأدائه، وهو ينطبق علی المثل الشعبی السائد: «علّم صاحبک صيد الأسماک بدل أن تعطه السمک». وكلما كان للملكة الحاصلة قدرة عالية فی التأثير، ومعطيات كثيرة، فستكون أكثر سداداً ونجاحاً وقدرة فی خدمة المجتمع. فلو قارّنا ملكة الرجوع والعودة إلی مصادر اللغة بملكة الاجتهاد، فسنراها شبيهة تماماً بآلات الحفر القديمة كالمسحاة الصغيرة، والآلات المتطورة والتی تمتلک تقنية متميزة وقدرة عالية بدءاً بالجرافات والبلدوزرات، وانتهاء بأجهزة الحاسوب وغيرها. أو فی مقارنة المشی بالنسبة إلی رياضة الجمناستيک، فهی بمنزلة المنجل والحاصود.

إن عمر الإنسان المحدود لايسمح له بأن يستثمر كلّ الفرص والامكانات والملكات، فمن اللائق والمناسب إذن أن يكون مستوی أهمية الملكات، ومعرفة الذخائر والثروات المخزونة التی تقدّر بعمر الإنسان، هی خاصة بالقابليات والقدرات الضرورية والمفيدة[١].

كيف يمكن الحصول علی الملكات؟

هذا السؤال بصدد معرفة الفوائد الكبيرة والعظيمة المترتبة علی تحصيل الملكة مباشرة فی الذهن، فالمفاهيم التالية هی إجابة عن هذا السؤال المذكور، وتلک هی:

١. يمكن حصول التغيير أو طلب الملكات الإنسانية فی مختلف الأعمال والمواقع، إلا أنه أسهل بكثير فی مرحلة الشباب، حيث يمكن الوصول إليه وتحقيقه بسرعة أكثر.

قال الإمام الخمينی(قدس سرّه) حول هذا الموضوع:

«يتأثر الإنسان الذی يعيش فی هذا العالم بكثير من المتغيرات والسلوكيات، وهو قادر علی تبديل كل ملكة بملكة أخری.

وما يقال: إن الخلق الفلانی هو فطری وجبلیّ غير قابل للتغيير، فلاأساس لهذا الكلام أبداً، ولايقوم علی أسس وركائز علمية، ولاعلی أصول وقواعد موضوعية راسخة. ويعد هذا الأمر فی الفلسفة أمر برهاني ووجدانيّ.

والشاهد علی ذلک : أن الشريعة المقدسة نهت عن الأخلاق الفاسدة والرذيلة وأمرت بمعالجتها ومكافحتها. فما دام الإنسان حيّاً، يعيش علی وجه الكرة الأرضية، ولم يفقد حياته الدنيوية بعد، عليه أن يعرف قيمة حياته وقدرها، ويسعی جاهداً لتحصيل الملكات الفاضلة التی هی أساس السعادة التی بنيت عليها الشريعة الإلهية، وعليه القيام بكافة

---

[١] راجع تفاصيل تحليل «خصائص ملكات النفس» فی الفصل الرابع من كتاب «مقدمه .ی‌ب«و »ن‌وسلأ ج‌اوتم« :ه‌ملقب ،»ی‌ریگدای ی‌اهه‌یرظن‌ب ی‌ا .ف‌یس ربکأ ی‌لع :ة‌مجرت ،»ن‌اهنکره .رآ

الرياضات التى تؤدى إلى إزالة الملكات الخبيثة والرذيلة عن النفس، والتضحية والكفاح فى طلب وتحصيل أضدادها، وهى جنود العقل والرحمن»[1].

لقد تأسست مجموعة من الملكات وبشكل لا إرادى فى وجودنا وطبائعنا، وهى ناتجة عن تعاملنا غير الواعى مع طبيعة البيئة والوسط الذى نعيشه، وكانت عمدة الاعتقادات والتصورات، والأمزجة والسلائق المتعددة والطباع المختلفة والأذواق والعواطف والمشاعر الإنسانية، هى على شكل «ملكة»،و إن عمدة تصرفاتنا وسلوكنا وأساليبنا نابعة عن تلك الملكات التى اتّحدت بنا، فكوّنت تشكيلتنا الوجودية[2]، فلاتتغير هذه الملكات بالإرادة والاختيار.

٢. إن ظهور الملكات بحاجة إلى زمان تدريجى وفترات متناوبة، فلاتظهر أى صفة من الصفات فى وجود الإنسان دفعة واحدة وبصورة مفاجئة! وإنما بصورة تدريجية، ولهذه الملكات حياة وموت، كسائر الكائنات والموجودات الحيّة، والحركات والتحولات الموجودة فى العالم المادى، بمرور الأزمنة وتوالى الدهور والأيام، فكما أن نمو الجسم بحاجة إلى مرور سنين طويلة وعديدة، ولايحدث ذلک فى ليلة واحدة فكذلک نموه الفكرى ورشده، وكماله وتعاليه وسمّوه الروحى والمعنوى، لايحصل دفعة فى ليلة واحدة، فلو ائتمر الطفل الذى ليس له من العمر إلا سنتين بأوامرنا وأطاعنا فى كل ما نمليه عليه من أفعال، وكبر وترعرع على ذلک مباشرة وفجأة!، دون سابق أمر أو علم منا!، فماذا نقول عنه؟! هل يمكن وصفه بأنه تناول حجماً كبيراً من الأغذية والأطعمة فى ليلة واحدة، فشبّ ونشأ فى ليلة وضحاها؟ فهذا السؤال بهذا النحو خطأ واضح، وهو كالسؤال مثلاً عن كيفية طلب وتحصيل «حضور القلب» فى الصلاة، مع رجاء الوصول إليه فى فواصل وفترات متقطعة لعدة أيام!. أو السؤال عن كيفية التسلط ومعرفة أحد العلوم أو المهارات، ثم رجاء حصوله فى فترة زمنية محدّدة ووجيزة!. فهذه التوقعات والأمانى التى ليست فى محلّها، تعود إلى فهمنا وتصورنا الناقص عن مفهوم «الزمان». إن نظرتنا وفهمنا الناقص حول الدور الخاص لظاهرة «الزمان» فى أحداث العالم تتم من خلال البرمجة والتخطيط العاجل واللامدروس، فتؤدى إلى الفشل والحيرة، واليأس والقنوط، ولاتؤدى إلى نتائج مطلوبة ومدروسة ومعطيات مثمرة.[3]

٣. حصول «الملكة» يبتنى على تكرار العمل، فلكى نحصل على ملكة «جودة الخط»، ينبغى علينا الإكثار من الكتابة، وللحصول على ملكة القيادة للسيارات مثلاً، ينبغى علينا الإكثار من سياقة السيارات أيضاً، وتكرار

---

[1] جنود عقل و جهل، ص٣٧٩.

[2] قال تعالى «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِه» (الإسراء: ٨٤).

[3] للحوادث التى تظهر قبل أوانها فى لحظة واحدة جذور عميقة فى الزمان. ولكن يشاهد خلاف هذا القانون الطبيعى موارد استثنائية وشاذة كظهور المعجزات والكرامات فى نفس هذا الاتجاه.

العمل كثيراً يعرّفنا على خصائص وجزئيات ذلک العمل بصورة مستمرة، وينتهى هذا العمل إلى إيجاد «الملكة» فى نفوسنا، «فالعمل الحسن هو بكثرته» كما قيل.

إن من سعى وبذل جهوداً حثيثة ومضنية فى الوصول إلى قمّة الفنّ، والاحتراف، والمهارة، أو معرفة أىّ صفة من الصفات وخصلة من الخصال، عليه أن يختبر مصاديقها طبعاً! فاكتساب صفة الشجاعة، وفنّ سرعة الكتابة، أو سرعة القراءة، أو فنّ الخطابة، لايحصل بالدعاء والتمنى، والوقوف مكتوف الأيدى، والرجاء والطلب من الله فى أن تتحقق الآمال والأمانى والرغبات، بل ينبغى الجد والعزم والمثابرة للإكثار من العمل، وهذا هو شرط ضرورى فى تحصيل الاستعداد والقابليات والقدرات اللازمة، فكلما زادت خبرتنا فى عمل ما، فسوف نكون أقرب الى الملكة، حيث تتولّد الملكات من إكثار التجارب والاختبارات، والإقدام على العمل، فإذا ضمّ عمل واحد إلى عشرة أعمال متشابهة، فسيؤدى إلى ظهور قدرات وقابليات واستعدادات ثابتة وراسخة، فكما أن حجراً واحداً لو ضمّ إلى عشرات الأحجار ومواد البناء المشابهه له، فيسنح بناء عمارة متكاملة!.

وعلى هذا، فإن القيام بأىّ عمل، سيساهم ولو قليلا فى مضاعفة قدرات النفس وقابلياتها.

قال أمير المؤمنين على(ع): «من يعمل يزدد قوة، ومن يقصّر فى العمل يزدد فترة»[1].

وعلى كل حال، كلما استخدمت طاقة من طاقات الإنسان فى عمل ما، ستقوى وإن أصبحت عاطلة عن العمل، فستكون خائرة وضعيفة مهزولة، كذلک عضلات جسم الإنسان لاتقوى ولاتنشط الا إذا أصبحت تتحرک وتعمل.

وتقوية الحفظ كذلک، فإن قوة الذهن وقدرة الإرادة أيضاً مرتبطة باستخدامها للعمل.

وخلاصة القول: أن الملكة تظهر فيما إذا قام الإنسان بعمل ما، وتصبح راسخة وقوية، ثابتة وخالدة بحيث تعطى صورة غير قابلة للتغيير الى النفس».

۴. إن كل عمل يقوم به الإنسان له دور فى ظهور «ملكة النفس»، إلا أن تأثيرها عادة غير ظاهر للعيان، ولايمكن الاحساس أو الشعور به، فلو كان ملكة جودة الخط تحصل بكتابة ألف صفحة مثلاً، فإن فى كتابة كلّ صفحة تطوى بنسبة مائة من ألف من ذلک المسير، لذا، فبعد كتابه صفحة واحدة، لايشاهد تغييرا محسوساً فى جودة الخط وتحسينه، وتأثيره غير ظاهر للعيان. وكذلک من ينوى السفر إلى زيارة الإمام الرضا(ع)، فكلما تقدم خطوة واحدة نحو الأمام، فلايحسّ باقترابه من مدينة مشهد المقدسة، ولكنه على كل حال، يكون قد اقترب منها، إلا أنه لايشعر بذلک، وهو غيرظاهر للعيان.

---

[1] ميزان الحكمة، الحديث ۱۴۲۵۹. إن تاثير الصوم فى إيجاد القدرة وزيادة التحكم والسيطرة على النفس هو نتيجة طبيعية لهذه الحقيقة. قال تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة: ۱۸۳).

وإن ساعة واحدة من التهجد والذكر والمناجاة فى منتصف الليل مع رب الأرباب، ورحمن الوجود والكون، هى مؤثرة قطعاً فى الاقتراب من الله، إلا أن تأثيرها اللامحسوس انما يقبل الحسّ والمشاهدة فيما إذا انضم إلى عشرات الحالات المشابهة لها. وعلى هذا، لاينبغى توقع وارتجاء أن تكون عبادة واحدة فى ليلة واحدة! بهذه الضجة المفتعلة والصخب!، لتقودنا فى كل الاتجاهات، متصرفة بنا حالاً بعد حال!، فتفتح أبصارنا لمعرفة حقائق الكون وأسرار الوجود!، أو توصلنا إلى مراتب اليقين!.

كما أنه لاينبغى توقع وارتجاء أن يكون وضع حجر واحد لوحده يؤدى إلى ظهور قصر أو عمارة شاهقة متكاملة تناطح السحاب!! فجأة ودفعة واحدة أمامنا!.

وتشمل هذه القاعدة الملكات الفاسدة أيضاً. فإذا لم يتحسن خطه مثلاً وتردّت الكتابة، فهو ناتج عن قصور فى التمارين التى مارسها فى تعلم الخطّ والكتابة، وإن لم يشعر بتأثيره.

وكذلک أيضاً من تخلّف عن الوفاء بالوعد، ونقض العهد والمواثيق، فإنها تمثل خطوة نحو الدناءة والخسّة، وفقدان الرجولة والشجاعة، وإن لم يشعر بأثره واضحاً فى حياته.

وكذلک: من ارتكب ذنباً ومعصية، فهو بمنزلة من بنى بالطابوق عمارة شاهقة مثلاً، فالواحدة منها غير مشاهدة إلا من خلال المجموع، فكذلک المعصية والذنب وملكة الفسق، هى أمور صغيرة غير محسوسة وغير مشاهدة فى صفحات القلب الناصع البياض، روى عن رسول الله(ص) قال: «إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل منه، وإن ازداد ازدادت»[1].

وكذلک التملّى والشبع من الطعام، عامداً قاصداً وعارفاً بذلک، يجعل طبائع الإنسان شبيهة لحدّ ما بالطبائع السبعية، فكل عمل يصدر عن غضب وسخط لايليق بكرامة الإنسان وشخصيته، فهذه الصفات والخصال هى صفات وخصال حيوانية وبهيمية مفترسة، قد كشّرت عن أنيابها،و اشرأبّت فى طباعنا ونفوسنا، وبها يحشر الإنسان يوم القيامة[2].

إن أكبر خدع الشيطان فى مواجهة الإنسان، هو تعامله المزدوج معنا لإغرائنا، وتضليلنا وإغوائنا بأفعاله وأساليبه المزيّفة فيما يصدر منا من مساوئ الأفعال ومحاسنها. فإذا ارتكب الإنسان أعمالاً سيئة وقبيحة بأن يكذب أو ينظر إلى الحرام، فيخيل له الشيطان ويوهمه أنه ذنب صغير لايستحق التوبة والإنابة إلى الله، أو ربما يشعره أنه لم يرتكب ذنباً ومعصية لله، وأن ما فعله لم يكن شيئا يذكر، ولم يحصل أىّ تغيير بسبب هذه الذنوب والمعاصى فى روحه ووجدانه، فهذه

---

[1] نور الثقلين، ج ۵، ص۵۳۲.

[2] التوبة الحقيقية هى القضاء على آثار الملكات الفاسدة، ومحو تبعات الأعمال السيئة والقبيحة، فلفظة «استغفر الله» لاتصلح الصورة الباطنية لنفس الإنسان وسريرته.

الوسوسة تبعث الإنسان بسهولة على ارتكاب الذنوب والمعاصى، ولايؤنّب نفسه أو يحاسب ضميره عند ارتكابه لهذا الفعل، وعدم صدور القبيح منه مرّة أخرى.

ومن جهة أخرى: إذا قام الإنسان بعمل صالح مثلاً، فسيوقع الشيطان فى قلبه، ويسوّل له فى نفسه: أن الفعل الذى قام به هو عمل عظيم، وإنجاز كبير، وأن له تأثيراً واسعاً ومشهوداً، فيلوّح له الشيطان من بعيد بعد قيام الإنسان به: أنه يعيش فى وضع مستقر ومطلوب جداً، ولاداعى للقلق والمخاوف أبداً، وينبغى عليه أن يشكره على ذلک ويثنى عليه، وأن للإنسان مقاماً رفيعاً وشامخاً، بسبب ما قام به من عمل جبّار!! يغبطه عليه الملائكة، وإن له منزلة عالية لاتوصف! فيأخذه العجب بنفسه لأجل هذه الوساوس، والكبر والغرور بنفسه، والشعور بالاستقلال والاستغناء وعدم الاحساس بالفقر، فيرضى بما هو عليه، ويتوقف فى أوهام كمالاته المزعومة، وخدع الشيطان وألاعيبه. ولو تبين له بعد ذلک من خلال الشواهد والقرائن الحالية أو المقالية بأن فعله الصغير لم يكن يستحق تأنيب الضمير وتقريع القلب عليه، وأنه ليس بتلک الأهمية لكى يستحق عليها العقوبة!، فإن حالة التوقع والارتجاء غير السليمة التى أوجدها الشيطان فى وجود الإنسان وأعماقه، ستسوقه نحو اليأس والقنوط، والحيرة والدهشة، فيمتنع عن القيام بالعمل ثانية، فيغمض طرفه ويطوى عنها كشحاً فى هذه الحالة، وينصرف من البحث عن التكامل أو إصلاح النفس وتهذيبها، أو ينكر مقولة التكامل والتهذيب والاصلاح، وهذه المقامات الإنسانية العالية والرفيعة فى مقارنتها بهمته ونشاطه. إن موقف الشيطان فى مواجهة قبح تصرفات الإنسان وهو (المفهوم الثالث) المتقدّم، و(التأثير القطعى فى العمل) يسلب منه صبغته، ويجعله ذو طابع غير مرموق. أما المفهوم الثالث وهو (عدم الشعور بآثار العمل)، فإنه يصيّره أمراً محسوساً وكبيراً، وهو على خلاف المفهوم الرابع، وهو: مواجهة العمل الحسن والصالح ؛ فإنه يؤدى إلى إنكاره ورفضه. أما المفهوم الثالث، فإنه يبقى على حاله وقوته، ويؤدى إلى تصديقه.

ويظهر من كل ذلک شدة دهاء إبليس اللعين ومكره وشيطنته وتمرّسه فى هذا الفن. قال تعالى: «رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ»[1].

٥. يمر الإنسان بمراحل عسيرة وشاقة إلى حين ظهور الملكة، حيث انه قبل ظهورها يبذل جهدا مكثفا ويصبّ كل اهتمامه وتركيزه الشديد فى هذا الاتجاه ويصرف زمانا طويلا لاجلها، إلا أنه لايصل إلى النتائج المؤثرة والمطلوبة، وهى تخرج الإنسان الضعيف فى مثل هذه الظروف عن اتزانه واعتداله، وإبعاده عن حمل المسئولية وتحمّل أعبائها، إلا إذا كان هناک عاملاً قوياً يجبره على الاستقامة، أو يوفّر لنفسه حبّاً جمّاً وعلاقة غزيرة فى هذا الاتجاه. وكلما يرجو هذا الإنسان القيام بعمل ما، فسيرى أمامه طريقا طويلاً وشاقاً ومليئاً بالصعوبات والمخاطر، ربّما تصدّه عن الاستمرار.

ويتطلب المضى والسيرفى هذا الطريق جهوداً حثيثة ومساعى مضاعفة، واستقامة وصمود وتحدّى، وإلا، فإن عليه غضّ الطرف والانصراف عن قصده منذ البدء، والتوقف عن السير ومتابعة الطريق.

---

[1] المؤمنون: ٩٧.

مثلا إن من يعجز عن البرمجة والتخطيط لنفسه، يتألم لتشتت أحواله واختلاف مزاجه. الا أنه مادام لم يجبر على أفعاله، فهو يتحمل هذه الآلام وتلك المعاناة، فهو بدل أن يعالج المشكلة القائمة عنده، فإنه يتألم مع تلك الظروف وينسجم مع طابعها الفوضوى المشتت، ويظن هذا الإنسان أن تحمّل الفوضى وعدم التخطيط والبرمجة فى الحياة هو أسهل من تحمل ألم التمارين والسعى والكفاح لكسب وتحصيل ملكة النظم والبرمجة والتخطيط.

ان الصعوبة التى يواجهها الطالب فى فترة تحصيل الملكة، هى من أهم العوامل التى تبعث الإنسان على التكاسل فى إنجاز التكاليف والواجبات الدراسية، وقد تؤدى الى أن يفقد رغبته فى الدراسة، ولايلتحق بدورات تعليمية وتربوية أو تثقيفية، وهذا يعنى أنه قانع بالوضع الفعلى الذى هو عليه.

۶. يلتذ الإنسان ويشعر بالراحة والاستقرار والطمأنينة بعد ظهور الملكة، وسهولة العمل، من خلال استخدام قابلياته وقدراته فى هذا المجال، لأنه سيثير دهشة الآخرين واعجابهم بسبب ما توصل إليه من نتاج قيّم ومفيد فى فترة وجيزة ومجهود أقلّ، فى مقارنته نفسه بالآخرين، فبعث فى نفسه نشاطا مفعماً بالحيوية، ونوعاً من التفاخر والغرور، بل الإعجاب بنفسه، أما إذا لم تكن هناک مقارنة بغيره، فهو يرى من خلال اختصار الطريق، وسعيه للوصول إلى المطلوب شوقاً ولهفة فى نفسه، وبواعث وبوادر كثيرة للقيام بعمل ما، ورغبة شديدة وميلاً فى اختبار ملكاته، أو إقامة سباق ومنافسة مع الآخرين.

۷. غالباً ما يواجه الانسان فى بدء حركته لتحصيل قابليةما، فشلاً ذريعاً وهزائم فادحة، فالخطأ والتجارب الفاشلة، فى بداية الطريق هو أمر طبيعى للغاية، ويمكن التنبؤ به بسهولة، مثاله مثال الطفل الذى يختبر نفسه ومهارته فى تعلّم المشى، فإنه يقع على الأرض ثم يقوم ثانية ويتابع المشى لخطوات، ّيفعل ذلک عدة مرّات، ويعانى الأمرّين إلى أن يكون قادراً على المشى، ومسيطراً على نفسه دون استعانة بالآخرين. وهكذا من أراد تعلّم الطبخ وصنع الطعام، فإنه من المحتمل جداً أن يخفق فى أولى محاولاته لصنع الطعام الجيّد بنكهة عالية، فيصنع طعاماً محروقا أو عديم الطعم والمذاق، وهكذا من رغب فى تعلّم السباحة مبتدئاً و لأول مرة، فإنه يبذل جهوداً وأتعاباً كبيرة، ودقة بالغة فى بداية أمره، ولعله يخاطر بحياته، ويبتلع كثيراً من المياه.

وكذا المتزوجان فإنهما فى بداية حياتهما الزوجية، يمران بكثير من الأخطاء، ومرحلة مخاض صعبة وعسيرة، إلى أن يتمكنا من إدارة شؤون حياتهما بصورة صحيحة، ويعرفان كيفية التعامل مع بعضهما بشكل ناجح ومقبول.

وكذلک من يرشح لإدارة مؤسسة أو تنظيم حكومى أو حزبى لأول مرّة، فهو وإن فكّر بدقة وعقلانية وتخطيط منظّم لكى لايقع فى الأخطاء، إلا أنه من الطبيعى جداً أن يمرّ بأخطاء عديدة فى عمله.

۸. تساهم مراحل تكوين الملكة كثيراً باستخدام الدقة البالغة فى إظهارها. فلو مارس كثرة الكتابة والخط، وكتب العديد من المواضيع فى عدة أوراق، بتأنّى وحذر شديد، ودقة فائقة، فسيكون له تأثير مضاعف فى تحسين الخط والكتابة، وهى خطوة هامة ومؤثرة فى هذا الاتجاه.

إن من يتامل ويدقق فى أعماله وتصرفاته، وإن كان ظاهره البسط فى الأداء وعدم التسرع والعجالة فى العمل، وظهور النتائج متأخرة، إلا أنه بعد أن يحصل على الكفاءات المطلوبة والمهارات اللازمة، سيتفوّق على أقرانه ومن يسايرهم بنفس الاتجاه، وسيتقدم عليهم بسرعة خاطفة.

ومن جملة القابليات والقدرات المطلوبة هى: ملكة الدقة، والفكر، والتأنى، وعدم التسرع وترک العجالة، فإنها ستؤدى إلى ظهور نتائج مطلوبة ومعطيات قيّمة ومهمة، وستعمهم الخيرات وتنالهم البركات تدريجياً.[1]

روى عن رسول الله(ص) قال: «إن الله يحبّ عبداً إذا عمل عملاً أحكمه»[2]. وقال (ص) أيضاً: «إذا عمل أحدكم عملاً فليتقن»[3].

ومع اتساع القدرات وزيادة القابليات، والاستعدادات والمهارات، سيسهل على الإنسان أيضاً «طلب وتحصيل الملكات الجديدة والمستحدثة»، والاستئناس بأجواء جديدة، وذلک فيما إذا حصل نوع من الحركات المتزامنة مع الملكات المذكورة الماضية.

٩. التفكير والبرمجة والتخطيط أثناء المسير والحركة، كل ذلک من شأنه أن يطوّر فى الملكة. إن معرفة القواعد والأصول الحاكمة على الاستعداد والقابليات، من خلال الاستعانة بتجارب الآخرين، واتخاذ الأساتذة للتشاور معهم، يساهم فى اختصار فترة تحصيل الملكة، والتقليل من الفشل والهزائم المتكررة والاخطاء إلى الحدّ الأدنى.

١٠. إن كافة مراحل تحصيل وطلب الملكة من دون استثناء، هى مسئوليات ملقاة على عاتق الإنسان، فهو يقترب من الملكة بقدر ما يبذله من جهود مضاعفة ومساعى حثيثة ومضنية، وبقدر ما يكون قوياً فى إرادته واعياً فى اختياره وحده. وأما المربّى: فليس دوره أن يوجد قوة رادعة فى وجود تلميذه المتردى، ولايتحمل عنه أيّاً من المسئولية، قال تعالى: «الا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ الا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الاوْفَى »[4].

فلو كان ما يفرضه المربى من واجبات ومسئوليات فى عهدة المتربى غير هادف، فليس فيه أىّ فائدة، لأن العمل الذى يؤدى بقصد رفع التكليف، أو فيه حدّ أدنى من القصد والتوجه، فتأثيره فى النفس قليل جدا، بل تاثيره غير ظاهر أصلاً. ولكى تتضح هذه الفكرة، علينا أن ندقق فى مراحل تكوين جودة الكتابة والخطّ مثلا، فإذا لم يتعلم الإنسان بدقة ورغبة وشوق قواعد الكتابة والخط، وكيفية الارتقاء بها وإجادتها وتحسينها، فإن جهود الأستاذ وسعيه سوف تنتهى إلى الفشل، ولن تثمر عن شىء، ولاتحقق أىّ نتائج مطلوبة، لأن الأستاذ يرشد التلميذ إلى الطريق، ليمضى هو بنفسه عن رغبة منه

---

[1] ينبغى أن لاتصل هذه الدقة الى مرحلة الوسواس، بل يلزم تقليل الدقة والتساهل نوعاً ما وتخفيف المؤونة فى برنامج معين، لئلايبدو أن تنفيذه أمر مستحيل، وعليه أن يكون أكثر تهيّؤاً واستعداداً فى العمل والمتابعة.

[2] وسائل الشيعة، ج ٢،ص٨٨٤.

[3] وسائل الشيعة، ج ٢، ص٨٨٢.

[4] النجم: ٣٨ – ٤١.

وطواعية باتجاهه بشكل ناجح ومطلوب، لكنه لايأخذ على نفسه عهداً مسئولية المضى فى ذلك، أو يضمن له نتائج الوصول، بل أن كلام الأستاذ هو مجرد «دليل وإرشاد» للتلميذ، وليس «موصلا» إلى الهدف.

وعلى ضوء ما ذكرناه، فإن نصائح المربى وإرشاداته الأخلاقية فى ما يتعلق بطلب إحضار القلب فى الصلاة مثلاً، أو الإخلاص فى العمل، يجب أن تردف بالكثير من التمارين العملية، لكى تتألف ملكة إحضار القلب أو الإخلاص فى روح الإنسان وأعماق وجوده. ومن الطبيعى جداً أن ما يراه الإنسان بوضوح أكثر بعد تجربة عملية مريرة، وجهد مضاعف، من النقائص وحالات العجز، وفقدان الاستعداد والقدرة، والتمهيد لظهور حالات الاستعانة واللجوء إلى المربى، ووجود هذا النوع من الانسجام والتلاقح بين «العلم» و«العمل» فى أصناف العلوم والمعارف الدينية والنصوص الاسلامية، يشير كلّه بإشارات واضحة وصريحة إلى هذه الحقيقة.[1]

١١. بعد تكوّن «الملكة» فى وجود الإنسان، فإن استخدامها، واستشعار آثارها وفوائدها سيكون باختيار الإنسان وإرادته. فربما يمتلك ملكة اليقظة مبكراً مثلاً، إلا أن كسله وتهاونه يحرمه نعمة الاستيقاظ مبكراً فى الصباح. أو قد يمتلك ملكة جودة الخطّ والكتابة، فهى وإن كانت سهلة وميسورة بريشة الخطّاط، إلا أنه إذا تقاعس عن استثمار هذه الملكة، ولم يستثمر هذا الاستعداد الكامن، ويفجر قدراته وقابلياته لصالحه، فسيكون ردىء الخط أثناء الكتابة مثلاً، فيتطلب جودة الخطّ قدرة ومهارة عالية، وهمّة وعزيمة بقدر الإنسان، وسعته الوجودية. فلو امتنع هذا الخطاط الماهر عن ممارسة عمله بهذا المقدار الضئيل، فستبقى «ملكته» معطلة، وعديمة الفائدة والجدوى. ولو لم يدقق فى الإبداع فى رسم لوحته، وأبدى عدم رغبته فى ذلك، فليس بعيداً منه أن يصبح كسولاً، ويعتاد هذا النهج والأسلوب فى أعماله المستقبلية، فيكون التسرّع وعدم الدقة والعجالة هى مظهر من مظاهر نتاجه الفنى، وتكون هذه الظاهرة حالة لاتنفك عن وجوده، لايمكنه الاستغناء عنها أو تركها.

إن استخدام القابليات والمهارات باستمرار يشجع على ظهور نتائج إيجابية ومعطيات كثيرة واسعة فى نهاية العمل، كما يؤدى أيضاً إلى ظهور ملكة الجدّ والمثابرة، لتذليل الصعاب، وتحمّل المشاق والأتعاب، وإيجاد النشاط، وحسن الأداء، والاستقامة والهداية فى وجوده، والقضاء على حالات البطر والكسل والضجر، والضعف والعجز والتسويف وغيرها من الأمور.

١٢. ينبغى القيام بالتمارين وبذل الجهود قبل الظهور والتجلى الكامل «للملكة»، فلو انقطعت هذه التمارين فى منتصف الطريق ولم تستمر، فسيتوقف نمو هذه «الملكة» أيضاً. فلو أراد شخص مثلا أن يتمرن على تلاوة القرآن وتجويده، أو أراد أن يختبر طريقة معينة فى تعليم درس من الدروس أو مهارة ما، فإن رأى أن نجاحه النسبى كافٍ له فى هذه المرحلة، فإن هذا يسبب له وقفة نوعية عن الحركة، ويحدّد قدرته واستعداده، ويحصر قابلياته فى هذا المقدار!.

---

[1] انظر ميزان الحكمة، ذيل عنوان «العلم».

وقد ذكرنا مسبقاً أن الإنسان يسعى دائما للفرار والتهرب من حمل أعباء المسؤولية والأمانة، ويبحث عن الراحة والهدوء بدلاً من بذل الجهود ومواصلة الطريق، وله رغبة شديدة وعارمة فى الأخذ بما هو «نقد» وترک ما هو «نسيئة» فى كافة أحواله وفى وضعه الفعلى الموجود. وهذه الحالة والرغبة توحى للانسان: بأنه فى وضع مستقر ومطلوب، ومرحلة متميزة، دون أن يكون مقصراً أو محتاجاً لشىء آخر يسدده، ويرفع عنه النقائص فيرضى ويقنع بما هو عليه، إلا أن هذا الأمر يصدّه عن الرقى والتعالى ويقعد به عن الوصول إلى الكمال المطلوب.

ومن هنا: على الإنسان أن يقيم علاقات ودّية قوية ومستمرة، وارتباطا وثيقا ومباشراً مع الشخصيات الناجحة والبارزة فى المجتمعات العالمية فى كافة التخصصات، ويقارن نفسه بهم، وذلک لتحقيق درجات أعلى من النجاح، وإن كانت نسبية وضئيلة فى كافة العصور والأزمنة، وبمختلف المجالات.

ونستنتج من الأبحاث السابقة عدّة أمور:

الأول: المداومة والاستمرار

روى عن مولى الموحدين وإمام الغرّ المحجّلين الإمام على بن أبى طالب (ع) قال: «قليل تدوم عليه، أرجى من كثير مملول منه»[1].

بعد فهم هذا الأمر وهو: أن تأثير العمل يظهر بصورة تدريجية وفى فترات زمنية متناوبة، وإن تحصيل الملكة ناتج عن تكرار العمل والممارسة الكثيرة والدائمة فى مختلف الحالات وشتى الظروف، فيظهر بوضوح قيمة «المداومة» و«مواصلة العمل» كما تقدم روايته عن أمير المؤمنين(ع).

إن تحريک البدن عدة دقائق يوميا فى رياضة صباحية مداومة ومستمرة هو أفضل بكثير من ممارسة رياضة ثقيلة وصعبة لعدّة ساعات، كما يقوم به الرياضيون اليوم، ولكن لفترة زمنية محدّدة. وكذلک تلاوة القرآن وتجويده يومياً، هو أرجى وأنفع من تلاوة عدة أجزاء فى يوم واحد تبعث على الضجر والملل والكسل. وصلاة ركعتين قبل أذان الفجر باستمرار هى أكثر تاثيراً من عدة ساعات فى عبادة ليلية تبعث على الملل والسأم وعدم تكرارها فى الغد!. وقليل من المطالعة فى برنامج دقيق ومنظّم ومستمر يومياً هو أجدى نفعاً من بضع ساعات فى مطالعة غير مبرمجة وغير مستمرة، لاتضمن المستقبل، ويؤدى إلى تركها وإهمالها. روى عن الإمام الباقر«ع» قال: «أحبّ الأعمال إلى الله تعالى ما دام عليه العبد، وإن قلّ»[2].

---

[1] نهج البلاغة، قصار الحكم، ۲۷۸. وفى رواية أخرى عنه(ع) قال: «قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه». انظر ميزان الحكمة تحت عنوان «العمل» الأبواب ۲۹۴۰، إلى ۲۹۴۳.

[2] الكافى، ج ۲، ص۲۸. وقد تطرقت لهذا البحث كثير من كتب الحديث جملة وتفصيلاً.. راجع هذه النصوص والأحاديث فى: ميزان الحكمة، تحت عنوان «العمل».

قال الشاعر ما معناه:

ليس السائر من يمشى مسرعا مرّة ومتعباً أخرى، بل السائر هو من يمشى هادئا وباستمرار،[1].

الثانى: التدريج

قال رسول الله (ص): «يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون»[2].

ينبغى أن تتناسب برامج الإنسان ومشاريعه فى مجالات مختلفة مع قدراته وقابلياته، واستعداده ونبوغه الفعلى، لأن استعداد الانسان وقابلياته ضئيلة ومحدودة وإذا تجاوز العمل حدّ التكليف، فسيتعرّض لضغوط عديدة، تؤثّرعلى نفسه، ولايصل الى مرحلة العمل وسيسبب له أضرار كثيرة فى موارد عديدة، شأنه:كمن أراد رفع الأثقال فى بداية تمارينه الرياضية، فإن هذا مضر بالعمود الفقرى وسلامة البدن، وأقل ما يؤدى هذا العمل هو: إنتفاء وزوال ذلک الشوق وتلک الرغبة التى شعر بها أوّلاً فى بداية ممارسته لذلک العمل، فهو لايفضل الآن الاستمرار والمداومة عليه.

ومن هنا: فمن الضرورى أن تكون زيادة عدد الأثقال التى ينوى رفعها متناسبا طردياً مع استعداده وقدراته الفردية وقابلياته المحدودة، وأن يكون ذلک تدريجياً، لكى لايسبب له مضاعفات حادّة، ولايتجه الخطاب فى وجهة خاصة ومحدّدة.

والتوصية بالتدريج لها بعدان:

الأول: البعد السلبى:

وهو أن لايكلف الإنسان نفسه أكثر من طاقته وقابلياته فى كل مرحلة.

الثانى: البعد الإيجابى:

وهو أنه كلما ازدادت قدرة النفس وقابلياتها، فعلى الإنسان أن يضاعف من تكاليفه بنفس الحجم، بمعنى أن التكليف لايكون أقلّ من قدرة النفس واستعدادها. وتركيب هذين المفهومين هو: التوصية بـ«الاعتدال» أثناء البرمجة والتخطيط.

فالمفهوم السلبى يشير إلى الخطاب الجهوى المحدد، وقد تقدم ذكره.

أما المفهوم الإيجابى: فهو لزوم«الحركة المستمرة والمداومة على العمل» واجتناب «الركود والسكون»، أو «القناعة بالوضع الفعلى الموجود» أو «الشعور بالاستغناء».

لقد أوصى بعض علماء الأخلاق فى خصوص صلاة الليل بوصايا هامة، نذكر بإيجاز جملة منها لفائدتها، بعيداً عن الإسهاب والتفصيل، وهى: استيقظ قبل أذان الفجر بنصف ساعة، وإذا قمت من فراشک، فاحمد الله ّ وأثن عليه، وسبّح، ثم عاود النوم ثانية، واظب على هذاالعمل أسبوعاً. فى الاسبوع الثانى، من فراشک فى الصباح، فأسبغ الوضوء بعد الاستيقاظ

---

[1] ترجمة لهذا البيت: «رهرو آن نيست كه گه تند وگهى خسته رود رهرو آن است كه آهسته وپيوسته رود».

[2] ميزان الحكمة:۱۴۰۱.

مباشرة، ثم عاود النوم مرّة أخرى، واستمر على هذا الحال أسبوعاً، ثم توضأ وصل ركعة واحدة صلاة الوتر لفترة معينة، ثم ضمّ إليها صلاة الشفع ركعتين أخريين، واستمر عليها لفترة محدّدة أخرى، ثم ضاعفها بعدة ركعات أخرى»[1]. وتتضمن هذه البرمجة نكتة هامة وهي: أن صيرورة الإنسان مصلياً «لصلاة الليل» هو أسمى من «أدائه صلاة الليل»، والحصول على الملكة والقدرة على العمل هو أجمل من القيام بالعمل نفسه.

ومن الواضح هنا: أن الاستعداد الابتدائي للأشخاص، والسقف الزمني للانتقال إلى المرحلة اللاحقة هي متفاوتة في تلك الظروف المختلفة، وعلى أيّ حال، ينبغي مضاعفة البرامج والمشاريع تدريجياً.

إن القلب السليم الذي حصل عليه ذووا الضمائر الحيّة، ومهذبوا النفوس بعد عمر طويل وشاقّ من الرياضة والجهد، لم يحصل في ليلة واحدة وفجأة، لأن تهذيب النفس أمر يحتاج إلى فترة زمنية طويلة وتدريجية، وكذلك تأنٍّ ومجاهدات شاقة ومضنية. ولو لم تصقل آمالنا وتوقعاتنا بهذه الحقيقة، ولم تتجه بهذا الاطار، فإن كثيراً من هذه الأماني لن تتحقق أبداً، وتصبح تصورات زائفة وأوهام باطلة.

الثالث: مراقبة النفس والمحافظة على رغباتها

قال علي(ع): «خادع نفسك في العبادة، وارفق بها، ولاتقهرها، وخذ عفوها ونشاطها، إلا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة، فإنه لابد من قضائها، وتعاهدها عند محلّها»[2]. وقال (ع) أيضاً: «إن للقلوب إقبالا وإدباراً، فإذا أقبلت، فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت، فاقتصروا بها على الفرائض»[3]. وروى عن الإمام الرضا(ع) قال: «إن للقلوب إقبالا وإدباراً، ونشاطاً وفتوراً، فإذا أقبلت بصرت وفهمت، وإذا أدبرت كلّت وملّت، فخذوا عند إقبالها ونشاطها، واتركوها عند إدبارها وفتورها»[4]. وروى عن علي(ع) قال: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم»[5]. فكثرة المطالعة لساعات طويلة في اليوم والليلة وإن لم تؤد إلى الكسل والضجر والصداع، فبما أنها حصلت في أجواء الالزام والتكليف، تقضي على الحيوية والنشاط والرغبة التي تنبعث في أعماق وجود الإنسان أثناء مطالعة الكتب وقراءتها. أما إذا تم توزيع المطالعة على فترات زمنية مختلفة، ولعدة ساعات متناوبة ومتوالية، فإنها تزيد في دوام واستمرار القراءة، وتحافظ على نشاطنا وارتباطنا بها.

---

[1] ليس الغرض من نقل هذه الأقوال هو عرض برنامج عملي لعموم الناس، بل ان لهذه الوصية مستمعها الخاص بها، وإنما ذكرناها هنا تأييدا لأصل «التدرج» العام.

[2] نهج البلاغة، الرسالة ٦٩.

[3] نهج البلاغة، الحكمة ٣١٢.

[4] ميزان الحكمة، الحديث١٦٩٦٢.

[5] ميزان الحكمة، الحديث ١٦٩٦٤.

قال علماء الأخلاق: «لو كانت لک رغبة فی الصلاة المستحبة عشر رکعات مثلاً، فلاتصلی اثنی عشر رکعة، لأن الرکعتین الأخیرتین لم تکونا قد أدیتا عن رغبة، وستخلد ذکراها الألیمة فی قاموس مذکراته فی الذهن، ولذا فإن من شأنها أن تقلل هذه الصورة الألیمة من دواعی الشوق والرغبة فی تکرار هذا العمل، ولکن إذا صلّی الإنسان ثمان رکعات بدلاً من عشرة رکعات، فستبقی لذة هذا العمل وحلاوته وطراوته فی القلب، ویتبعه نتیجتان:

الأولی: ظهور صور وذکریات جمیلة وساحرة وحلوة فی الذهن.

الثانیة: استمرار الشوق والرغبة القلبیة فی تکرار العمل وإعادته. وهذه الوصیة مشابهة للوصیة بالإمساک والتوقف عن الأکل والشرب قبل التملّی والشبع، ثم أن هناک برامج أخری أیضاً ینبغی مراعاتها مضافاً إلی العبادة. فمن جملة الأمور التی تبعث علی الرغبة واشتیاق النفس، وتحافظ علیها، هی: القیام بوضع برامج مدروسة وخطط دقیقة ومنظمة لتحسین نوع العمل وتطویره. فالطالب الذی یحضر فی قاعة الدرس فی کل الحصص الدراسیة، قد طالع کلّ الدروس الیومیة دراسة موضوعیة وجادة، وفهم ما فیها، قبل الدخول إلی قاعة الدرس وبعدها، وحلّ کل تمارین ومواضیع البحث، فوضع الإجابات فی قرطاس منظّم ومتناسق، فله شوق ورغبة أکثر للحضور فی قاعة الدرس.

أقول: هذا الأمر، وان کان مؤشرا علی أهمیة وضرورة الالتزام العملی بالوظیفة والمسؤولیة، والدقة فی کیفیة العمل، إلا أن هذا لایکون سبباً فی التقلیل من أهمیة العمل، والتقلیل من دوره، وبعث الیأس والقنوط لدی الفاشلین لأسباب عدیدة، وإهمالهم جزءاً من مراحل ظهور الملکة. فمن أی مکان بدء الإنسان عمله، فسیکون مؤثراً ومفیداً، وسوف لن یخفی أثره، ولایضیع رسمه أبداً، قال تعالی: «أَنِّی لاَ أُضِیعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنکُم»[1].

ومن الأمور الأخری التی ساهمت فی الحفاظ علی الشوق والرغبة فی نفس الإنسان هو: حسن المعاشرة، وإیجاد جسور الثقة والمودّة مع کبار الشخصیات الإسلامیة الناجحة، والمشهورة شهرة کبیرة لدی شرائح خاصة من الناس، وسنستعرض هذا الموضوع لاحقاً.

إن وضع الخطط والبرامج السهلة وتنزیهها عن الأمور غیر الضروریة والشوائب – التی تبدی اصل البرنامج صعبا وغیرعملی– مفید لإیجاد دواعی الشوق والرغبة.

الرابع: الاستقامة

روی عن أمیر المؤمنین علی بن إبی طالب (ع) قال: «العمل العمل، ثم النهایة النهایة، والاستقامة الاستقامة»[2].

إن الحصول علی الملکة عند تکرار العمل الذی یحتاج الی هذه الخصائص والسمات: توفّر القدرات العالیة والجهود الکبیرة، ووجود فترات زمنیة طویلة، وتخزین التوجه والاهتمام الشدید والدقة العالیة، ولکن لیس لکل من هذه، معطیات

---

[1] آل عمران: ۱۹۵.

[2] نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

ونتائج مطلوبة. وخلاصة القول: هو عمل شاق وصعب للغاية وبحاجة إلى تكريس جهود مضاعفة ومكثفة فى هذا المجال، ولاحاجة فى فهم هذه القضية إلى الاستدلال والبرهان، وذلک لوضوحها. ويتزامن تعليم الفنون، والمهن، والمهارات عادة ومنذ البدء مع الشوق الأكيد، والرغبة العارمة فى النفس، ولكن هذه الرغبة والدواعى ستضعف بعد مرحلة من التجربة الصعبة والاختبار العسير لحدّ ما، وتقلّل من العزائم والهمم، ويكون لها أثراً وضعياً غير ظاهر.

فلو حضر مثلاً خمسون شخصاً فى بداية الدورة التعليمية لتعلّم القراءة السريعة مثلاً، فإن هذا العدد سيأخذ بالتناقص ليصل إلى الحدّ الأدنى فى نهاية الدورة. وسيرضى الباقون بما حظوا به من مهارات وكفاءات، ولايسعون فى تطوير أنفسهم،أو الحركة نحو الأمام، إلا إذا كان ضمن الفرض والتكليف، أو الوصايا المستمرة، وسعى هؤلاء الاشخاص البقاء على ما هم عليه من ضعف، وهكذا يكون تحصيل الملكات الروحية وكسبها.

إن تحصيل ملكة «التقوى» و«السيطرة والتحكم بالنفس» لايتم إلا بقيود وضغوط وتحديدات فى بداية الطريق. فالشخص الذى يريد أن يتحكم ويسيطر بشدة على أعضائه وجوارحه، ويحدّ من الإفراط فى التملّى من الطعام والمنام لحدّ الشبع، وكثرة الكلام، والإفراط فى اللذائذ الدنيوية والشهوات، لابد له من المجاهدة وبذل جهود حثيثة ومساعى شاقة ومضنية للحدّ ممّا ذكرنا، أو إيقافها. وهذا ما قد اصطلح عليه فى لسان النصوص والروايات بـ«الجهاد الاكبر».

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الانسَانُ إِنَّکَ کَادِحٌ إِلَى رَبِّکَ کَدْحًا فَمُلَاقِيهِ»[1]. وتحتاج هذه المجاهدة إلى «الثبات» و«الاستقامة»، و«الدعم والإسناد». قال تعالى: «وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا»[2].

فمن مصاديق «الصبر» فى الثقافة الأخلاقية الإسلامية هو: «الاستقامة» و«الثبوت والصمود» فى أداء الوظائف والتكاليف والمسئوليات، وهى تتقوى بتذكير الآخرين وتوصيتهم، قال تعالى: «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ»[3]. والوصية بالاستقامة هى وصية بإعمال الحزم والجد فى استخدام القدرات والقابليات، واغتنام الثروات والاستثمارات[4].

الخامس: الإقدام (اجتناب التسويف)

التسويف أو تأجيل العمل من اليوم الى غد ناتج عن التصور بأن هناک فرص للتعويض. إن ادركنا أهمية الملكات، فعلينا أن نغتنم الفرص ونقدرها وأن لانؤجل العمل، لأن هذا التأخير والتأجيل يضيّق من إمكان تحصيل الملكة، ويحدّ من اتساعها، فترک البحث والمطالعة فى ليالى الدرس يؤدى إلى اقترابنا يوماً بعد آخر من وقت الامتحان والاختبار، وتضييق السعة الزمنية اللازمة لتعليم العلوم، وعند حلول الامتحان وبقاء سويعات قليلة فى تعليم أكبر حجم من المعارف

---

[1] الإنشقاق: ۶.

[2]. الجن: ۱۶. وراجع أيضاً: الأحقاف: ۱۳، وهود: ۱۱۲.

[3] العصر: ۳.

[4] راجع التفاصيل فى: گفتارى پيرامون صبر، لآية الله العظمى السيد على الحسينى الخامنئى (دام ظله).

والمعلومات، فلايسع له هذا الظرف الزمانى المحدود، وسيؤدى ذلک إلى الحرمان. إن إهمال «تهذيب الـنفس» وتأجيلـه، سيؤدى إلى ضياع كثير من الفرص، وسلب الاستثمار الكامل لقوى الـنفس فـى كثيـر مـن المجـالات العامـة والخاصـة. فلايمكن الاصطفاف فجأة ومن دون سابق تأهيل وإعداد مع جيش إلامام المهدى(ع) الاكفاء والأشداء عند ظهوره(ع)، بل يجب على منتظرى الإمام (ع) العمل على «تهذيب النفس» وإصلاحها، واكتساب القدرات والقابليات الماديـة، والعلميـة، والأخلاقية، والاجتماعية، والبسطة فى العلم والجسم.

أمّا الوهن والضعف والتقصير فى تربية الابناء وتنشئتهم، فإنها تمهّد لظهور ملكات غير لائقة فى وجودهم، وبعد فتـرة محددة من الزمن، ستضيق الفرصة أمام الوالدين فيما يتعلق بتربية الأبناء وتنشئتهم، ويؤدى إلى الخسران والندم.

إن ما ذكرناه إلى هنا: هى أصول وقواعد عامة وثابتة، وتغطية شاملة لمجال تربية الإنسان وتهذيبه، فى ظلّ التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها من المجـالات. وينبغـى فـى تـدويننا وعرضـنا للبـرامج والخطـط الشـاملة، والمشاريع الثقافية والتربوية لحاظ هذه المعارف والعلوم، والاستفادة من النقاط والاثارات العلمية فى كافة المجالات.

فإذا حاول الأستاذ أو المدرّب أن يُعلّم علماً من العلوم أو يستعرض فنّاً من الفنون، فلابد من الأخـذ بنظـر الاعتبـار مدى سعة ذهن الطالب وقدراته الوجودية، وقابلياته فى استيعاب تلک العلوم والفنون، وكـذا لحـاظ الفتـرة الزمنيـة التـى تستغرقها تلک التمارين لاكتساب تلک القدرات والقابليات اللازمة.

وعلى الوالدين أن يعلما أن إهمال الأبناء والإبقاء عليهم فى مستوى متدنّى من الـوعى وهبـوط وانخفـاض مسـتوى التعليم والنضج، ليس من مصلحة أبنائهم، إذ ليس هناک فرص كافية ومناسبة للحصول على الملكات الأخلاقية أو إصلاح النفس وتهذيبها. وإن على الوالدين أو الأستاذ أو المدرب مماشاة الأبناء ومسايرة التلاميذ برحابة صدر وأخـلاق عاليـة ؛ لغاية إيصالهم إلى المقصد الأخير، ومحاولة تعديل أفكارهم وأمانيهم، لتضحى متناسبة مع قدراتهم وقابليـاتهم الموجـودة. فمفهوم «المداراة» و«الرفق» الأخلاقيان هما النتاج الطبيعى لهذه الحقائق والثوابت الواقعية وركائزها العامة.

الأصل السابع: البرمجة والتخطيط

إن قدراتنا الجسمانية والفكرية والنفسية نحن البشر للقيام باعمال مختلفة، محدودة. وبهذه القدرات المحدودة يمكننـا القيام بأنشطة محدودة وفى اتجاه واحد، وغالبا ما يكون اشتغالنا بعمل ما يمنعنا من القيام بأعمال أخرى. ولو أردنا توزيع قدراتنا وجهدنا القليل على أعمال وأنشطة عديدة فى الحياة، فليكن هذا التوزيع منصبّاً فى اغتنام فرص كثيرة فى حياتنا، ويتطلّب هذا المجهود الضخم والكبير وضع برامج وخطط متقنة ومنتظمة.

«فالبرمجة والتخطيط» هو تنبؤ تركيبى خاص يضم أعمال وأنشطة عديدة، وسرعة لاختصار الطريق، والانتفاع بكافة الثروات والاستثمارات الحقيقية لغرض الوصول إلى الأهداف المرتقبة والمرجوة.

«البرمجة والتخطيط» عبارة عن عرض خارطة جامعة للحياة، تتحدد فيها معالم العمل، ويرتسم فيها دوره النشط فى الحياة بوضوح.

فقبل أن يبدأ المهندسون مثلا بمزاولة أعمالهم فى بناء عمارة، فإنهم يرسمون مشاريع دقيقة ومنتظمة للقيام بذلك ويدرسون كل الاحتمالات المستقبلية،

وإعداد الخريطة يعنى: الأخذ بنظر الاعتبار التمهيدات اللازمة فى شتى المجالات. فبناء بيت مثلا: يحتاج إلى تأسيس غرف للنوم، وصالات لاستقبال الضيوف، ومطبخ، وسلّم للصعود إلى أعلى السطح، ومرآب للسيارة، وساحة أمام بناء البيت، ومكان للتخلّى، ومحل للاستحمام، و... أما بناء ا لمسجد أو الملعب الرياضى فهو بحاجة إلى خارطة وتخطيط آخر يختلف تماماً عن خارطة وتخطيط البيت.

وكما يمكن استثمار الأرض التى هى ملكنا وتحت تصرفنا، ووضع تصاميم عديدة ومتنوعة للانتفاع بها. فكذلك عمرنا!! وسائر قوانا الجسمية والذهنية والنفسية. فإنها ملكنا أيضاً، يمكن أن نخطط لها ونضع لها برامج وتصاميم عديدة ومختلفة، ومشاريع متنوعة ومدروسة، والانتفاع بها فى سائر المجالات. فالإنسان باختياره وإرادته قادر على اختيار بعض الأعمال فى الحياة، وهذه الأعمال والأنشطة هى أجزاء وعناصر برامجه ومشاريعه، بحيث يمكنه تحسينها وتنظيمها من خلال وضع النسب والتراكيب المتعددة. ولكن اختيار أىّ من هذه التراكيب والنسب يعطى نتائج تختلف عن التراكيب والنسب الأخرى. وقضاء الإنسان وطراً كبيراً من أوقات فراغه، وإشغال نفسه بأىّ عمل له تأثير كبير يظهر فى إعطاء الملامح والأشكال النهائية لشخصيته وهويته. فلو خصّصنا أكثر هذه الأراضى بزراعة الأزهار والرياحين والأشجار، فسيصبح لدينا بيئة خضراء يانعة وبساتين متناسقة، فى الوقت الذى يمكن للإنسان بناء عمارة بعدة طوابق، فيها غرف متعددة، أو تشييد مدرسة أو مستوصف.

والبرمجة والتخطيط: هى إدارة الممتلكات والثروات والاستثمارات. وللنجاح والسداد فى كيفية الإدارة، ينبغى الكشف عن الأولويات الجيدة والأجود منها، المهم والأهم، ثم تخصيص حصص وأسهم محدّدة من تلك الممتلكات، تناسباً مع أهمية العمل الذى يتم إنجازه من قبلهم.

أمّا الخطوة الأولى فى البرمجة والتخطيط: فهى معرفة الأهداف، أى:

ما هو المطلوب من تأسيس وبناء هذا المشروع الذى تمّ التخطيط له وبرمجته؟ هل هو أرض خضراء وبستان؟ أم مستوصف؟ أم ماذا؟

وبعد تعيين الأهداف، ينبغى تقييم الأعمال، وكذلك الأنشطة والفعاليات وفقاً للاهداف المرسومة.

فقيمة وأهمية «الغرف أو الشقق السكنية» فى عمارة سكنية، تختلف فى مقارنتها مع قيمة وأهمية البستان أو بناء المستوصف! ويرتبط هذا بنوع النتائج التى نطلبها ونسعى إلى تحصيلها بنسب مئوية محددة، فتتّحد مسئولياتنا بتلك العناصر والأجزاء. فإذا أراد كلّ من الموظف أو السائق أو الطالب الجامعى، أو رجل الدين ان يستثمر جهوده بأفضل شكل

ممكن لتحقيق أعلى درجة من النجاح، ينبغى على كل منهم أن يضع الخطط والبرامج الدقيقة والمدروسة، باعتبار أن أجزاء وعناصر هذه الخطط والبرامج مختلفة تماماً عن بعضها، فاختيار الأهداف يؤدى إلى ظهور مستلزمات وحاجات أخرى مختلفة، ولسدّ هذه الاحتياجات والنقائص، يجب اختيار عناصر وأجزاء مختلفة ومتنوعة.

وبعد اختيار «الأهداف» و«تحديد العناصر المطلوبة واللازمة» ومعرفة «أهمية كل منها» يلزم الأخذ بنظر الاعتبار ترتيب وتركيب هذه الأجزاء والعناصر فيما بينها. أما كيفية وأنواع التراكيب المختلفة فيتبعها نتائج ومعطيات مختلفة أيضا، فالدقيق والسمن والسكّر مثلاً، هى مركّبات معينة لصنع نوع من الحلوى، ويمكن استخدامها أيضاً كمركّبات أخرى يصنع منها نوع آخر من الحلوى مثلاً أو شيئاً آخر، فالنسب المئوية، دقيقة فى استخدام كلّ من هذه المركبات والعناصر، وتتحدد بعد اختيار الأهداف الجزئية. وطبيعى أن البرنامج العلمى لمن يجعل تحصيل الدراسة فى العلوم والمعارف الدينية هدفا له، يختلف تماماً عمن يتخذ هدفه فى الحياة: تقديم الخدمات الاقتصادية للشعب مثلاً.

ويشير هذا الأنموذج التالى إلى هذا المعنى :

اختيار الهدف ⇐ تحديد العناصر ⇐ التقسيم ⇐ الترتيب والتركيب.

«البرمجة والتخطيط»: يعنى تقليص وتقليل «الأوقات الحرّة»و الحدّ منها. والمراد بالأوقات الحرّة: هى الأوقات التى لايرى فيها الفرد أى مسؤولية أمام نفسه، فهو حرّ فى أى إلزام أو التزام.

وفى مثل هذه الأوقات، يحاول الإنسان تخليص نفسه عن تحمّل أعباء أى مسؤولية، وأدنى مشقة أو ضغوط نفسية أو جسدية. فالأوقات الحرة هى أوقات استرخائنا واستجمامنا، فلاينبغى أن تشمل كل دائرة عمرنا وحياتنا. لأن وقت الاسترخاء والاستجمام هى فى الحقيقة فترة تجديد القوى، وإعادة اكتساب النشاط والنقاء، وهى مقدمة للقيام بالأعمال الهادفة والطموحة. وهذه «المقدمة» لاينبغى توسيع دائرتها وحدودها على حساب ذى المقدمة. ويكون أحياناً هذا التحرر هو تحرر فكرى! بمعنى أن أذهاننا تتهرب من قفز عن تناول موضوع محدّد، فيه نوع من المسؤولية والوظيفة أو التكليف، وتقوم بتغيير مواقعه، فتنتقل من قضية الى أخرى، وتبديل استراتيجيته بشكل متناوب ومستمر.

ويكون التحرّر أحياناً وسط بعض المجاميع، بأن يجتمع جماعة معينة حول بعضهم البعض، فيتبادل كل منهم أطراف الحديث، ويتجاذبون بينهم الكلام فى أمور عديدة، وقضايا متنوعة، والكلام يجرّ الكلام كما قيل، فتحدد الرغبة والهوى فى هذه الأوقات مدار حركة الإنسان، ويكون البطر والاستمتاع بالأوقات، وطلب التنوع هنا أكثر موضوعية، فبالبرمجة يهبط مستوى الأوقات الحرة إلى حدّه الأدنى، وتحافظ على مقدميتها.

بما أن المسلم يرى نفسه عبدا لله فيلتزم دائما أن يعمل على أساس المسؤوليات والتكاليف الإلهية ومن جملة هذه المسؤوليات والتكاليف العامة هى:

أغتنام فرص العمر، والاهتمام بمقولة التنمية الانسانية والتكامل، وبذل الجهود للوصول إلى حالات أفضل، وامتلاك أفضل المنافع والثمار الوجودية والمصالح الفردية والاجتماعية، واستخدام كافة الطاقات والقابليات والكفاءات فى هذا المجال.

ويلزم معرفة هذه التكاليف والوظائف الإلهية المناطة بهم قبل القيام بها ولو اجمالا، ثم تصنيفها وترتيبها من خلال برامج وخطط عملية منظّمة ودقيقة. وفى هذه الحالة، فإن مسؤوليتنا هى إجراء وتنفيذ هذه البرامج والخطط والمشاريع العملية المدروسة والمنتظمة بحذافيرها.

ويمكن القول إذن: إن فن «وضع البرامج والتخطيط» اللازمة والمطلوبة هو فى حد ذاته «فن تحديد الوظائف والمسؤوليات وتشخيصها»، وإن من يسئل عن برامجه وخططه ومشاريعه، فهو فى الحقيقة يسئل عن «وظائفه وتكاليفه» العامة.

الأصول الحاكمة على الخطط والمشاريع

الأصل الأول: طابع الشمولية

ينبغى أن تكون الخطط والمشاريع جامعة وشاملة. أى تضم كل الأجزاء والعناصر اللازمة فيها، فمثلاً: إذا أردنا إجراء مشروع لبناء عمارة سكنية، يلزم علينا وضع تصاميم وخارطة لها، تضم: عدة شقق وغرف سكنية، وصالة استقبال، ومطبح وحمام ومستلزمات أخرى. أما الحديقة ومرآب السيارة وغيرها، فهى وإن كانت غيرضرورية، إلا أنها مؤثرة نوعاً، فى إضفاء طابع الجمال، وكمال التخطيط والتصميم.

وكذلک ركوب السيارة وتشغيلها بحاجة إلى وجود: المحرک، ومفتاح التشغيل، وإطارات وعجلات وسقف للجلوس تحته، وكراسى، وإنارة و...و فقدان كل منها، سيؤدى إلى نقص فى التصميم، وأضرار لايمكن التعويض عنها، أو تحمّلها.

وإن كل ما يلحظ فى البرنامج والتخطيط، يذكر بقيد «الوجوب».

فمثلاً: لو وضعنا لأنفسنا برنامجاً صباحياً ومسائياً يوميا، فيه نصف ساعة مخصصة للرياضة، وسبع ساعات للعمل المفيد والمثمر، فالاهتمام بهذه النصف ساعة للرياضة ينبغى أن يكون مضاهياً للاهتمام بالعمل سبع ساعات متوالية، دون فرق فى ذلک! فلاينبغى التنقيص من شأن الرياضة باعتبارها نصف ساعة مثلا! ولاتمنح الأولوية لـ«سبع ساعات عمل» بحجة أهمية العمل والبحث العلمى، والتغاضى عن ممارسة الرياضة، ولاإعطاء الأولوية للرياضة بحجة أهميتها، وإهمال العمل والبحث العلمى والمطالعة مثلا.

وفى هذا الفرض: كما أن الرياضة واجبة بمقدار نصف ساعة، كذلک المطالعة والبحث العلمى واجب بمقدار سبع ساعات، فإن ترک أىّ منهما يسبب خللاً واضحاً فى تعادل البرنامج، وتوفير مستلزماتنا وحاجاتنا الضرورية، وبعض هذه الاحتياجات والمستلزمات لم تذكر فى البرامج والمشاريع، بل تكون ملفتة للنظر بصورة طبيعية كتناول الطعام، وإقامة

الصلاة، ولكن غفل عن البعض الآخر، والتأكيد الجادّ على هذه المجموعة سيؤدى إلى سدّ الفراغات فى حياة الإنسان، وسمو شخصيته، فلاتقدر أىّ قوة أو عامل زمنىّ مهما كان حجمه من خلال تضخيم حجم الاحتياجات والمستلزمات والمطالبات العامة بان تجعلنا نشعر بالخسران أو الهزيمة والفشل، أو بعثرة برامجنا وإعادة الفوضى فى خططنا ومشاريعنا فجأة دون سابق مقدمات.

الاصل الثانى: التنسيق والموازنة، والتناسب التقريبى

من مواصفات البرنامج المتكامل: أن نسبة أجزائه ومكوناته بعضها الى البعض الآخر تكون متناسبة بنحو تقريبى، وقيد «بنحو تقريبى» له أهمية كبيرة فى هذه العبارة. ويمكن تصميم أكبر مشروع فى مجال معيّن ومحدّد لغرض الوصول إلى أهداف وطموحات مرتقبة ومعينة. فبناء قطعة أرض سكنية وبناء بيت فيها بأذواق متعددة وسلائق مختلفة، يستدعى رسم برامج وخطط دقيقة ومنتظمة.

ولاترجح أىّ من تلك الخطط والبرامج المختلفة على الأخرى، لأنها وضعت بشكل مدروس وجميل ومتكامل. أما كمال هذه الخطط والبرامج فهو لعدة أسباب:

١- توفر كافة الأجزاء الضرورية واللازمة من أدوات ومواد إنشائية لبناء البيت.

٢- بقاء النسبة بين الأجزاء محفوظة بشكل تقريبى. فوجود «الحمّام» مثلا ضرورى وهام فى معظم الشقق السكنية والمنازل، وعدم وجوده فيها نقص فى تلك الخطط والتصاميم.

أما مساحة «الحمام» فواضحة أيضاً على نحو التقريب. فينبغى ان لاتكون مساحته أكبر من غرف النوم أو صالات الاستقبال مثلاً أو ساحة البيت!، أو يكون أقل من متر مربع.

ويمكن مع ملاحظة هذه المواصفات والمعلومات بناء «الحمّام» وفى أىّ جهة من الشقق السكنية والمنازل، بشرط الحفاظ على التناسب المكوّن للتركيب العام.

إن وجود كافة الأعضاء فى جسم الإنسان ضرورى ولازم فى إظهار شكل الإنسان وبيان ملامحه، وفقدان أى منها نقص فى الجسم. فمقياس العين والأذن والفم لوحظت فيها الفواصل والمساحات بين الأعضاء، والنسب العامة لها بنحو تقريبى، وزيادة أو قلّة هذه المقاييس هى ممكنة إلى حدّ ما، وتسبّب اختلافاً فى أشكال ومظاهر البشر. أما إذا انهارت هذه المقاييس والنسب دفعة واحدة، فإن ما ينتج عنها عبارة عن ظواهر مرعبة ومخيفة!.

وتتضمن برامج ومشاريع الحياة عناصر ضرورية ينبغى وضعها جنباً إلى جنب وبنسب محددة تقريباً، فعدم وجود أىّ من تلك العناصر، أو الاصطكاك الشديد للنسب، سيجعل عرضها الأخير والنهائى ناقصاً وشاقاً، ولايمكن احتماله، رغم أن زيادة وقلّة المقاييس والمعايير والنسب، ستفتح أمامنا آفاقاً كثيرة لعرض تصاميم ونماذج عديدة ومختلفة للبرامج والمشاريع العامة، من خلال التاكيد على الأهداف والمطالبات المرتقبة والمرجوة، وهذا هو أمر ممكن!، ولكنه

ليس بمعنى أن الوصول إلى الأهداف لايتحدد بعرض نموذج وتصميم واحد، أو تعريف دور ومنزلة قطعية محدّدة، أو مقياس واحد لكل نشاط وعمل، وليس كذلك أيضا، بأن يكون فى كل آن ولحظة أمامنا برنامجاً ونموذجاً واحداً ومقيداً فقط، وأن التخلّف عن هذا النظام سيهدم كل برامجنا ومشاريعنا تماماً ويؤدى بها إلى الفشل الذريع.

إن قابلية الانعطاف، والانتقال والتحول فى البرامج والخطط، ينبغى أن يتناسب مع كافة الأذواق، والأمزجة والطباع المختلفة، وشرط إعمالها وتنفيذها هو الدفاع وحماية كافة العناصر، والمقاييس والمعايير والنسب العامة والكلية.

ونتساءل هنا: «ماذا نفعل الآن؟»، «و ما هو برنامج يوم الجمعة القادم؟» و«كيف نقضى العطلة الصيفية ونستمتع بها فى هذه السنة؟» وغيرها من الأسئلة. إلا أنها كلها أسئلة ناقصة لاترتقى إلى الأصل المطلوب، ولايقدر أحد الإجابة عنها، إلا إذا تحدّدت الهيكلية العامة الحاكمة على تلك البرامج والخطط والمشاريع المذكورة.

وهذه الاسئلة تضاهى ما لو سألنا قبل تفكيک الأرض، وعرض التصاميم العامة، وهى:

بماذا تمتاز هذه الجهة من الأرض؟ وما هى خصوصيتها؟

فهذه الجهة من الأرض هى ليست منفصلة عن «كل الأرض»، بحيث لايمكن أخذ «الكل» بنظر الاعتبار، فإنه يمكن تعيينها، وبيان تكليفها.

إن ذوق مهندس العمران وطباعه يقتضى المسح الشامل «لكل الأرض» وأخذ هذا المسح بنظر الاعتبار، ثم يبدأ بتحديد الأمكنة والمواضع الخاصة فيها، وتجزئتها، كوضع الغرف، والمطبخ، وصالة الاستقبال، والمرافق الصحية والحمّام و....

إن «البرمجة والتخطيط» هو فن صيانة الأولويات والحفاظ على المهام فى أعم مستوى، والترجيح لأحد الأذواق فى المستوى الجزئى[1].

---

[1] إحدى حالات عدم الاستقرار والاضطرابات التى تنشأ فى داخلنا وأعماقنا هى مشاهدة الاختلاف أو تضاد المثل ونماذج الاقتداء. فكبار الشخصيات والعظماء فى النظرة الظاهرية كانت لهم برامج وخطط منتظمة وعديدة فى الحياة. ولهذا السبب، تحولوا إلى شخصيات متفاوتة ومختلفة بأحاسيس وقابليات ومواصفات أخرى متمايزة. فأىّ منها نتخذها مثالا وقدوة للاحتذاء والتأسى؟ ونستنتج من الأبحاث السابقة المتقدمة ما يلى:

أ) التمهيدات الاولية التى كانت أمام هؤلاء العظماء، لها ألوانا وأساليب عديدة، وأشكالاً مختلفة. فالإمكانات المالية، وظروف الأسرة، والفطنة، والذكاء، والتهيؤ، والاستعداد، والقابلية، والقدرة الذاتية،و تربية البيئة، والحساسية التاريخية، هى كلها من مقدرات الإنسان، وهى خارجة عن مجال اختياره وارادته... وهذه الامتيازات الوجودية لها تاثيرات كثيرة وكبيرة فى البرمجة والتخطيط. والقدر المشترک لكل هؤلاء العظماء هو: استثمار الفرص والاستفادة من الوقت المناسب ومن القدرات، والقابليات والممتلكات، والمواهب الإلهية.

إن الأجزاء العملية تتم بهذه الصورة وهى: كلّما انتبهنا إلى ضرورة عمل ما، فإننا نسعى إلى درجه ضمن قائمة الأعمال التى ينبغى القيام بها. وغير معلوم لنا فى البداية أبعاد أهمية هذه الأفعال والأنشطة فى مقارنتها بأمور أخرى، ولكـن رأس هذين الاتجاهين اللذين يشكلان الحدّ الأدنى والأكثر لحدود اختيارنا واضحان تماماً. ونحن نقطع بأن الحد الأدنى من هذا المقدار، والحد الأكثر هو غير لازم، أو غير مقدور لنا ذلک. فمثلاً: الرياضة لمدة ربع ساعة يومياً ضرورى لنا، وأكثـر مـن ساعة هو غير مقدور لنا. وهذا الاتجاه الذى يشكّل دائرة شكوكنا وترديـدنا، يخلـق لنـا إجمـالا وظـائف ومسـؤوليات وتكاليف. ولو وضعنا المقدار الأدنى فى قائمة أعمالنا وبرامجنا، والتزمنا بـه التزامـاً عمليـاً؛ فسـتزداد التجربـة والبصـيرة تدريجياً وبهدوء تام، وسنقدر على تشخيص ضرورة هذا العمل، ولكن التعلل عن القيام بعمل ما بـدعوى الجهـل بحـدود العمل بدقة، يحملنا على تركه تماماً، وذلک لأن الإيهام والإجمال لن ينفک عنا أبداً.

ب) لو فرضنا التساوى فى الانتفاعات الوجودية، فإن سليقة البرمجة والتخطيط لكل منها ربمـا يكـون متفاوتـا ومختلفـاً. وهـذين الأصـلين: الجامعية والموازنة هما المفتاح الأصلى لحلّ هذا اللغز. فكلّ واحد من هؤلاء العظماء وعلى اساس ذوقه وتشخيصه، لو وضع برنامجاً ومشروعاً يضم كافة الأصول، ويلتزم بتنفيذها وتطبيقها بحذافيره، فهو غير مدان أمام الله ومحكمة الضمير والوجدان. وهذان الأصلان الحاكمان على برامج وأنشطة الإنسان وأفعاله جاريان أيضاً على الصفات الشخصية، وللفضائل الإنسانية مراتب طولية كثيرة، ويلزم توفر حد النصاب لهذه الفضـائل، واكتساب فضائل أكثر. وينبغى أن تتمثل هذه الفضائل فى كل إنسان، وتنمو فيه الصفات الأخلاقية الحميدة، لتصل إلى حد النصاب، كالسـخاء، والشجاعة، والإيثار، والزهد، والنظم، والحضور الاجتماعى، وغيرها. والشمائل والخصال النهائية والأخيرة للبشر المتخلقين بالأخلاق الفاضـلة هى ناتجة عن تركيب مراتب مختلفة لهذه الصفات مع بعضها. وليس هناک اعتراض عليها، بل هى محترمة بنسبة ١٠٠٪، لأنها ليست أقلّ مـن حدّ النصاب، أو ليس لها مكانا شاغراً، أما فى تركيب الشخصية النهائى والأخير، فينبغى أن تكون أكثر مطلوبية من الآخرين، وسـتكون أسـوة الاحتذاء والاقتداء فى عملنا هى أكمل وأكثر سليقة فى التركيب، سواء كان هذا التركيب قد تمثل وتجسد فى وجود شخص ما، أو اندمجت فى عدة شخصيات. إن القصد والتوجه نحو الرسالة الاجتماعية هى من المنازل اللازمة فى جدولة وجود الإنسان، حيث ينبغى الرعايـة والأهميـة الخاصة بها، إلا أن اختيار الموضوع وطريقة تنفيذه وتطبيقه المتعلق بالنظرة والرؤية الخاصة بالأفراد فهو مختلف تماماً. فأحدهم يتخذ الحركـة السياسية والاجتماعية شعاراً له فى قائمة أعماله، والآخر بالأنشطة العلمية والثقافية، وثالث: بالعمل التهذيبى والتربوى... وهؤلاء كلهم مثـابون ومحترمون. واختلاف عمل الأئمة(ع) فى ظروف عديدة ومختلفة هو شبيه بهذا التوجيه.

ج) ان الاطلاع على برامج حياة هؤلاء العظماء وبرامجهم ودراستها، من شأنه أن يزيـد فـى بصـيرتنا، فيمـا يتعلـق بتـدبير وبرمجـة حركتنـا المستقبلية، وهذا نظير مشاهدة تصاميم مختلفة للأبنية والعمارات، حيث يساعد على اتباع واحدة منها بنسبة ١٠٠٪. ولهذا السبب، هناک وصايا كثيرة وردت فى النصوص والأخبار بضرورة قراءة ومطالعة حياة هؤلاء العظماء وتاريخ أمجادهم.

د) لم يدرک بعض العظماء وكبار الشخصيات فى ظروف بيئتهم وتربيتهم الخاصة بعض الضرورات، حيث لـم يتسـنّه لهـم ذلـک، أو لـم يكـن بمقدورهم أبداً، وعدم المعرفة هذه لم تكن ناتجة عن عمد وتقصير، فمثلا: ربما يقفون على أهمية الرياضة، ولزوم التغذيّة المناسـبة!. لكـن لـم تسمح لهم الإمكانات المالية والبيئية على الحركة بهذا الاتجاه. وفى هذا الفرض، كان الجهل والعجز عذراً موجهاً لهم، وقد أسقط التكليف عنهم. أما نحن الذين نعيش ظروفاً أفضل منهم، فلاتكليفنا ساقط، ولاأعذارنا موجّهة.

إن تحديد النسب والأولويات فى ابتداء الطريق ممكن فى الإطار العام والحدود الكلية والإجمالية. أما بعد الحركة والبدء بالعمل، فإنها تسرى إلى الأجزاء أيضاً، وتصغر دائرة الإبهام والغموض وعدم المعرفة والجهل شيئاً فشيئاً.

الاصل الثالث: التنوع

يحصل نمو الإنسان ورقيه وتعاليه فى أبعاده المختلفة تدريجياً وبفترات زمنية مختلفة، فيلزم عدم خلو الجهة العامة للبرامج فى فترات زمنية طويلة عن العناصر الأصلية. فلاينبغى تعطيل الأعمال الأصلية فى برهة زمنية طويلة، لأن الارتباط المستمر بتلك الأعمال وإن كان قصيرا ومحدوداً، لكنه يبعث أملاً أكثر فى التأثير. قال على(ع): «قليل مدوم عليه، خير من كثير مملول منه»[1]. فتناول الطعام والأكل وتوفير الاحتياجات والمستلزمات الضرورية للجسم، هى من البرامج الأصلية، ولاينبغى الغفلة عنها فى فترات زمنية طويلة، وان كان كمّيتها وكيفيتها تتغيّر بحسب الظروف الزمانية والمكانية المختلفة، كشهر رمضان المبارک، والعبادة، والرياضة، والأنشطة العلمية والعلاقات الاجتماعية. وبناء على ذلک، لاينبغى تخصيص البرنامج الرياضى بفصل الصيف مثلاً، ولاينبغى قطع العلاقات الاجتماعية فى فترات الدراسة والتحصيل أبداً، بأمل اكتساب القدرات والمهارات اللازمة فى العلاقات الاجتماعية بدءا من الصفر، وذلک بعد الفراغ نهائياً من العمل فى فترات الدراسة والتحصيل الطويلة أبداً. ونظراً لأهمية هذه الأبعاد فى حياة الإنسان، فلايثبل أىّ عذر مهما كان موجهاً فى إهمال الأبعاد الوجودية الأخرى، وإطفاء أنوارها نهائياً. والاهتمام الخاص بأحد الفعاليات والأنشطة فى ظروف خاصة هو أمر لازم، بل ضرورى ومعقول تماماً، من قبيل التأكيد على الدراسة والنشاط العلمى أثناء الامتحان، وتقوية البرامج العبادية فى ليالى الجمعة وشهر رمضان وتفعيلها، والاهتمام أكثر بمشروع الرياضة والنزهة والسياحة فى فصل الصيف، وكل ذلک هو بمنزلة«تسريع دفعى» ولكن «مؤقت» لمتحرک هو فى حركة دؤوبة ومتواصلة ولكن بطيئة.

إن ما قيل فى أصل «الجامعية» كان فى خصوص البرمجة والتخطيط. فمثلاً ينبغى أن لاينأى الانسان بنفسه عن الفعاليات والأنشطة الاجتماعية، أمّا على أساس أصل «التنوع»، فيلزم استمرارها وممارستها بين الفينة والأخرى بالتناوب والتوالى، وتقسيمها وتوزيعها باستمرار دائماً، لا أنها تختص بالنصف الثانى من عمر الإنسان مثلاً.

وواضح أن عدد الحصص لنشاط ما ضمن البرنامج المعدّ مرتبط بأهميته، ويمكن التنبؤ به، فيخصص له فترة محددة من الزمن إما يومياً أو إسبوعياً أو سنوياً. أمّا الإهمال والتعطيل الكامل لهيكل العمل المنظّم، فى الظروف الاضطرارية فهى حالة استثنائية، ولاينبغى أن تصبح قاعدة!!.

ولو لم تتدارک احتياجات الإنسان ومستلزماته الضرورية فى البرامج بصورة جامعة ومتنوعة، فإنه سيتوجه نحو الصراع والتقاتل، وسيغير من مسيره فى الحياة، وسيصاب بالإفراط أو التفريط وعدم التوازن.

---

[1] نهج البلاغة، قصار الكلمات: ۴۴۴.

وعندما يشهد الإنسان فجوة كبيرة فى مجموع فعالياته وأنشطته أو قدراته، فسيشعر بـ«الخسران» والنـدم. وإذا عـزم على سدّ هذا الفراغ، فسيقوم بهدم فعالياته وأنشطته كلها، ويخرج عن حال الاعتدال.

الأصل الرابع: امتلاك النظرة العامة

ينبغى الأخذ بنظر الاعتبار فى البرمجة والتخطيط مجموع المقدمات والتمهيدات اللازمة للقيام بالفعاليـات والأنشـطة الإنسانية. فالبرمجة والتخطيط «لليوم» دون الأخذ بنظر الاعتبار مجموع «العمر»، سوف لن يؤدى إلى حصـول معطيـات ونتائج مثمرة ومفيدة. فلايمكن تعريف وظائفنا ومسؤولياتنا فى الحال الحاضر، منفصلاً عـن العمـر كلـه نهائيـاً. ولاتقبـل التشخيص والتحديد.

يمكن إحداث مرآب للسيارة، أو بناء غرف للنوم أو المرحاض فى جانب معين من الأرض. أمّـا أيّهـا الأهـم الـذى ينبغى وضعه فى هذا المكان؟ فهذا مشروط بالأخذ بنظر الاعتبار نوع التصاميم والتخطيط لبناء عمارة.

ولاينبغى البرمجة والتخطيط للحظة الابتداء بالعمل فقط، فكل زمان يمكن القيام فيه بعدة فعاليات وأنشطة، فهـو لازم ومفيد ومؤثر، وإن الذى يحدد الوظيفة النهائية والأخيرة ويشخّصها بوضوح هو النظرة العامـة لمجمـوع دائـرة الاختيـار، والبرمجة والتخطيط الموزون والمنسجم.

الأصل الخامس: تنظيم الوقت

ينبغى فى البرمجة الجزئية تحديد «البداية» و«النهاية» لكل الأنشطة والفعاليات التى يقوم بها الفرد فـى الحيـاة. أمـا تحديد زمان الابتداء فى العمل فهو لأجل أن الإرادة لاتتعلق بأمر كلّى. يعنى: أن عزم الإنسان وقصده للقيام بعمل ما، إنما يكون عملياً، بشرط التركيز على أمر محدد «جزئى». فلو قصد قراءة الكتاب الفلانى فـى «المسـتقبل»، فهـذا أمـر كلـى، ولايتقوم هذا القصد بالإرادة، ما لم يتحدد بأحد حصص المستقبل، كقولنا مثلاً: «اقرأ هذا الكتاب يوم الجمعـة بعـد صـلاة الفجر» أو «مباشرة بعد الوصول إلى البيت».

والشاهد على هذا: أن الإنسان يبدأ عمله دائماً فى اللحظات الأخيرة من الوقت المتبقى، لأنه قبل الوصول إلـى آخـر آنات الزمان، فإن هناك مصاديق عديدة لها تعترض إرادته واختياره، أما إذا كانت آخر آنات الزمان ولابعدها آن، فلـيس أمامه إلا اختيار هذا الآن الأخير.

//// فعبارة: «سأفعله بعد ذلک» تضاهى من الناحية العملية والقيمية عبارة: «لن أفعله أبداً»، لأن لفظة «بعد ذلـک» لها مصاديق عديدة، وبما أنها كلّية، ولامفهوم لها، فلاتتعلق بها الارادة، ويلزم من هذه الناحية للقيام بأىّ عمـل: أن نأخـذ بنظر الاعتبار مصداقاً محدداً، ونعيّن بداية له بصورة جزئية. ومن الضرورى جداً أيضاً تعيين زمان انتهاء العمل «أى الزمان المنتج الذى يستغرق هذا العمل والنشاط أو ذاک»، فإذا تصور الإنسان الزمان الذى أمامه: أنه لا نهاية له، أو فيه متسعاً من الوقت، فلايكون له باعث وداعى للسعى وبذل الجهد لأداء هذا العمل. وكلما كانت الفرصة أمامه محدودة للقيـام بالعمـل،

فستكون أوقاته الحرّة ضئيلة، وفرصته محدودة وضيّقة. وإذا قام بتفعيل أكبر قدراته وقابلياته فى هذا المجال، ليستفيد كثيراً من الزمان، فقدرة الإنسان وقابلياته دائماً هى أكثر مما يتصور.

وكلما وجد الإنسان نفسه حرّاً طليقاً، فإنه يكتفى بالحدّ الأدنى من النشاط والحركة، وبذل ا لجهد والسعى. وإذا مرّ بظروف حرجة وقيود وتحديدات، فإنه يقوم بأعمال يندهش نفسه لهذه لقوى الخارقة والقابليات التى يمتلكها، والجهد الذى يبذله فى القيام بهذا العمل وانجازه. فلايقدر الإنسان الركض لعدة كيلومترات فى الظروف الاعتيادية، إلا أنه إذا أحسّ بالخطر، أو العجز عن مواجهة العدو فى ساحات الحرب والقتال، ورأى الفرار والهروب هو الطريق الأرجح للخلاص من الموت المحتّم، فإنه يركض ساعات طويلة ولعدة كيلومترات دون أن يشعر بالإرهاق والتعب.

طبعا لايمكن للانسان أن يركض طوال عمره، ولكن بامكانه تقليل حالات الضعف والعجز الذى يلحق بالإنسان إلى الحدّ الأدنى، وعلينا الاستفادة من هذه القاعدة فى البرمجة والتخطيط. إذا ألزمنا أنفسنا بأكمال العمل بالوقت المقرر، فهذا الالتزام العملى هو بمنزلة القوة القاهرة التى تضطرنا إلى بذل الجهد والسعى الحثيث والعمل المضاعف. أما إذا رسمنا فرصاً يتسع زمانها، ولايتحدد موعدها، فإن عمدة وقتنا سيقضى فى البطر واللهو، ويؤدى إلى الضياع والبطالة.

لهذا اقترح كثير من العظماء وكبار الشخصيات أن لايزيد وقت العمل والبحث العلمى، لدرس واحد فى الظروف الاعتيادية (بعد الانتهاء من كافة المراحل قبل المطالعة والدرس، والمباحثة أو كتابة البحوث) عن ثلاث ساعات فقط يومياً.

ويمكن تخمين وقت انتهاء العمل، وذلک من خلال ملاحظة كل الفعاليات والأنشطة منذ البداية بنحو جيّد. فلو أردنا دراسة نص مثلاً، فإنه يمكن محاسبة عدد الحصص، وتوزيعها على الأيام الدراسية بشكل تقريبى، بالاستعانة بالتقويم السنوى (المفكّرة).

الأصل السادس: التغطية الشاملة

ينبغى فى التحضير لبرنامج جزئى، ملأ كافة حقول البرنامج. فالبرنامج للذى يقف عند تخطيط البناء ينبغى تغطية كل جوانبه، وملأ كافة اللحظات للتى تتقضّى بالبطالة واللهو والبطر، وهى حقول فارغة فى البرنامج، ينبغى ملؤها وتقريب هذا الفراغ إلى الصفر. فليس فى حياة الإنسان أى لهو وعبث وبطالة أو بطر!، أو أوقات فراغ تقضى بالمتعة الزائفة والزائلة! لانها تهدر عمر الإنسان وطاقاته، وتضعف قواه العقلية والجسدية، دون أن تكون له أىّ منفعة فى ذلک، أو مصلحة دنيوية أو أخروية تذكر[1].

[1] قال تعالى: « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ...وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» (المؤمنون :٢،٢٣و٣) وقال(ع): «إن المؤمن لمشغول عن اللعب» (الخصال للصدوق، ج ١، ص٢٦.

إن الدين الاسلامى لايعارض استمتاع المؤمن بشطر من وقته فى الرياضة مثلاً، أو النزهة أو الاستجمام والراحة، أو الفرح والسرور، ولكنه يمنع عن اللغو والبطر، والإنشغال بالأمور المضرّة وغير النافعة فى الحياة الدنيا، وهى ممنوعة ومحرمة، وإن كان ذلک تعلّم علم من العلوم. قال(ع): «أعوذ بک من علم لاينفع»[1].

ولو كانت الرياضة هادفة والنزهة مفيدة، وقائمة على أساس الحكمة، والتعقل، فى قائمة الأنشطة والفعاليات، لما عددناها لغوا وعبثا. أمّا إذا خرجت عن المقدمية، وملأت كافة أنحاء البرنامج، فهذا غير مطلوب وغير جائز أبداً، دون أدنى شک فى ذلک أو ترديد. فالتمشى فى الحديقة، ومشاهدة المناظر الجميلة، أو حلّ رموز جدول الصحف والمجلات، والألعاب الكامبيوترية، والاستمتاع بسماع شريط الموسيقى، وكرة القدم، والأفلام السينمائية المباحة، وقراءة الصحف والمجلات وصفحات الحوادث فيها، وتناول المكسّرات، والتفكه بالحديث وقول اللطائف والنكت، للضحک والمداعبة، ومشاهدة المسابقات الرياضية، والتفرّج فى الأسواق، والتغنى بالأشعار، ربما تكون كل مفردة منها جائزة شرعاً، إلا أن الشاب المؤمن الفتىّ الذى يبدأ صباحه ويومه بأحد هذه الأمور، ويكون شغله الشاغل ذلک، فلايوافقه الدين عليه! فالإنسان الناجح – فى الكثير من المجالات – هو الذى سحق بأقدامه على شهواته وملذاته، ولايعتنى بهوى النفس والشيطان، واستعد وتهيّأ إلى بذل الجهود والسعى الحثيث والجهاد، والمثابرة فى هذه الحياة الدنيا. ان الطالب المتفوق والناجح فى الدراسة، هو الذى يملأ وقت فراغه فى المطالعة وقراءة الكتب، فى أوقات ساعة لعب الآخرين ولهوهم!. وهو وإن مارس الرياضة فى وقت محدد مثلاً، الا أن النجاح لايمكن أن يتحقق إلا بالإعراض عن هوى النفس واللذائذ المادية، وربما لايعلم الإنسان بدقة ماهى البرامج التى تتضمن نتائج ومعطيات يمكن انعكاسها على واقعه الحياتى، إلا أنه يعلم بهذا المقدار، وهو: أنه غير جائز له أن يقضّى أوقاته وعمره فى البطالة والبطر واللهو العبث. ولايجوز له أيضاً قضاء الوقت فى أمور غير هامة وغير نافعة هى أقلّ وأدنى من قدراتنا وقابلياتنا واستعدادنا القوىّ، وإضعاف هذه القوى والطاقات المثمرة والطموحة فى أمور هامشية غير مؤثرة، لأنها أوسع وأكمل من ذلک.

قال الحكماء: إن الساعة التاسعة صباحاً هى أوج الذكاء والفطنة، والإبداع الفكرى والعملى. وعليه،فإن قراءة القصة أو الشعر فيها، لايعدّ استفادة فى الوقت المناسب. لكن نفس هذا البرنامج لو كان بعد الفراغ من العمل والإخلاد إلى الراحة بعد تعب ومجهود شاق، سيكون مثيراً وممتعاً للغاية، وسيبعث النشاط ويجدّد العزيمة، ويكون مقرونا بالنفع والفائدة.

إن الكثير منّا يقبل برحابة صدر وطلاقة وجه كل اقتراح أو نقد بنّاء يقدّم له، وهو على استعداد تام لقبوله والعمل به، وليس لديه أى مانع أو عذر يصدّه عن المشاركة. فلو قدم له مثلاً مقترحاً للتنزه فى الحدائق العامة، أو التسلّق على الجبال، أو الذهاب إلى الملعب الرياضى لمشاهدة مباراة كرة القدم أو زيارة الأصدقاء، أو المشاركة فى المجالس و... فإنه يعرب عن استعداده مباشرة لقبول هذه المقترحات والعمل بها.

---

[1] ميزان الحكمة، الحديث ١۴٠٠۵، ومفاتيح الجنان، دعاء تعقيب صلاة العصر.

إن هؤلاء محرومون من نعمة الهدفيه والبرمجة ولايحققون نجاحا، وإن كان ظاهرهم أنهم يتمتعون بحياة سعيدة وسارّة.

الأصل السابع: استحكام (الثقة والاعتقاد بالبرنامج المعدّ)

على الإنسان أن يؤمن بما يقوم به من أعمال وخطط ومشاريع، أمّا إذا فقد إيمانه ببرامجه ومشاريعه، فسيستولى عليه الضعف والوهن والانهيار، ويدبّ إليه العجز والكسل. وإن أدنى مخالفة ومعارضة أو جزء من المانع، سيؤدى إلى الخلل فى أجزاء أخرى من البرنامج وأسلوب تنفيذه، وسيوقف الإنسان نفسه عن الحركة والاستمرار، ومتابعة الأعمال.

إن العمل القليل المبتنى على الإيمان، وتثبيت النية، من شأنه أن يزرع الأمل فى القلوب أكثر من العمل الكثير الذى لايقوم على أساس الإيمان الراسخ، والذى يفتقد الدعم والإسناد. ومن هنا بدلاً من مباشرة مثل هذا البرنامج الذى لايستند الى الإيمان، لابد من تقوية الأساس الإيمانى لذلك البرنامج والأعمال التى يتضمنها، والعمل على إعادة جسور الثقة والاعتقاد بالعمل، وتقوية تلك الأواصر وتنميتها، والبحث فى كافة الاتجاهات للعثور على منطق قوى وراسخ فى هذا المضمار، للاتجاه نحو تكميله وتتميمه. فالترديد والتزلزل فى العمل يدخل الندم، وبالتالى ملامة الإنسان نفسه، وسخطه وعدم رضاه.

وهذا الاعتراض والسخط النفسى الدائم يبعث الإنسان على أن لايهتم كثيراً فى مزاولته لوظائفه ومسئولياته، وبالتالى: ستجده غير ناجح فى أداء مهامه حيث نتائج عمله ضعيفة وضامرة، بل لا قيمة لها، وخَلقه مستعملة، أى يستبدل عدم استحكام البرنامج إلى عدم استحكام العمل. واستمرار هذه الحالة النفسية لفترات متناوبة ومتلاحقة سيؤدى إلى تحطيمهم قاعدة الهمم والعزائم لدى الإنسان.

القدرة على البرمجة والتخطيط

إن التدبير، بعد التفكير، والقدرة على التسلط والتحكم بقواعد البرمجة والتخطيط، وتحديد الوظائف والمسئوليات هو نوع قدرة وملكة، وهو كسائر الملكات بحاجة إلى مداومة وتمارين كثيرة. وهذه القدرة هى كغيرها من القدرات، لاتحصل دفعة واحدة، وإنما بالتدريج وبمرور الزمن، واتساع الوقت.

لكن يبدو أن ظهور هذه القدرة لدى الإنسان ابتداء هو صعب وشاق للغاية، إلا أن مرور فترة زمنية وسعة من الوقت، ومن خلال تجارب عديدة، سيحول ذلك الأمر الصعب إلى أمر سهل ويسير.

ولاشك بأن البرمجة والتخطيط، بدأ أمر ممكن لأول وهلة، إلا أنه قد يؤدى الى الفشل أيضاً. ولكن من خلال التشاور والدراسة الدقيقة والبرمجة والتفكير، يمكن تقليص احتمالات الفشل وتعويض الخسائر الفادحة المتلاحقة والمستمرة، وإيصالها إلى الحدّ الأدنى. وفى الوقت نفسه، لاينبغى أن يؤدى هذا العجز والفشل والخسائر إلى حالة من البرود أو الجفاء، أو التوقف عن الحركة فى مسيرة الاستقامة وتحصيل الملكات.

وهذه المداومة والتكرار فى البرمجة والتخطيط، تنتج روح التدبير، وفنّ الإدارة تدريجياً. أما فى حالة اللامبالاة، وعدم الالتفات، أو المسامحة، فستتكون لدينا ملكة التساهل، وعدم الدقة فى العمل، والتسامح فى التعامل مع كثير من الحقائق والأمور. فمن هنا إذا لم يتصد الشاب فى مقتبل شبابه لتدبير الأمور الجزئية والكلية فى الحياة وتنظيمها، فسيفقد قدراته وإمكانياته، وسيصاب بحالة من الاضطراب والتشويش بدرجة قد يصعب علاجها لسنين طوال، فالخطر الكبير الذى يهدّد شخصية الإنسان دائماً هو الضعف والكسل.

ويجد البعض ممن له مسئولية كبيرة وموقع هام يفتقد الى التدبير اللازم فى أدائه لمسئولياته، ولايمتلك فن الأدارة فى تعامله مع الأمور والأحداث، والسر فى ذلك يعود الى أنه لم يتدرب على ذلك إبان شبابه، ولم يستغل هذه الفترة من حياته بالشكل الصحيح.

والحصول على القدرة هو بحاجة إلى البرمجة والتخطيط المناسب والمتقن، وذلك من خلال التواصل مع الشخصيات الكبيرة والناجحة بشكل مستمر أو متناوب لوضع صيغ وبرامج عديدة ومتنوعة فى هذا الاتجاه. فالشاب الذى يتلقى هذه البرامج التى يفيد بعضها آداب المعاشرة مع كبار الشخصيات، فإنه يحاول تنفيذها أو اقتباسها بحذافيرها. ويحصل بمرور الزمن على قدرة فى «التركيب» لخصائص البرامج الإيجابية، ويصل إلى حالة «تطوير النفس وتهذيبها» من خلال البرمجة والتخطيط[1].إن تحليل وعرض النماذج المختلفة لأثرما، يزيد فى قدرة تشخيص الإنسان، ويساعد أكثر فى إيجاد المقارنة

---

[1] إن مشاهدة نماذج عديدة لأحد المنتجات الإنسانية والبشرية مؤثر فى «جذب» خصائصها. فطلبة الجامعات مثلاً الاخصائون فى فرع «الهندسة والعمران» يمتكلون مكونات تحتوى على مجموعة صور جميله للأبنية والعمارات العالمية بمواصفات عالية فى الجودة والدقة، ذا طابع متحضر وساحر، تتجلى فيها مواصفات الطبيعة وروعتها، وهؤلاء مكلفون فى أن يختاروا عرضاً واحداً منها، أو اثنين كنموذج وعيّنة وتصاميم من تلك المجاميع والمكونات ثم يبدأون برسمه على الورق. فالدقة فى هذه التصاوير عند مشاهدتها، تجعل الطالب الجامعى مشغوفا بها، وتبعثه على معرفة ظرافة هذه الصور، وسحرها وجمالها، وحالات الإبداع فى إيجادها وصنعها. إن رسم هذه التصاوير على الورق يقلل من سرعة المشاهدة، ويضاعف فى دقتها. وعلى إثرها يخلق فيها أثرا جميلا آخر، ويرتسم فى وجود هذا الفنان الجامعى المبدع، ويجعله مستعدا ومهيئا ليأخذ هذه العروض والتصاميم كنموذج للتأسى والاقتداء، والاقتباس فى ظروف مؤاتية أخرى. ولو تعددت هذه النماذج، وتكررت المشاهدات الدقيقة فى العروض والتصاميم بأشكال وأنواع مختلفة، فان الطالب الجامعى يصل إلى مرحلة يكون فيها قادرا من خلال هذا «التركيب» بأن يصوغ منها أثراً جميلا ومميزا، ويخلق فيه إبداعاً وسحرا جديدا. فتجتمع فى هذا العرض والتصميم تجليات بديعة ومتعددة فى مكان واحد وأثر واحد. وبعد التمرين والممارسة فى مرحلة أخرى، فان هذا الطالب الجامعى الفنان يصنع إبداعا جميلا وأثراً رائعاً. أى أنه يعرض أثراً فى غاية الروعة والدقة والجمال، وكمال الإبداع، لم ير له نظير من قبل. وإليک هذا الأنموذج لتوضيح ذلک:

المشاهدة الدقيقة ⟸ الجذب ⟸ الاقتباس ⟸ التكرار وتنوع المشاهدة ⟸ الجذب ⟸ الاقتباس ⟸ التركيب ⟸ الإبداع.

وعلى طلاب الجامعات المختصين فى قسم الإنتاج والإخراج السينمائى أن يشاهدوا فى كل اسبوع فيلما سينمائيا أو اثنين من الأفلام العالمية والفائزة فى المهرجانات السينمائية بالجوائز الأولى، والتى نالت استحسان وإعجاب مشاهديها، والسرّ فى ذلک، أنه كلما ازدادت الدقة فى المشاهدة، فستكون مؤثرة فى تعلم هذه الصنعة، ونقل مهنة انتاج الأفلام وأخراجها وظرافتها إلى أجواء ومحيط أذهانهم وأفكارهم. وهذا

والاختيار المطلوب، كما أننا نبذل وقتا كبيراً فى اختيار نوع الثياب النفيسة والأنيقة عند الشراء، ونبحث عن تصاميم جديدة ومتطورة ظهرت حديثاً فى الأسواق، وذلک قبل شراء الثياب، فلماذا لانكون جادّين أيضاً بنحو أكبر فى البرمجة والتخطيط، ونكون أكثر دقة فى اختيار النماذج الراقية والمتطورة والمثل العليا. وأن نتجه نحو الترجيح النسبى لواحدة من الأمور، أو التركيب الأمثل والارجح لتلک النماذج.

«الإنشداد» و«الجذب» يضاعف القوة لدى الطالب الجامعى، ويشجعه على تكرار المشاهدة. فيقتبس جذوة منها، أو يركّب ما تعلمه من براعة وميكانيكية وتكنيک خاص ينسجم مع طابع تخصصه ودراسته فى أجواء مضاهية، أو انه يصل إلى حالات «الإبداع» لفترات زمنية لاحقة ومتناوبة.

وكذلک المتعلمون الجدد لتلاوة القرآن، فإنهم اذا أرادوا أن يحسنوا قراءتهم وأصواتهم وألحانهم، فعليهم الاستماع كثيراً لتلاوة القرآن الكريم، لكبار القرّاء فى التلاوة، والمبدعين منهم فى مجال التلاوة، وذلک للتعلم منهم كيفية التلاوة الصحيحة، والتى تخضع للقواعد والأصول فى التلاوة. فكثرة الاستماع وتكرارها يوجب «الانشداد والجذب» السريع فى تعلم أساليب التلاوة، وأطوار القراءة وألحانها، والقدرة على الاقتباس منها. وسماع هذا الشخص قراءات عديدة ومتنوعة تجعله قادراً ومتمكناً على مزج أطوار مختلفة، وصنع معجون بديع وساحر من هذا «التركيب». أو انه يبدع بعد عدة محاولات وممارسات وتمارين فى خلق وإبداع «اطوار جديدة ومختلفة». وعلى هذا المنوال نفسه درج قرّاء التعزى والمراثى الحسينية ومدّاحوا أهل البيت(ع) فى تلقى أساليب الرثاء وتطويرها، والنجاح فى تطبيق هذا الاسلوب. وكذلک الحال لمن يريد تعلم فن الكتابة والتطور فيه، وتقويتها فى نفسه، حيث عليه مطالعة كتب العلماء وآثار عظماء هذا الفن الخالد وجهابذته، والارتباط المستمر والفاعل مع النصوص الأدبية الفاخرة، وهم بأشد الحاجة إلى ذلک. وهذا الارتباط وإن أدى فى البداية إلى التقليد و«اقتباس» اساليب وأطوار الغير، لكنه يتخذ له مكانا وموقعا مهماً بعد فترة من الزمن، وسيتطور فى مستوى التركيب والإبداع. والشعراء الناجحون ورواة القصص والأساطير والملاحم هم الذين تأثروا بهذا الطابع فى عملهم وفهمهم، بسبب اتباعهم هذا الاسلوب. وكذلک فن الخطابة، فمعاشرة الخطباء باستمرار، والاستمتاع كثيرا لأشرطتهم، والدقة فى معرفة عوامل النجاح وأسراره، فان كل منها يمكن من خلال «الانشداد» و«التركيب» و«الاقتباس» أن تخلق لديهم حالات من الإبداع فى ايجاد كثير من الالحان والأطوار الجديدة فى هذا المجال. ولو طوى الإنسان كافة هذه المراحل بنجاح، فسيؤدى هذا إلى خلق أطوار جديدة فى هذا الفن، وكذلک فى التدريس والتسلط على أسلوب التعامل مع التلاميذ والطلبة، بنفس المنوال.

وخلاصة ما ذكرنا هو أن معاشرة كبار الشخصيات اللامعة والمبدعة، ومشاهدة آثارهم، المعروفة والمشهورة فى المجال المهنى والصناعى وغيرها، سيؤثر فى وجودنا وشخصياتنا. فالكون فى أرقى مستوى وأعلى المراحل العلمية والبشرية، يوسّع من دائرة عملنا وأنشطتنا الذهنية، ويزيد من مهاراتنا وقدراتنا الفنية والمهنية، ويضاعف من حجم مطالباتنا وتوقعاتنا، ويجعلنا أكثر تشدداً فى الإبداع، وخلق آثار جديدة هى أكثر دقة ومسؤولية، وينأى بنا عن إيجاد حالات الرضا والقناعة بما هو موجود، وعدم التطور ومواكبة حركة العلم بالعمل. إن من امتلک وظيفة شرعية ومسؤولية علمية وثقافية، سيزيد من حجم قابلياته وكفاءته الفكرية فى معاشرته لكبار الشخصيات، ومعرفة نظرياتهم المتطورة والراقية. وهذا الاستئناس والتواصل والثقة فى الاستمرار والمداومة، واستمرار الارتباط بأهل الرأى والنظر سيؤدى إلى ظهور حالات «الانشداد والجذب» و«الاقتباس» و«التركيب» بأساليب علمية حديثة، وطابع التحليل، وعرض البحوث والدراسات. ويمكن أن تؤدى فى النتيجة إلى «خلق» وإبداع نظريات جديدة. وهذه المعرفة الطويلة هى نماذج من المشاهدات المتكررة والمستمرة لتطبيق القاعدة على مصاديقها المختلفة.

إشارات حول البرمجة والتخطيط

١- لو أمكن الترديد فى جميع برامج الحياة، لكنه لاشبهة هذه القاعدة: يجب علينا آن نسعى لتحديد تكاليفنا ومسؤولياتنا. وهذا التحديد هو من أولويات مهامنا وعملنا فى هذا المجال، وهو أكثر وأقوى صلة بنا فى هذا الاتجاه. وهى تدعم كافة التكاليف والمسؤوليات اللاحقة وتشكّل اللبنة الأولى فى أساس هذه الحركة.

٢- إن «تحديد الوظيفة والمسؤولية» و«الإرادة» بحاجة إلى ما يلى:

أ) بذل الجهود والمساعى الحثيثة.

ب) المعرفة الشاملة والواسعة.

ج) صرف الوقت الكافى للعمل.

أ) إن البقاء بانتظار أن تتكشف لنا الأمور عن أفضل أساليب العمل فى هذه الحياة الدنيا دون أن نكلّف أنفسنا عناء البحث فى هذا المجال هو أمر غير منتج وغير معقول، ولن يؤدى إلى فتح أبواب الرحمة الإلهية، ونزول المائدة السماوية دون جهد أو مشقة، فلا يريد الله سبحانه أن يجعل هذا النظام الكونى دون أسباب ومسببات.

ولهذا، ينبغى مضاعفة الجهود والمساعى الجادّة لنيل هذه النعم الإلهية وتحصيلها، واستثمار رضا الله. ولانتوقع حدوث «الصدفة» أو «الرؤيا» أو «الإلهام» أو «المكاشفة» أو «اللقاء صدفة» بخبير وأخصائى، أو «استخدام» أساليب ساذجة ومضلّلة «كالاقتراع» أو «التفؤل» أو «الاستخارة».

ب) إن كثيراً من قراراتنا اللامتزنة نحن البشر، يتبعها الندم والحسرة والخسران، ولها جذور مشبعة فى جهلنا وعدم معرفتنا. فكلما توسعت دائرة معلوماتنا ومعارفنا بالحقائق الوجودية والنظام الكونى، السارّة منها والأليمة، فإن برمجتنا وتخطيطنا سيكون أقرب للصواب. وكلما دعم العلم والمعرفة بشكل أوسع وأشمل لبرامجنا وتخطيطنا، فهو أكثر تكاملاً وانسجاماً.

ومن هنا: يجب قبل البدء بالبرمجة والتخطيط الانفتاح على تجارب وخبرات الآخرين، وضمّها الى خبراتنا وعلومنا المحدودة، وعموماً فإن المطالعة، والتشاور، ومتابعة البرامج الأخرى والافادة منها، ومعاشرة كبار الشخصيات الناجحة... هى كلها عوامل بناءة لها معطياتها ونتائجها الموفقة والسديدة، تتضمن كثيراً من الفوائد والمكاسب.

ج) لايمكن توفير «الوقت» وادخاره إلا ببذل جهود ومساعى مضاعفة، ونوع من المجاهدة والطموح فى هذا المسير الى جانب الوعى والبصيرة، وطلب العلم.

لهذا، ينبغى تخصيص واحتساب وقت مناسب من برامجنا لهذا الأمر الهام والضرورى. فكلنا نراجع الرسائل العملية للمراجع العظام لتحديد موقفنا تجاه القضايا التى تمس صميم حياتنا، ومعرفة الأحكام، والوظائف والمسؤوليات العامة للمسلمين، وتحديد الموقف الشرعى تجاه الموضوعات الخارجية التى تواجهنا. فنحن نبذل جهوداً ومساعى حثيثة ومضنية

لفهمها – وحدها أو بمجموعها –. وقد نراجع فی ذلک أهل العلم والفتوی ومراجع التقلید العظام، ونحرص علی ذلک کثیراً. وهذا السعی والاهتمام کان یشمل مساحات ومقادیر واسعة منها، فعلینا العثور علی مسیرة الحیاة. وینبغی التدبیر فی اغتنام هذه الثروة الضخمة والعظیمة من «الوقت»، وکذا قدراتنا وقابلیاتنا ومواهبنا للوصول إلی الفوائد والأرباح الطائلة والعظیمة فی هذا الاتجاه.

ونحن نعلم أن صرف هذا المقدار من الوقت والجهد فی مجال البرمجة والتخطیط قبل القیام بأیّ عمل، سیؤدی إلی ظهور نتائج ومعطیات أکثر فی نهایة عملنا بکثیر.

ولو لم نبذل هذا المقدار من القوی الفکریة والجهد والزمان فی تنظیم «البرامج» والتخطیط لها، فسنخسر أضعاف ما نقوم به من أعمال «غیرمبرمجة ومخططة»، وستؤدی فی النهایة إلی الفوضی فی الأداء.

۳- العجز عن إجراء وتنفیذ البرامج والخطط یکون أحیاناً بسبب وجود «نقص» أو خلل فی نفس البرنامج. وواضح أن عدم رعایة قواعد البرمجة والتخطیط هی خطوة أولی لرفع تلک النقائص وسد الاحتیاجات والفراغات الموجودة، ومکافحة الضعف والوهن، والکسل والضجر فی آن واحد. ومن جهة أخری لایجوز أیضاً تضییع عمرنا کلّه فی التخطیط والبرمجة، بل یجب البدء بالعمل والإقدام علیه بعد الوصول إلی النتائج والمعطیات.[۱]

۴- العجز عن إجراء وتنفیذ البرامج والخطط، یمنحنا أحیاناً شعوراً بالبرود واللاأبالیة بالنسبة لأصل البرمجة والتخطیط، بحجة أننا لانعمل بهذا البرنامج مثلاً، ولاینبغی فی تلک اللحظة أن یکون هذا باعثاً علی ترک البرمجة والتخطیط جانباً، وإهماله.

وهنا لابد من الاشارة الی أن من یمتلک برامج محددة فی حیاته، فهو وإن کان لایرید القیام بها ۱۰۰٪، إلا أنه أنجح ممن لیس له أیّ برنامج أو هدف محدد فی حیاته.

۵- إن أیّ هدف مهما کان حجمه کبیراً أو صغیراً فی الحیاة، هو بحاجة إلی التفکیر والبرمجة والتخطیط. فالبرمجة أمر مطلوب علی کل حال، سواء فی الریاضة، أو فی الأمور الاعتیادیة الیومیة، وأو فیما یتعلق بزیارة الأقرباء والأصدقاء،

---

[۱] ذمت الثقافة الإسلامیة مفهوم «العجلة والاستعجال» بشدة، وقد وردت بذلک آیات کثیرة ونصوص مستفیضة، والظاهر أن هذا الذم متوجه الی مرحلة ما قبل العثور علی طریق وأسلوب صحیح. فالعزم والقصد علی اتخاذ القرار إذا لم یکن مبتنیاً علی فکرة صحیحة یؤدی إلی الوقوع فی الانحراف والأخطاء. قال علی(ع): «العجل یوجب العثار» (غرر الحکم: ۴۳۲). وقال رسول الله(ص): «العجلة من الشیطان» (المحاسن، ج۱، ص۳۴۰). أما بعد الکشف والعثور علی طریق الخیر والأسلوب الصحیح، فعلیه الإسراع والاستعجال للقیام بذلک العمل. قال تعالی: «فَاسْتَبِقُواْ الْخَیْرَاتِ» (البقرة: ۱۴۸ والمائدة: ۴۸). وقال تعالی: «أولئک یسارعون فی الخیرات وهم لها سابقون» (المؤمنون: ۶۱). وقال الإمام محمد الباقر(ع): «من همّ بشیء من الخیر، فلیعجّله» (الکافی، ج ۲،ص۱۴۳). وقبل تحدید حسن وجودة فعل ما، یجب الاجتناب عن السرعة، أما بعد إحراز أن ذلک العمل هو «عمل صالح وخیر» فلایجوز التأنی والتوقف فی أدائه، بل ینبغی الإسراع والدقة فی إنجازه. وإن الالتزام العملی الذی اتخذناه فی قراراتنا، سیقوی فینا ملکة الاستقامة والإرادة، وتطور وتحسن اتخاذ قراراتنا فی المستقبل.

والتوادد والتحابب، وصلة الأرحام، والسياحة والأسفار الصيفية، وكذا فيما يتعلق بالدخل الفردى والاجتماعى، أو فى توفير سائر المستلزمات، وسدّ الاحتياجات اللازمة والضرورية، وحتى فى تحديد المكان والجهة لأدوات وأثاث المنزل، و... ولاشک أن هذه البرمجة والتدبير يضاعف من نتائج العمل، ويقلل من حجم الخسائر والأضرار. أما المسائل العامة والمواضيع الكلية فى الحياة، فإنها تحظى بأهمية أكبر، وبالتالى تستلزم قسطاً وحيّزا أوسع من التفكير والبرمجة.. ثم إن التفكير للوصول الى أفضل البرامج والخطط فى بعض الأمور الجزئية يزيد فى قدرة الفرد، ودقّة نظره، واستعداده وقابلياته، ويسهّل سيرنا فى المضى نحو تحقيق الأهداف العامة، ولاداعى للتفكير الكثير فى المسائل الجزئية والهامشية الصغيرة، والتى لايتطلب القيام بها مجهوداً كبيراً فى الغالب، وتكون موادها الأولية جاهزة وفى متناول الأيدى.

۶. ينبغى أن لايؤدى التدبير إلى الوساوس والشكوک. لأن الدقة الكثيرة والمفرطة فى الأمور الجزئية والهامشية وعواقب الأمور تمنع من القيام بأى عمل مهما كان نوعه وحجمه، وتبعث على إيجاد حالة من الفزع والرعب والخوف، والاستعجال أحياناً. وينبغى أن لايدخل التدبير الذى هو أداة لتحسين العمل وتطويره أىّ إضرار بالعمل، لأن الاحتياط المفرط الذى يخرج عن حدّه هو خلاف الاحتياط. ونقلل أحياناً من الدقة ونتسامح فى ظرافة العمل، فهذا هو عين التدبير، وقد قيل فى المثل: «رفع الحجر الكبير علامة عدم الضرب به».

۷- إن وظائفنا ومسؤولياتنا فى مختلف العصور والأزمنه، وفى شتى الظروف المتزامنة مع وقوع الأحداث والوقائع المتنوعة فى موضوعات مختلفة، هى كثيرة وعديدة لاتحصى.

ولهذا، فإن هذه الوظائف والمسؤوليات، لاتتحدد ولاتنحصر فى فترة زمنية معينة. ولايمكن البرمجة والتخطيط «مرة واحدة» فى العمر وإلى الأبد.

ولايمكن التنبؤ بالقضايا والأحداث قبل أوانها. فوقوع حادثة أو ظاهرة معينة مثلاً، ستقضى على النظام العام لوظائفنا ومسؤولياتنا. ويتطلب هذا تنظيماً جديداً فى هذه المرحلة. وقد تؤدى حادثة أو ظاهرة ما أحياناً إلى خطر الابتلاء بالمصائب والكوارث، أو تكون عاملا مساعدا لظهور إمكانات جديدة، أو الحصول على معلومات مفيدة، أو أمور أخرى من هذا القبيل. ومن هنا: فإن تحديد الوظائف والمسؤوليات يكون تدريجياً ومكرراً.

فمثلاً: لو وضعنا برنامجاً لفعاليات وأنشطة يوم الخميس والجمعة، فبعد مضى عدة أسابيع من العمل والتجربة، سيكون لها استحقاقاً للتقييم، وإعادة النظر، لأن تجاربنا ومعارفنا تزداد بمرور الزمان والمكان.

ومن المناسب هنا: استثمار الخبرات والتجارب المتزايدة على أساس البرمجة والتخطيط.

۸- كلما اتسع نطاق المشاريع وآفاقه، كان أكثر نفعاً وفائدة، لانها تنتج على ضوء العروض والتصاميم للأنشطة اليومية والفعاليات المستمرة، أو التى تحصل فى فصل الصيف هذا مثلاً، هى غير قابلة للمقارنة مع فوائد برنامج العشر سنوات المقبلة، أو كلّ العمر، بل ينبغى اغتنام التدبير، واستثمار التفكير، فى حدود عمر الإنسان كله، وليس فى زاوية وجهة محددة منه.

٩- ينبغى إدراج مواد البرنامج، والطروحات، والأفكار الأساسية، والعروض والتصاميم على الورق.

وفى ذلک فوائد عديدة، من جملتها:

الف) زيادة التركيز الذهنى والفكرى، وانسجام البرنامج، وضمان نجاحه.

ب) الحفاظ عليه وصيانته من الضياع والنسيان.

ج) القدرة على مراجعته ثانيا، وإعادة النظر فيه، وتقييمه.

د) القدرة على نقله للآخرين.

ه) ضمان وقت التنفيذ والالتزام العملى (كما لو كانت هناک وثيقة أو عقد مدون ومكتوب يفرض علينا الالتزام بذلک).

١٠- اعتماد البرنامج المدون كمنهج أساسى وقاعدة أصلية فى جميع الأنشطة والفعاليات، وذلک استجابة لضرورة المرحلة التى تحتّم وضع قواعد تضمّ أنشطتنا وفعالياتنا كلها دون استثناء لفترات زمنية متوالية. كما لو وضعنا برنامجاً يومياً مثلاً: بأن تكون الصلاة فى المسجد بعد سماع الأذان مباشرة، وأن تكون الرياضة الصباحية نصف ساعة بعد الصلاة، والاستحمام مرتين فى كل أسبوع، وهما: يومى الاثنين والجمعة فى ساعة محددة، وهكذا سائر الموارد.

وهذه القاعدة ثابتة إلا ما شذ منها فى موارد معينة، وهى:

موارد الاستثناء بالنسبة إلى «الأصل الأوّلى»

فإن فى هذا الاستثناء قد تترتب فوائد ومصالح ناتجة عن الأصل الأوّلى. لكن لايجوز أن تزداد موارد الاستثناء هذه، فتكون أكثر من القاعدة نفسها.[١]

ولو كثرت موارد الاستثناء هذه، فعندئذ ينبغى الترديد فيها وإعادة النظر. وقد ذكرنا فى الفصل الأول: فى خصوص البرنامج الذى ينبغى أن يحكم حياة المسلم أنه لكل قاعدة استثناء إلا أصل «العبودية»، فإنها تغطّى كل حياة الإنسان دون استثناء. فالنظم والحب هما قاعدة الحياة، فإذا تغايرا مع روح «العبودية لله»، فسنرفع أيدينا عن هذه القاعدة.

ويتم تغيير وظائفنا ومسئولياتنا المرحلية التى لايمكن التنبؤ بها، على ضوء هذا الأصل، أما «العبودية لله»، وأداء الفرائض والتكاليف الإلهية فهو الأصل الحاكم على كافة الأصول فى الحياة، وهو غير قابل للاستثناء فى أىّ ظرف من الظروف الاعتيادية.

---

[١] معنى هذين البيتين: عاهدت نفسى على أن لاأشرب الخمر عدا هذه الليلة، وليلة غد وليالى أخرى!!. فلايعرف الطريق المخفى إلى حانات الخمر.. إلا أنا والعارف والشيخ واثنين أو ثلاثة آخرون قد اشتهر أمرهم!!

وتلک الاشعار هى:

عهد بستم كه دگر مى نخورم به جز از امشب و فردا شب و شبهاى دگر

ره پنهانى ميخانه نداند همه كس جز من و عارف و شيخ و دو سه رسواى دگر

١١- الحالات النفسية للإنسان هى فى حال تغير وتبدّل مستمر، فاحيانا يفقد قلب الإنسان حلاوة ورغبة القيام بعمل ما، لايشتهى إنجازه، فيبعث فيه الكسل والإدبار. وفى هذه الحالة، علينا أن نكتفى بعمل الفرائض والواجبات وضروريات البرامج، وصرف النظر عن الدقة، وظرافة العمل بشكل مؤقت!. وفى مقابل ذلک، ينبغى استثمار الموارد التى تبعث على النشاط والحيوية والرغبة الكبيرة والواسعة فى إنجاز العمل بأفضل صورة[١].

[١] قال الإمام على(ع): «إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فاذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض» (نهج البلاغة، الحكمة ٣١٢).

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم.

٢. نهج البلاغة.

٣. إرشاد القلوب، محمد بن الحسن الديلمى، بيروت، مؤسسة الأعلمى، ١٣٩٨ش.

٤. إقبال الأعمال، على بن موسى الحلى، المعروف بابن طاووس، تحقيق: جواد قيومى، قم، مكتب الإعلام الإسلامى ١۴١۴ ق.

٥. أمالى الصدوق: محمد بن على بن الحسين، المعروف بالشيخ الصدوق، بيروت: مؤسسة الأعلمى ١۴٠٠ ق.

٦. أمالى الطوسى، محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسى، تحقيق: مؤسسة البعثة، قم: دارالثقافة، ١۴١۴ق.

٧. أمالى المفيد، محمد بن النعمان العكبرى، المعروف بالشيخ المفيد، تحقيق: حسين استاذ ولى وعلى اكبر الغفارى، قم: مؤسسة النشر الاسلامى، ١۴٠۴ق.

٨. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد تقى المجلسى، بيروت: دار احياء التراث، ١۴١٢ ق.

٩. بررسى زيربناى علمى ايدئولوژى اسلامى، السيد محمد حسين الحسينى البهشتى، قم: دار نشر الهجرة، ١۴٠٣ق.

١٠. به سوى محبوب، جمع وتنظيم السيد مهدى الساعى، قم: الشفق ١٣٧٧ش.

١١. تحف العقول عن آل الرسول، حسين بن على الحراثى، المعروف بابن شعبة، تحقيق: على اكبر الغفارى، قم: مؤسسة النشر الإسلامى، ١۴١٠ق.

١٢. تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد بن محمد التميمى الآمدى، تحقيق: مصطفى درايتى، قم: مكتب الإعلام الإسلامى، ١۴١٠ ق.

١٣. التوحيد، محمد بن على بن الحسين، المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق: هاشم الحسينى الطهرانى، قم: مؤسسة النشر الإسلامى، ١٣١٩٨ق.

١۴. ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، محمد بن على بن الحسين، المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق على أكبر الغفارى، طهران، مطبعة الصدوق.

١٥. الأربعون حديثا، للسيد روح الله الموسوى الخمينى، طهران، مركز النشر الثقافى، رجـاء ١٣٦٨ ش.

١٦. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله الأصـفهانى، بيـروت: دار الكتـاب العربـى، ١٣٨٧ق.

١٧. الخصال، محمد بن على بن الحسين، المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق: علـى أكبـر الغفـارى، بيروت: مؤسسة الأعلمى، ١٤١٠ق.

١٨. خودشناسى براى خودسازى، محمد تقى المصباح اليزدى، قم: مؤسسة نشر فى طريق الحـق، ١٣٧٠ ش.

١٩. داستان.ش١٣٧٣ ،ةرجهلا رظنراد :مق ،هراوز ىلگاضر ملاغ ،سردم ىاه

٢٠. ديدگاه توحيدى، يضم مقالات وبحوث منها: روح توحيد نفى عبوديت غير خدا، الإمام آية الله العظمى السيد على الحسينى الخامنئى(دام ظله)، طهران، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٥٧ ش.

٢١. روش برداشت از قرآن – رشد –صراط، على الصفائى الحائرى، قـم: مؤسسـة نشـر الهجـرة، ١٣٨٠ ش.

٢٢. روش تربيتى اسلامى، ترجمة كتاب مناهج التربية الإسـلامى، ترجمـة السـيد محمـد مهـدى الجعفرى، شيراز: مركز النشر الجامعى شيراز، ١٣٧٥ ش.

٢٣. شرح حديث جنود عقل وجهل، السيد روح الله الموسوى الخمينـى، طهـران، مؤسسـة تنظـيم ونشر آثار الإمام الخمينى، ١٣٧٧ ش.

٢٤. صحيفة النور، السيد روح الله الموسوى الخمينى، طهران، وزارة الإرشاد الإسلامى، ١٣٦٥ش.

٢٥. عدة الداعى ونجاة الساعى، أحمد بن فهد الحلى، تحقيـق: أحمـد الموحـدى، طهـران: مكتبـة الوجدانى.

٢٦. عوالى اللئالى، ابن جمهور الاحسائى، قم: مطبعة سيد الشهداء، ١٤٠٣ ق.

٢٧. الكافى، محمد بن يعقوب الكلينى، تحقيق: على أكبر الغفارى، طهران، دار الكتـب الإسـلامية، ١٣٨٩ ق.

٢٨. غرر الحكم ودررالكلم، عبد الواحد الآمدى التميمى، تحقيق: مير سيد جلال الـدين المحـدث الآرموى، طهران، جامعة طهران، ١٣٦٠ ش.

٢٩. فلسفه وهدف زندگى، محمد تقى الجعفرى، طهران: دار نشر صدرا.

۳۰. كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، المتقى الهندى، تصحيح صفوة السقا، بيروت: مكتبة التراث الإسلامى، ۱۳۹۷ق.

۳۱. گفتارى پيرامون صبر، الإمام آية الله العظمى السيد علىّ الحسينى الخامنئى(دام ظله)، طهران، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ۱۳۸۲ ش.

۳۲. لباس روحانيت؛ چراها وبايدها، محمد عالمزاده النورى، قم: مركز نشر مؤسسة الإمام الخمينى، ۱۳۸۴ ش.

۳۳. مجموعة الآثار، الشهيد مرتضى مطهرى، طهران، دار نشر صدرا، ۱۳۷۲ ش.

۳۴. المحاسن، أحمد بن خالد البرقى، تحقيق: السيد مهدى رجائى، قم: المجمع العالمى لأهل البيت(ع)، ۱۴۱۳ق.

۳۵. مسؤوليت وسازندگى، على صفائى حائرى، قم: مؤسسة نشر الهجرة، ۱۳۷۹ش.

۳۶. مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمى.

۳۷. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهانى، تحقيق: النديم المرعشلى، دار الكتاب العربى، ۱۴۱۶ ق.

۳۸. مقدمة ،نارهط ،فيسربكأ ىلع ةمجرت ،ناهنكرهرآ ىبو ،نوسلأ جاوتيه ،ىريگداي هيرظن ربى ا
.ش۱۳۷۴ ،اناد رشن

۳۹. مكارم الأخلاق، الفضل بن الحسن الطبرسى، تحقيق علاء آل جعفر، قم: مؤسسة النشرالاسلامى، ۱۴۱۴ ق.

۴۰. مناقب آل أبى طالب، ابن شهر آشوب المازندرانى، قم: المكتبة العلمية.

۴۱. مناهج التربية الاسلامية، محمد قطب، قم، دار الكتاب الاسلامى.

۴۲. منية المريد، على الجبعى العاملى، المعروف بالشهيد الثانى، تحقيق: رضا المختارى، قم: مكتب الإعلام الإسلامى، ۱۴۰۹ ق.

۴۳. ميزان الحكمة، محمد المحمدى الرى شهرى، قم: المؤسسة الثقافية، دار الحديث، ۱۳۷۵ ش.

۴۴. الميزان فى تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائى، قم: مؤسسة إسماعيليان، ۱۴۱۱ق.

۴۵. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملى، قم: مؤسسة آل البيت(ع) ۱۴۰۹ق.

الفهرست

مدخل البحث..... ٢

الفصل الأول: إلى أين؟..... ٦

السؤال..... ٦

أهمية البحث..... ٧

الافتراضات..... ٧

العلم..... ٨

الثروة..... ٨

العبادة..... ١٠

افتراضات أخرى..... ١٠

إجابات غير مدعومة..... ١٢

طريقة الكشف عن الإجابة..... ١٤

الإجابة الأولى: التوحيد والعبودية لله..... ١٨

آلهة أخرى..... ١٩

١-الأهواء والرغبات ١٩

٢-الآداب والرسوم ٢٠

٣-العادات والتقاليد ٢١

-٤حالات الضعف والانفعالات النفسية ٢١

٥-الآخرون ٢٢

الإجابة الثانية: التقوى..... ٢٨

الاجابة الثالثة: رضا الله..... ٣١

الإجابة الأخيرة ٣٤
المخالفة أم العبودية؟ ٣٩
قيمة العمل ٤٨
المعرفة والعبودية ٥٢
على قمة الكمال ٥٤
مقصد النمو ٥٦
مقصد نمو الإنسان وقيمته فى الحياة الفردية ٥٨
القرب إلى الله ٥٨
الحياة الطيبة ٦٦
مقصد نمو الإنسان وقيمته فى الحياة الاجتماعية ٦٩
الفصل الثانى: كيف؟ ٧٦
الأصل الأول: الاستعانة والاعتصام ٧٧
الأصل الثانى: الهمة والعزيمة العالية ٨٠
الأصل الثالث: العمل ٨٣
المعرفة للعمل ٨٣
إذا علمت فاعمل ٨٤
اعمل كل ما تعلمه، ولاتعمل ما لم تعلم ٨٤
اعمل، تجد ٨٦
إذا لم تعمل، فلن تجد ٨٨
خطر افتقاد المعلومات ٨٩
ملاحظة هامة ٩١
الشرط الأول فى التكليف: العلم ٩٢
الشرط الثانى فى التكليف: القدرة والاختيار ٩٣
الشرط الثالث للتكليف: التوجه والالتفات ٩٦
معطيات الاستثمار وثماره ٩٧
الأصل الرابع: الذكر ٩٨
١ـ التفكر ١٠١

٢ـ الموعظة ١٠٢
٣ـ المشاهدة ١٠٢
٤ـ التجربة ١٠٣
٥ـ تداعي المعاني ١٠٤
نتائج ومطالب ١٠٧
الاصل الخامس: تجديد النية ١١٢
الأصل السادس: الإعداد لتحصيل الملكة ١١٥
فوائد الملكة ١١٦
كيف يمكن الحصول على الملكات؟ ١١٨
الأول: المداومة والاستمرار ١٢٦
الثاني: التدريج ١٢٧
الثالث: مراقبة النفس والمحافظة على رغباتها ١٢٨
الرابع: الاستقامة ١٢٩
الخامس: الإقدام (اجتناب التسويف) ١٣٠
الأصل السابع: البرمجة والتخطيط ١٣١
الأصول الحاكمة على الخطط والمشاريع ١٣٤
الأصل الأول: طابع الشمولية ١٣٤
الاصل الثاني: التنسيق والموازنة، والتناسب التقريبي ١٣٥
الاصل الثالث: التنوع ١٣٨
الأصل الرابع: امتلاك النظرة العامة ١٣٩
الأصل الخامس: تنظيم الوقت ١٣٩
الأصل السادس: التغطية الشاملة ١٤٠
الأصل السابع: استحكام (الثقة والاعتقاد بالبرنامج المعدّ) ١٤٢
القدرة على البرمجة والتخطيط ١٤٢
إشارات حول البرمجة والتخطيط ١٤٥
مصادر الكتاب ١٥٠
الفهرست ١٥٤